قررت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

المطالعة العربية

للمدارس الثانوية

الجزء الثاني

للسنة الثانية

ألفته وراجعته لجنة من وزارة المعارف وجامعة فؤاد الأول

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

قررت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

المطالعة العربية

للمدارس الثانوية

الجزء الثاني

للسنة الثانية

ألفته وراجعته لجنة من وزارة المعارف وجامعة فؤاد الأول

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على رسوله خاتم النبيين ، وعلى سائر أنبيائه المطهرين ، وعباده المصلحين المخلصين .

وبعد ؛ فإننا نرى نهضتنا الفكرية المباركة قد شملت جميع وسائل التعليم ، وحفزت الهمم إلى التجديد والتحسين فى شتى النواحى ، فلم يكن بدّ أن تنال كتب المطالعة العربية نصيبها من الإتقان حتى تساير الرقى الفكرىّ العام ، وتسد حاجة النشء فى هذا العصر الزاهر .

وقد وضعنا فى العام الماضى كتباً للمطالعة العربية بالمدارس الابتدائية ، فلقيت — بحمد الله — قبولاً من المدرسين ، وكانت لها آثار محمودة فى إقبال التلاميذ على القراءة ، وتقدمهم فيها تقدماً يستدعى الاغتباط .

والآن نتمم ما بدأنا ؛ فنقدم كتباً أخرى للمطالعة بالمدارس الثانوية ، راعينا فيها التدرج والانسجام ، فلا يجد من ينتقل من مرحلة التعليم الابتدائى إلى مرحلة التعليم الثانوى ، أو من ينتقل من فرقة إلى أخرى من فرق المدارس الثانوية فى الكتاب المقرر عليه صعوبة تفجؤه فتصده عن الاستمرار فى المطالعة ، ولا يشعر حين يقدم إليه كتاب جديد

أن صلته بكتابه القديم قد انقطعت ؛ بل يعرف أن بين القديم والجديد تقارباً ظاهراً ، وعلاقة محكمة ، وصلة متينة ، فيترقى من الأدنى إلى الأعلى دون أن يشعر بصعوبة المرتقى .

وقد قصدنا إلى أن يكون كل كتاب مشتملاً على قطع كثيرة تصور الحياة فى بيئتنا المصرية ، ثم فى البيئة العربيـة ، ثم فى غيرهما من البيئات الأخرى .

وكذلك اخترنا طائفة صالحة من القصص التى تشوق التلاميذ ، وتحفزهم إلى القراءة ، وتهذب خيالهم ، وتربى عواطفهم ، وتقوم أخلاقهم ، وتمدهم بكثير من العبارات العربية السهلة السليمة التى تعينهم على التعبير عن أفكارهم فى أحاديثهم ، وفى إلقاء الخطب ، وتحرير المقالات .

وقد أكثرنا فى كل كتاب من القطع التى تجمع بين عذب الشعر وجيد النثر ، وتمثل الأدب فى عصوره المختلفة . وسيجد التلاميذ من بين هـذه القطع ما يصلح لأن يحفظوه ، فينمى ثروتهم اللغوية ، ويرقى أذواقهم الأدبية .

وكذلك وضعنا قطعاً فى تاريخ المخترعات وبعض المسائل العلمية الخطيرة ، وتراجم العلماء والمخترعين والكاشفين التى لا بد للتلاميذ من الإلمام بها . وراعينا فى هذه القطع تقريب المسائل العويصة إلى أذهان التلاميذ ، وتيسير الإبانة عنها ، وتجنبنا ما استطعنا أن نشعر التلاميذ فيها بصعوبة الأبحاث العلمية .

وقد اقتصرنا فى ضبط الكلمات بالشكل على الضرورىّ منه ، وبخاصة كتابا الفرقتين الثالثة والرابعة ؛ لنحمل التلاميذ على تفهم ما يقرءون ، ليستفيدوا بما درسوا من قواعد اللغة فى ضبط الكلمات بأنفسهم . فقد دلت التجارب على أن الإسراف فى الشكل أدى إلى اعتماد التلاميذ فى أثناء القراءة على أعينهم لا على عقولهم ، فأُقْفِلت أفكارهم ، وكانت قراءتهم آلية خالية من الفهم والتدبر .

وقد أَتينا بقطع سهلة مناسبة لمدارك التلاميذ — يجدها القارئ فى مواضع متفرقة من كل كتاب — خالية من الشكل ليختبر بها المدرس تلاميذه ، ويتبين مقدرتهم على ضبط الكلمات ، ويعدهم لقراءة ما ليس مشكولاً من الصحف والمجلات والرسائل والمكاتبات .

واقتصرنا فى شرح المفردات والعبارات على القليل المستغلق ، وتركنا ما عداه دون شرح ليعتمد التلاميذ على أنفسهم ، ويمرنوا على البحث فى المعجمات التى بأيديهم لمعرفة ما يصعب عليهم فهمه ، وليرجعوا إلى أساتذتهم فى شرح ما يعجزون عن معرفته بأنفسهم .

وإننا لنردد الشكر ، ونقدم واجب الثناء لوزارة المعارف فى هذا العهد السعيد الذى نهضت فيه باللغة العربية وآدابها ، وجددت شبابها ، وأعادتَ مجدها ، ورفعت مستواها ، حتى تظل أداة صالحة للفهم والتفاهم .

وتساير النهضة الحديثة التى تستمد من شباب مليكنا الصالح شباباً ، ومن نشاطه نشاطاً ، ومن قوته قوة ، حفظه الله ورعاه ، وأدام عليه نعمة السداد والتوفيق ؟

جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ هـ
يوليه سنة ١٩٣٨ م

المؤلفون :

ابراهيم مصطفى . محمد عطيه الإبراشى . محمود السيد عبداللطيف .
عبد المجيد الشافعى . الدكتور عبدالوهاب عزام . حامد عبد القادر .
محمد أبو بكر ابراهيم . محمد عاطف البرقوقى .

المراجعون :

الدكتور طه حسين بك . محمد أحمد جاد المولى بك
الأستاذ أحمد أمين . على الجارم بك

١ — آيات قرآنيـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ . مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلاَّ بالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون . إِنَّ فى اخْتلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يتَّقون . إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالْحَيَاةِ الدُّنيا واطْمَأَنُّوا بهـا والَّذين هُمْ عن آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولئكَ مَأْوَاهُمُ النَّار بِمَا كانوا يَكْسبون . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهم بإِيمانِهم ، تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فى جنَّات النَّعِيم . دَعْواهم فيها سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وتَحِيَّتُهم فيها سَلاَمٌ ، وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحمدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين .

(سورة يونس ٥ — ١٠)

٢ — الرُّجولَةُ فى الإسلام

لَعلَّ من أهمِّ الفُروقِ التى تُميِّزُ المسلمينَ فى أوَّلِ أمْرِهِم ، وفَجْرِ حَياتِهم ، عن المسلمين اليومَ : « خُلقَ الرجولَةِ » ؛ فقد غَنِيَ العصرُ الأوَّلُ بمن كانوا هامةَ الشَّرفِ ، وغُرَّةَ المجدِ ، وعُنوانَ الرُّجولةِ .

تَتَجلَّى هذه الرجولةُ فى « محمدٍ » إذ يقولُ : « واللهِ لو وضعوا الشمسَ فى يمينى والقمرَ فى يسارِى على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهره اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركتُه . » كما تَتَجلى فى أعمالِهِ فى أدوارِ حياتِهِ ، فحياتُه كلُّها سِلْسِلَةٌ من مظاهرِ الرُّجولةِ الحقَّةِ ، والبُطولةِ الفَذَّةِ ؛ إيمانٌ لا تُزَعْزِعُهُ الشدائدُ ، وصبرٌ على المكارهِ ، وعملٌ دائبٌ فى نصرةِ الحقِّ ، وهُيامٌ بمعالى الأمورِ ، وتَرفُّعٌ عن سَفْسافِها . حتى إذا قبضه اللهُ إليه لم يتركْ ثروةً كما يفعلُ ذوو السُّلطانِ ، ولم يُخَلِّفْ أعراضاً زائلةً كما يخلِّف الملوكُ والأمراء ؛ إنما خلَّف مبادئَ خالدةً على الدهرِ ، كما خَلَّفَ رجالاً يرعَوْنها وينشرونها ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسِهم من أجلِها .

وتاريخ الصحابة ومَن بعدهم مملوء بأمثلةِ الرجولةِ ؛ فأقوى ميزاتِ « عُمَر » أنه كان « رجُلاً » لا يُراعى فى الحق كبيرًا ، ولا يبالىْ عظيماً

أو أميرًا . يقول فى إحدَى خطبه : « أيها الناسُ ، إنه واللهِ ما فيكم أحدٌ أقوى عندى من الضعيفِ حتى آخذَ الحقَّ له ، ولا أضعفُ عندى من القويِّ حتى آخذَ الحقَّ منه . »

وينطقُ بالجملِ فى وصفِ الرجولةِ فتجرى مجرَى الأمثالِ ، كان يقولَ : « يُعْجِبُنِى الرجلُ إِذا سِيمَ خُطَّةَ ضَيمٍ أن يقولَ : (لا) بملءِ فيه . »

ويضعُ البرامجَ لتعليمِ الرجولةِ فيقولُ : « عَلِّموا أولادَكم العَوْمَ والرِّمايةَ ، ومُرُوهُم فَلْيَثِبُوا على الْخَيلِ وَثْباً ، ورَوُّوهم ما يَجْمُلُ من الشِّعر . »

ويضَعُ الْخُطَطَ لتمرينِ الوُلاةِ على الرجولةِ فيكتُبُ إِليهم : « اجْعلوا الناسَ فى الحقِّ سواءً : قَريبَهم كبعيدِهم ، وبعيدَهم كقريبِهم . إيَّاكم والرِّشَا والْحُكْمَ بالهوى ، وأن تأخذوا الناسَ عندَ الغضَبِ . »

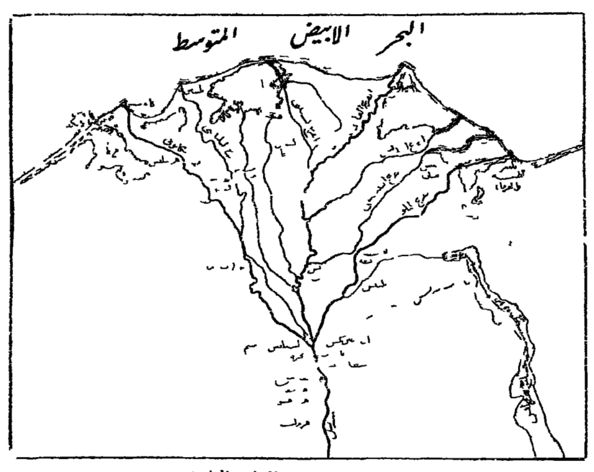
ويُعلِّمُهم كيفَ يَسوسونَ الناسَ ويُرَبُّونهم على الرجولةِ فيقولُ : « أَلا لا تَضرِبوا المُسلمين فتُذِلُّوهم ، ولا تُجَمِّرُوهم فَتَفْتِنُوهم ، ولا تَمْنَعُوهُمْ حقوقَهم فَتُفْقِرُوهم ، ولا تُنْزِلوهم الغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهم . »

من أجلِ هذا كُلِّه كان هذا العصرُ مظهرًا للرجولةِ فى جميعِ نواحى الحياةِ . تقْرأُ تاريخَ المسلمين فى صدرِ حياتِهم فيملؤُكَ روعةً ، وتَعْجَبُ كيف كان هؤلاء البدوُ — وهُمْ لم يتخرَّجوا فى مدارسَ علميةٍ ، ولم يَتَلَقَّوْا نظرياتٍ سياسيَّةً — حُكَّاماً وقادةً لخرِّيجى العلمِ ، ووارثى

السياسةِ . إنما سَمَتْ بهم الرجولةُ التى بَثَّهَا فيهم دينُهم وعُظماؤهم ، وهى التى جعلتهم يفوقون أرقَى الأُمَم مدنيةً وأعظمَها حضارةً .

ثم هم لا يفتحون فتحاً حربيًّا يعتمدُ على القُوَّة البدنيَّةِ وكفى ، إنما يفتحون فتحاً مدنيًّا إداريًّا مُنَظَّماً ؛ يُعَلِّمُون به دَارِسى العَدْلِ كيف يكون العَدْلُ ، ويُعَلِّمون علماء الإدارةِ كيف تكونُ الإدارَةُ ، ويُلقُونَ بِعَمَلِهِمْ درساً على العَالَمَ أنَّ قوَّةَ الْخُلُقِ فوقَ مظاهِرِ العِلْم ، وقوة الاعْتِقادِ فى الحقِّ فوق النظرياتِ الفلسفيَّة والمذاهبِ العلميّة ، وأن الأممَ لا تُقَاسُ بِفَلاسِفَتِها بِمِقْدارِ ما تُقاسُ بِرُجُولتِها .

٣ — مصر والعلم



مصور مبين به بعض المواقع التاريخيه

كتب التاريخ لمصرَ فى خدمةِ العلم ، وحمايةِ العلماء ، صفحةً لا تتَسامى إليها أمةٌ ، ولا تطمعُ فيها دولةٌ . ومنذُ القدمِ وهى مطلعُ العِلم ، وملاذُ العلماء ، ومدارسُها كعبةُ الدَّارسين من كلّ صَوْبٍ .

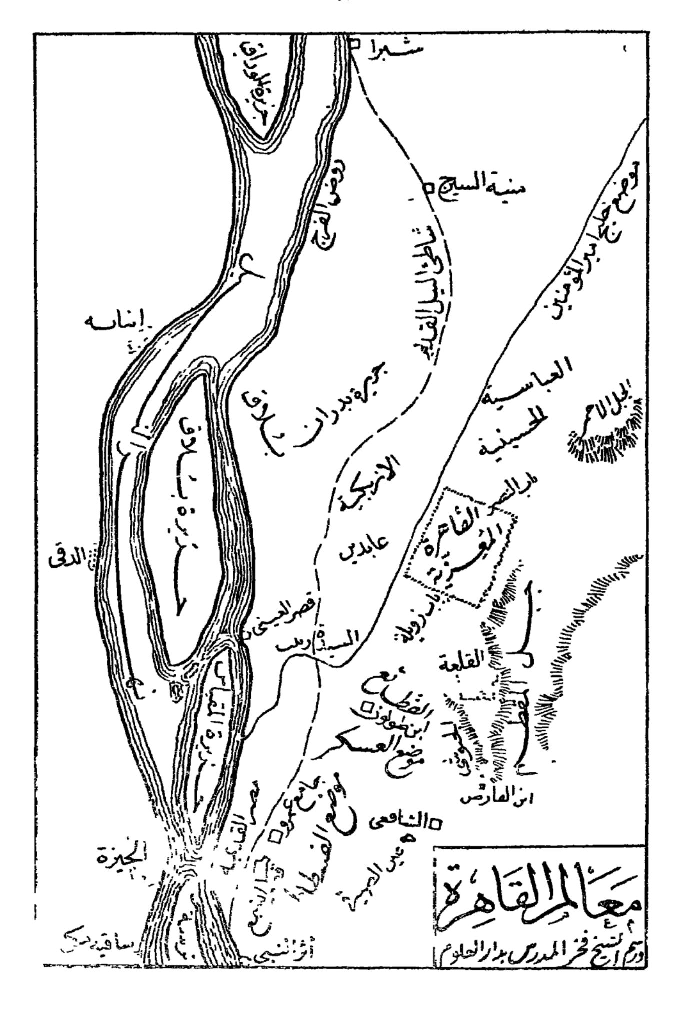
ففى العصورِ الأولَى قامت « جامعةُ عين شمس » ، فى الجانبِ الشرقىِّ من النيل ، عند مبدأ الدِّلْتا ، ونبغَ فيها العلماء ، وتقدم العلم ،

وملأ صيتُها الدنيا حتى كان من فَخْرِ العالِمِ أن يقبَلَهُ علماءُ عين شمس تلميذاً لهم ، ودارساً بين أيديهم وبإرشادهم . ولم تبخل مصرُ بعلمها ، ولا رأتْ أن تُؤْثِرَ به بنيها وَحْدَهُم ، فقد أمَّها جماعةٌ من علماء اليونانِ يتعلمونَ بين أيدى علمائِها ، ثم عادوا إلى بلادِهم أئمةً يَبُثُّون علومَهم وفلسفَتَهم الخالدةَ .

وَرِثت عينَ شمس مدينةُ الإسكندريةِ ؛ فكانت جامعتُها منارةَ العلم فى العالَم ، وكانت مكتبتُها أوسعَ المكاتبِ وأجمَعَها لنفائسِ الكتبِ . وفى جامعةِ الإسكندرية نبغَ كثيرٌ من العلماءِ فى الفلكِ والجغرافيةِ والفلسفةِ والدينِ وكثيرٍ من العلوم . وإن الدارسين لتاريخ العُلومِ ، وتقدمِ الفِكْرِ الإنسانى ، ليعرفون أثَرَ هذه المدرسةِ فى عقائدِ العلماء وعقولِهم ، وسبلِ تفكيرهم .

دالت دولةُ الإسكندريةِ ، ورجعت حاضرةُ البلادِ إلى جوفِ القُطْرِ ، وقامتْ مدائنُ « مصر » و « القطائع » و « القاهرة » وأُنشئت فيها المدارسُ ، ونبغ فيها العلماء ، وورث هذه المدارسَ « المدرسةُ الجامعةُ بالأزهرِ » .

عمِرت هذه الجامعةُ إلى اليوم نحو ألفِ عام حاميةً لعلوم اللغةِ والدين ، وكانت منارَ العِلْمِ بالشرقِ فى أظلمِ أيَّامهِ ، وحِمًى يلوذ به


معالم القاهرة
رسم الشيخ فخر المدرس بدار العلوم
شبرا
منية السيرج
القاهرة المعزية
القلعة
العباسية
الحسينية
الأزبكية
عابدين
باب زويلة
ابن طولون
القطائع
موضع العسكر
جامع عمرو
الشافعي
ابن الفارض
الجيزة
الدقي
إنبابة
قصر العيني
السيدة زينب
جزيرة بدران
بولاق
روض الفرج
موضع خليج أمير المؤمنين
الجبل الأحمر
أثر النبي
مصر القديمة

العلماء فيجدون أطيبَ الأمن ، وأسعد التَّرحيبِ . ولا تكادُ تجدُ اليومَ أمّةً تتكلم العربيةَ ، أو تدين بالإسلامِ ، إلا رأيتَ لهذه الجامعةِ أثرًا فيما يَدْرُسُ بنوها ، وفيما يفكرُونَ ، وفيما يَعْتَقِدونَ .

وجاءت النَّهْضَةُ الحديثةُ ، فأنشأت مصرُ مدارسَ عاليةً مختلفةً لدراسةِ أنواعِ العلومِ والآدابِ ، ثم أنشأت « الجامعةَ المصريةَ » (جامعة فؤاد الأول) ، فلم تلبثْ أن ملئتْ بالدارسين ، وأمَّها المتعلمون من أُمَمٍ شتَّى . وإنها اليومَ لأملُ مِصر ، وأملُ النَّاهِضين من أبناء الأمم الشرقية .

أرأيت هذا المجدَ العِلْميَّ العظيمَ كيفَ خُصَّتْ به مصرُ ، وازدان به تاريخُها ؟ أليْسَ حقًّا علينا — بنى مصرَ — أن نُقْبِل على العِلْمِ ، ونَجِدَّ في دراسته ؟ حتى نعيدَ لوطننا مَجْدَه ، ونُرْجِعَ إليه سالِفَ عَظَمَتِه ، ونُبَرْهِنَ أنَنَا حَفَدةُ قومٍ رَفعوا — قَبْلَ الناسِ — لواءَ العلم ، وعلَّموا الأمَمَ ، وقامت المدنياتُ على هُدًى من مدنيتهم ، والحضاراتُ على مُثُل من حضارتهم .

٤ — مِنْ أخلاَقِ المأمون

حُكِيَ عن القاضى يَحْيى بنِ أَكْثَمَ قال : « كنتُ نائماً ذاتَ ليلةٍ عند المأمونِ فَعطِشَ ، فامْتَنعَ أن يَصيحَ بِغلام يَسْقِيه وأنا نائمٌ فَيُنغِّصَ عَلَىَّ نَوْمِى ، فرأيتُه وَقَدْ قام يَمْشِى على أطرافِ أصابعهِ ، حتى أتى موضعَ الماء ، وَبَيْنَه وبَيْن المكانِ الذى فيه الكيزانُ نحو ثلاثمائةِ خَطوةٍ . فأخذ منها كوزاً فَشَرِبَ ، ثم رجع على أطرافِ أصابعهِ حتى قَرُبَ من الفِراشِ الذى أنا عليه ، نخطا خَطَواتٍ خفيفةً كيلا يُنَبِّهَنى ، حتى صارَ إلى فِراشه .

ثُمَّ رأيتهُ آخِرَ الَّليل وقد قام لِقَضاء الحاجَةِ ، وكان يقومُ فى أوَّل الليلِ وآخره . ولما أتى الفجرُ قَعد طويلاً . منتظراً أن أَتحرَّكَ فيصيحَ بالغلامِ . فلما تحركتُ وثبَ قائماً وصاحَ : « يا غلامُ ! » وتأهبَ للصَّلاةِ وصلَّى . ثم جاءنى فقال لى : « كيف أصبحتَ يا أبا مُحَمَّد ؟ وكيف كان مَبِيتُكَ ؟ » قلتُ : « خيرَ مبيتٍ ، جعلنى الله فداءكَ يا أميرَ المؤمنين ! قد خصَّكَ الله تعالى بأَخْلاق الأنبياء ، وحبَّب إليك سيرَتَهم ، فهنأك الله تعالى بهذه النَّفْحَةِ وأتَمَّها عليك . »

وكنت معه يوماً فى بستانٍ ، فجَعَلْنَا نَمُرّ بالرَّيْحانِ فيأخذ منه الطَّاقَةَ والطَّاقَتَيْن ، ويقولُ لِقَيِّمِ البستان : « أَصْلِح هَذا الْحَوْضَ ، ولا تَغْرِس فى هذا الحوْضِ شيئاً من البُقُولِ . »

قال يحيى : « ومَشَيْنَا فى البُسْتَانِ من أوله إلى آخِرِه ، وكنت أنا مما يَلى الشمسَ ، والمأمونُ مما يَلى الظِّلَّ ، فَكانَ يَجْذِبُنِى لِأتحول أنا فى الظِّل ويكونَ هو فى الشمس ، فأمتنعُ عَن ذَلِك ، حتى بلغنا آخِرَ البُسْتَانِ . فلما رَجَعْنا قال : « يا يحيى ! لَتَكُونَنَّ فى مكانى ، وَلأَكونَنَّ فى مَكَانِكَ ؛ حتى آخُذَ نَصِيبِى من الشّمْسِ كما أَخذتَ نَصِيبَك ، وتأخذَ نصيبَك من الظِّلّ كما أخذتُ نَصيبى . » فقلتُ : « واللهِ يا أميرَ المؤمنين لو قَدَرتُ أن أَقِيَكَ يَوْمَ الهَوْلِ بِنَفْسِى لَفَعَلْتُ . » فلم يَزَلْ بِى حتى تَحَوَّلْتُ إلى الظِّل وتحوَّلَ هو إلى الشَّمْسِ ، وقَالَ : « إِنهُ لاَ خَيْرَ فى صُحْبَةِ مَنْ لاَ يُنْصِفُ . »



٥ — الشيخ محمد عبده

من أفاضِل رجالِ الدِّين ، وقادَة المفكِّرين — الأستاذُ الإمامُ الجليلُ الشيخُ مُحمد عبده ، قُدوةُ المصلحينَ ، وأشهرُ رجالِ مِصرَ العامِلين فى نَهْضَتِنا الحاضرةِ .

ولد سنة ١٨٤٥م بمحلَّة نصر ، إحدى قرى مركز شَبراخيت بمديرية البحيرةِ . وحَفِظَ القرآنَ ، وتعلَّمَ مبادئَ القِراءةِ والكتابةِ بها . ثم أرسله والدُه إلى معهدِ طنطا ، فصادفَ عناءً فى فهمِ العلومِ لعُقمِ طريقةِ التَّعليم وقِدَمِها ، وكاد يَنْكُصُ على عَقِبَيْه ، ويعودُ إلى قريته ، ويشتغلُ بالفِلاحةِ كأَبيه وبقيَّةِ أسْرَتِه . ولكن عِنايةَ الله قيَّضَتْ له من يَسَّرَ له سبيلَ الفهمِ ، وحَبَّبَ إليه طلبَ العِلمِ ، فعاد إلى مناهل العلم نَهِماً ، وغادر مَعْهدَ طنطا إلى الأزهرِ ، وأخذَ يتزوَّدُ من علومه بقدر استطاعته حتى نَبُه اسمه ، وعُرِفَ بالذكاء والفِطنَة بين إخوانه .

ولما قَدِم إلى مصرَ فيلسوفُ الشَّرْق جمالُ الدين الأفغانىُّ ، انتظمَ الشيخ محمد عبده فى سِلْكِ تلاميذِه ، واقتبسَ من عِلمِهِ وفَلْسَفَتِه ، ولازَمه ملازمةَ ظِلّه ، ونال إجازةَ العالِميَّة ، واخْتير مدرِّساً للأدبِ العربى والتاريخ بدار العلوم ، وأستاذاً لِلُغَة العربية بمدرسة الألسُن ، ثم اشتغلَ بالتَّحرير فى الوقائِع المصرية .

وشَبَّت الثَّورة العرابية فكان منْ أبْطَالها ، ونُفِيَ من القُطْرِ المِصْرىّ بعد انْتِهائها ، فذَهَب إلى سورية ، ثم انْتَقل إلى باريسَ ، وأنْشأ مع أسْتاذه جَمالِ الدِّين صَحيفةَ العُرْوةِ الوُثْقى . ثم عُفِى عنه سنة ١٨٨٨ م فعادَ إلى مصر فعُيِّن قاضِياً فى المحاكم الأهليةِ ، ثم كان مُفْتِياً لِلديار المصرية . وبقى فى منصبه مسموع الكلِمة ، واسعَ الجاه ، شديدَ البأس ، عظيمَ السلطان ، إلى أن وافته منيتهُ سنة ١٩٠٥ م ، فاهتز العالمَُ الإسلامىُّ لوفاته . ويُعدُّ الأستاذُ الإمام من فحولِ الكُتَّاب الذين حَرَّرُوا الكتابةَ العربيَّة فى النهضة الحديثة من قُيودِها القديمةِ ، وأخذوا يرجعون بأساليبها إلى أرقَى عُصورها وأزْهَرِ أيامها .

فمن كتابته قولهُ فى إعجاز القرآنِ :

نزَلَ القرآنُ فى عصرٍ اتفقَ الرُّواةُ وتَواتَرت الأخْبارُ على أنّهُ أرْقَى الأعْصارِ عند العَربِ ، وأغزَرُها مادّةً فى الفَصاحةِ ، وأنهُ الممتازُ بين جَميع ما تَقَدَّمه بِوَفْرةِ رجالِ البَلاغَةِ وفُرسانِ الخطَابَةِ . وأنْفسُ ما كانت العربُ تُنافِسُ فيه — من ثمار العَقل ، ونتائجِ الفِطَنِ والذَّكاءِ — هو الغَلَبُ فى القَوْلِ ، والسَّبْق إلى إصابةِ مكانِ الوِجْدَانِ من القلوبِ ، ومَقر الإذعان من العُقولِ ، وتَفانيهم فى المفاخرةِ بذلك مما لا يحتاجُ إلى الإطالةِ فى بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحِرْص على معارَضةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والْتِماسِهم الوسائلَ قريبَها وبَعيدَها لإبطالِ دَعْوَتِهِ ، وتَكْذيبِهِ في الإخْبارِ عن اللهِ ، وإتْيانِهم في ذلك على مَبْلغِ اسْتِطاعَتِهم . وكان فيهم الملوكُ الذين تَحْمِلهم عِزةُ المُلْكِ على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطانُ إلى مُناوَأته ، والخطباء والشعراء والكتابُ الذين يَشْمَخون بأنوفهم عن متابعته . وقد اشْتَدَّ جميعُ أولئك في مقاومَتِهِ ، وانْهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع ، وتَمَسُّكا بما كانوا عليه من أدْيان آبائهم ، وحَمِيَّةً لِعقائدهم وعقائد أسْلافهم . وهو مع ذلك يُخَطِّئُ آراءهم ويُسَفِّه أحْلامَهم ، ويَحتقر أصنامهم ، ويَدْعوهم إلى ما لم تَعْهَده أيامهم ، ولم تَخفُق لِمثله أَعْلامُهم ؛ ولا حُجّة له بين يدي ذلك كُلّه إلا تَحَدِّيهم بالإتْيانِ بمثلِ أقْصَرِ سُورَةٍ من ذلك الكتابِ ، أو بعَشْرِ سُوَر مثله . وكان في اسْتِطاعتهم أن يَجْمَعوا إليه من العلماء والفصحاء والبُلَغاء ما شاءوا ، ليأْتوا بشيء من مثلِ ما أتَى به ؛ لِيُبْطِلوا الحجةَ ، ويُفْحِموا صاحبَ الدَّعوَةِ .

جاءنا الخبرُ المتواتِرُ أنّهُ مع طولِ زَمَنِ التَّحَدِّي ، ولَجاجِ القَوْمِ في التَّعَدِّي ، أُصِيبوا بالعَجْزِ ، ورجَعُوا بالخَيْبَةِ ، وحَقّتْ للكتابِ العزيز الكلمةُ العُلْيا على كُلِّ الكلامِ .

٦ — مياه الشرب بالقاهرة

كانت مدينةُ القاهرةِ إلى منتصف القَرْنِ التاسعَ عشَر ، تَسْتَمِدُّ ماءَ الشُّرْبِ من الخليج المصرى ، الذى كان يخترقُ المدينةَ ، أو من نَهْرِ النّيل. وكان السَّقاءون يَملئون قِرَبهم ، ويُوَزِّعونها على المَنازِل بثمن مُعَيّنٍ.

وكانت المياه تُوزَّعُ بدون تنقيةٍ أو رشحٍ ؛ فتُنَقَّى فى المَنازل بالشَّبِّ ونحوِه ، وتُرْشَحُ بالأزبار لِتُصَفَّى مما بها من التراب والمواد الغريبة.

فلما نهضت مصرُ ، واتسعت رُقْعَتُها ، وشَعرَ الناسُ بما يلاقونه من المصاعبِ فى أخذ حاجتهم من الماء — فكَّرَت الحكومةُ فى توزيع الماءِ بالأنابيبِ على نحو ما فى البلادِ الرَّاقية ، واتفقت مع إحدى الشركاتِ الأوربيةِ على أن تَتَوَلَّى هذا العملَ النافعَ.

بدأت هذه الشركةُ عملها ، وكانت تَسْتَمِدُّ الماءَ من التُّرْعَةِ الإسماعيليةِ ، وتدفعُه فى قَنَواتٍ إلى العبَّاسيّةِ . وهناك « يُنَقَّى » ويُوَزَّع بالأنابيبِ على المنازِل ، مدفوعاً بقُوَّة الثِّقَلِ.

وفى أوائلِ القرنِ العشرينَ كانت مياهُ الشرب تستَمد من آبارٍ « ارتوازيَّة » فى حَىّ « روض الفرج » ، وتُدْفَعُ فى الأنابيب بدون تنقيةٍ ، ولكنَّ رجالَ الصحة لاحَظوا أن ماءَ هذه الآبارِ — وإن كان صافياً

نقيًّا — يتأثرُ بالأنابيبِ كلما طال مُكْثُه بها ، فلا يعودُ صالحًا للشُّرْبِ صلاحًا تامًّا ، فعادت الشركة إلى أخذ الماء من النيلِ مُباشَرَةً .

ولها الآنَ فى مدينةِ القاهرةِ مَحَطَّتانِ : (الأولى) بقربِ قصرِ النيل ؛ وهى مخصوصة بتوزيعِ المياهِ التى تلزَمُ لِغَسْلِ الشَّوارِع ، وإرواءِ الحدائِق . ويُرْسَلُ هذا الماءُ فى الأنابيبِ على طبيعته ، فلا يُنَقَّى ولا يُصَفَّى .

والمَحَطةُ الأُخرى فى « روض الفرج » وهذه مُخْتَصّةٌ بإمْداد المدينةِ بالمياهِ اللازِمَةِ للشُّرْبِ ، ولحاجاتِ المنازِل من غَسْلٍ وطَبْخٍ ونَحْوِ ذلك .

ويؤخذ الماءُ فى محطةِ « روض الفرج » من مكانٍ بعيدٍ من الشاطئِ بنحو مائة « متر » بأنبوبتين قُطْرُ كلٍّ منهما « متر » ، تنخفض فوهتاهما عن مُستوَى الماء أيَّام انْخِفاضه بنحوِ « متر » ونصف « مترٍ » . ويتم ذلك بإدارَةِ آلاتٍ بُخارِيَّة قوِيَّةٍ يعمل بعضُها ، ويَبْقَى الآخرُ لِيُدار وقْتَ الضرورَةِ .

ويُنقَّى هذا الماءُ من الموادِّ الغريبة بدفعهِ إلى أجهزَةٍ تسمى « الأجهزَةَ المروقة » ، وهى خِزانات كبيرةٌ ذاتُ أرضٍ مربعةِ الشكلِ ، فى وسَطِها آلةٌ تدورُ حَوْل مِحْوَرها لتحريكِ الماء ، بعد أن يضافَ إليه جزءٌ من الشَّب . وتنقل المياه بعد تصفيتها وتَطْهيرِها من الجراثيم فى خزاناتٍ مُعَدة للرَّشْحِ الرَّمْلِيّ ، وتتم تَنْقِيتُها بعد الرَّشْح بإضافة مادة [illegible]

« الكلور » السائل بِنسَبٍ مُعَيَّنةٍ ، وبذلك يصيرُ الماء صالحاً للشُّرْبِ والأعمالِ المنزليَّةِ .

وَيَتمُّ توزيعُ المياهِ فى مدينة القاهرة بمجموعتين من الأنابيبِ ؛ واحدة لتوزيع المياه الكَدِرَة التى تسْتَعْمَل لِلرَّش وإرواء الحدائق ، وأُخْرَى لتوزيع المياه النقيَّة .

والأولى : تتلقى المياهَ التى تُدْفَع من محطة « قَصْرِ النيل » إلى خزانات واسِعَةٍ فى حى العباسية ، ثم تُدْفَع بِضَغْطٍ قَوِيٍّ من هذه الخزاناتِ إلى مَخْزَن مرتفِع بالجبلِ الأحْمَرِ ، تتصل به هذه المجموعة من الأنابيبِ .

والثانيةُ : تتألف من ثلاثِ شَبَكاتٍ تتلقى المياهَ من خزانات واسعةٍ ؛ بعضُها مبنىٌّ فى جبلِ الْمُقَطَّمِ والجبلِ الأحمرِ ، وبعضُها صنع من الحديد على عُمُدٍ مرتفعة ، وتختلفُ فى سَعتِها وارتفاعها تبعاً لارتفاعِ الجهاتِ التى تصلُ إليها ؛ فخزاناتُ جبلِ المقطم والجبلِ الأحمر تَسَعُ خمسين ألفَ « مِترٍ » مُكعَّبٍ من الماء ، وتَعْلُو عن سطحِ البحرِ بمقدارِ ثلاثةٍ وخمسين « مترًا » ، ويعلو المخزَن المَعْدِنى عن سطح البحرِ بمقدار اثنين وعشرين ومائة « متر » . وجملة الأنابيب الحديدية والرَّصاصِية التى يجرى فيها الماء ، تزيد طولها على خمسة عشر «مليونًا» من «الأمتار» .

وبَعْدُ : فإن مياهَ الشرب التى تؤخذ من مَحَطَّة « روض الفرج »

تحتاج فى نظافتها وصلاحيتها إلى احتياطٍ صِحّىّ ، ووسائلَ عِلمية دقيقةٍ ؛ منها ما يُتّخذ عند استخراج الماء مِن مَوْرِدِه الأوّلِ بالنّيل ، ومنها ما يُتّخذ فى الخزانات المتعددة لحفظ الماء من الفسادِ ، وتَنْقِيتِه من الموادّ الغريبةِ ، وتَطْهيره من الجراثيم .

وتُشْرِف مصلحةُ الصّحةِ على تنظيفِ الخزاناتِ وتَطْهيرها إشرافًا دقيقًا ، ولا تكتَفِى بذلك ؛ بلْ تأْخُذُ كلّ يوم مقدارًا من الماء ، للفحص عنه فَحصًا عِلميًّا حتى تَستَوْثق من أن الماء نقىٌّ صالحٌ للشرب .

ومتوسط ما يخصُّ كلّ واحد من سكان القاهرة كلّ يَوْم يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ « لترًا » ، وهذا يُماثلُ ما يُصْرف فى العواصِم وأمهاتِ المدن فى البلاد الراقية .

ومما تَقَدّمَ تعلم أن إمدادَ مدينةٍ عظيمةٍ كمدينة القاهرةِ بالماء اللازِم لحاجاتها ، يحتاج إلى دِراساتٍ فنيةٍ دقيقةٍ ، ما بين هَنْدَسِيةٍ وطبيةٍ وكِيميائية ، كما يَحتَاجُ إلى اهتمامٍ دائمٍ . ويَقظَةٍ شديدةٍ للمحافظةِ على الشّروطِ الصحية فى أقْصَى دَرَجاتِ الكمالِ ؛ لأنّ أقلّ إخلالٍ بهذه الشروطِ قد يُؤدّى إلى أشَدّ الويْلاتِ والكوارِثِ .

فإذا كانت الشركاتُ الصناعِيّةُ والزّراعية والكِيميائيةُ وغيرها تتعاونُ على إسعاد الشعوبِ وتنعُّمِها بنعم الحياة الهنيئة . فإنّ فى مقدّ[illegible]

هذه الشركات كلِّها شركاتِ المياه التى تُمِدّ « الألوفَ » و « الملايينَ » من الناس بالماء ، الذى هو أهمُّ حاجاتِ الحياةِ كلها ، وفى سلامته من الجراثيم سلامةُ العبادِ والبلادِ .

وتعتزم الحكومةُ إنشاءَ محطاتٍ فى نواحِى القُطْرِ المِصرِىّ ؛ لإمدادِ سكانه جميعاً بالماء الصالح النَّقِىِّ ؛ ليسلم أفرادُه مما يصابون به من الأمراض الكثيرةِ الانتشارِ ، التى تكثر جراثيمها فى الماء الكدِرِ الذى يشرب منه أهلُ القرى ، فيَقْضِى على شبابهم ، أو يذهب بصحتهم .

إنها إذَا فعلت ذلك تكونُ قد أدَّتْ واجباً هو فى مُقَدّمةِ الواجباتِ كُلِّها ، وحافظَت على حياة طبقات من الناس فى أيديها مفاتيحُ الثّرْوَةِ والرَّخاء ، وعليها المُعْتَمَدُ فى البأساء والضَّرّاء .

٧ — مصر

للمرحوم حافظ بك إبراهيم



فخرُ مِصر

وقفَ الخلقُ ينظرون جميعاً   كيفَ أبْني قواعِدَ المجدِ وحْدِي
وبناةُ الأهرامِ فى سالفِ الدَّهْـــر كَفَوْنِي الكلامَ عند التَّحدِّى
أنا تاجُ العلاء فى مَفْرق الشَّرْ   قِ ودُرَّاتُه فرائدُ عِقْدِي
أىُّ شيءٍ فى الغربِ قد بَهرَ النَّا   سَ جمالًا ولم يَكُن منهُ عنْدِي ؟
ورِجالِي لو أنصفوهم لسادُوا   مِن كُهولٍ مِلْءِ العيونِ ومُرْدِ
إنهم كالظُّبا ألحَّ عليها   صدأ الدهر من ثَواءٍ وغِمْـــدِ
فإذا صَيْقَلُ القضاء جَـــلاها   كنَّ كالموتِ ما لَهُ من مَرَدِّ

حجاجُها

قل لمن أنكروا مفاخِرَ قومى　　مثلَ ما أنكرُوا مآثرَ وُلدِى
هل وقفتم بِقمَّة الهَرِم الأ　　كْبَرِ يوماً فَرَيْتُمُ بعضَ جُهدى ؟
هل رأيتم تلكَ النُّقوشَ اللَّواتى　　أعجزتْ طوقَ صَنْعَةِ المُتَحدِّى ؟
هل فهمتم أسرارَ ما كانَ عنْدِى　　من علومٍ مخبوءةٍ طيَّ بَرْدِى ؟

* * *

ذاك فنُّ التحنيطِ قد غلبَ الدهـ　　ـرَ وأبلَى البِلَى وأعجزَ نِدِّى
أنا أمُّ التشريعِ قد أخذ الرُّو　　مانُ عنى الأصولَ فى كُلِّ حَدِّ
ورصدتُ النجومَ منذُ أضاءتْ　　فى سماءِ الدُّجَى فأحكمتُ رَصْدِى
وشدا (بنتاءورُ) فوق رُبوعى　　قبلَ عهدِ اليونانِ أو عَهْد نَجْدِ

* * *

وقديماً بنى الأساطيـلَ قَوْمِى　　فَفَرَقْنَ البحارَ يَحْمِلنَ بَنْدِى
فسَلوا البحرَ عن بَلاءِ سَفِينى　　وسَلوا البَرَّ عن مَواقعِ جُرْدِى
أىُّ شعبٍ أحقُّ منِّى بعيشٍ　　وارفِ الظِّل أخْضرِ اللَّوْن رَغْدِ ؟

مناجاتُهـا لبنيهـا

فَرِدوا بي مناهِلَ العِـزّ حتى يَخْطُبَ النَّجْمُ في المجرةِ وُدِّي
وارفَعوا دولتي على العِلْمِ والأخـلاقِ فالعلمُ وحدَه ليْسَ يُجْدِي
إن في الغرب أعينًا راصدات كَحَلَتْها الأطماعُ فيكم بسُهْدِ
فاتَّقوها بجُنَّةٍ من وِئَامٍ غيرِ رَثّ العُرا وسَعْيٍ وكَدِّ
واصفحوا عن هنات مَن كان منكم رُبَّ هافٍ هَفَا على غيرِ عَمْدِ

* * *

نحن نجتازُ موقِفًا تَعثر الآ راءُ فيه . وعثرةُ الرَّأيِ تُرْدِي
فقفوا فيه وقفةَ الحَزْمِ وارْموا جانِبَيْه بِعَـزْمَةِ المُسْتَعِدِّ
إننا عندَ فجرِ لَيْلٍ طويلٍ قد قطعناهُ بَيْنَ سُهدٍ ووَجْدِ
وتجلَّى ضياؤُه بعـدَ لأيٍ وهو رَمْزٌ لِعهدِكَ المستَرَدِّ
فاستبينوا قصدَ السَّبيل وجدُّوا فالمعالي مخطوبةٌ للمُجِـدِّ

٨ — الريف[1]

أدْرَكتنى سآمةٌ فَزِعتُ منها إلى الرِّيف أرْجو أنْ أجِدَ بين مُروجِهِ المُنْبَسِطَة راحة لصَدْرى المُنْقَبِض .

إنا نحن — الفلّاحين أبْناء الفلاحين — نَبتْنا فى المزارع وحَوْل جداوِل المياه ، نَسْتَنْشِقُ الهواء طَليقاً لا يَحْبِسهُ شىء ، ونَسْتَقْبِل الشمس سافِرَةً ليس من دونها حِجاب ، ونَرى حيثُ سِرْنا أهْلاً وعشيرة ، إذا مَرِض أحدهم عُدْناه ، وإذا مات شَيّعْناهُ ، وإذا مَسّهُ ضُرٌّ مَسَّنا ، وإذا غَضِبَ نَهَضْنا معه غِضاباً ، لا نَسْأله على ما قال بُرْهاناً .

نحن أسْرَةٌ واحدةٌ وإن فرّقَتْنا المنازِل ، وإخْوَةٌ مُتقارِبونَ وإنْ مَيَّزَ بَيْنَنا الفَقْر والغِنَى . يحْتَرِمُ صَغيرُنا كَبيرَنا ، ويَعْطِفُ كبيرُنا على صَغيرِنا .

لا جَرَمَ كانت مَعيشةُ المُدُنِ تُورِثنا وَحْشَةً وضَجَرًا بما تخرجنا عما نفهم من معانى الحياة ، وأكبرُ ما نَفْهم من معانى الحياة الْحُرِّية والعَصَبِيّةُ . ولا جَرَم أنّا نَجِدُ نَشاطنا وراحَتَنا فى هذه القُرى السَّاذَجَة العامِرة بقوم طَيِّبةٍ قلوبهم ، خالية نفوسُهم من شَوائبِ التّكلُّف المدنى .

فى هذا الريف نحس أُنْسَ العائلة وعزَّ العَشيرة ، ونَذُوقُ حلاوَةَ النَّشاطِ المُثْمِر فى ظلِّ الْحُرِّيّة الناليَة .

(١) لمعالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق .

كلما دَخَلت المدائن تمثّلتُ المناصِب وما تَسْتَلْزِمه من مُداهَنة الرُّؤساء ، وقِلّة الصَّراحَة والمرُونة فى الرَّأى والعَقيدَة ؛ كأن أَهْلَ المدن كلّهم مُوَظّفون ، تُحدد آمالهم وأعمالهم دائرة ضيقة ؛ أمّا هذه الأرض البَدَوِيّة فأَهْلُها يَعيشون فى سَعةٍ من الأَمَل والعمل .

أيّتُها الأرض المباركة ! حيّا الله رِحَابَك الخِصْبَة ، فقد كانت أطْيبَ مَهْدٍ لِعَهْد الطفولَةِ عليه السـلام . وَإِن أكبر آمالنا أن نَعيشَ فيك إلى جَنْبِ قَوْمنا الفلاحين ، سُعداء بحُرِّيتنا ، سُعداء بأَخْلاقنا وعَصَبِيّتِنا .

٩ ـ الغنى والفقـــير

للســـيد مصطفى لطفى المنفلوطى

مررتُ ليلَة أمسِ برجل بائسٍ ، فرأيتُه واضعاً يَدَه على بَطْنِه ؛ كأنما يَشْكو ألمًا ، فرَثَيْتُ لحالِه ، وسألتُه ما بالُه ، فشكا إليَّ ألمَ الْجوعِ ، فَفَثَأتُه عنه ببَعْضِ ما قَدَرتُ عليه ، ثم تَرَكْتُه وذَهَبْتُ إلى زِيارةِ صَديقٍ لى من أربابِ الثَّراء والنِّعمَةِ ، فأدهَشَني أنِّي رأيتُه واضعاً يَدَه على بَطْنِه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائسُ الفقيرُ ، فسألته عمَّا به ، فشكا إليَّ البِطْنَةَ . فقلتُ : « يا لَلْعَجبِ ! لو أعطَى ذلك الغنِيّ ذلك الفقيرَ ما فضَلَ عن حاجَتِه من الطَّعامِ ،



ما شكا واحدٌ منهما سُقْماً ولا ألمًا . لقد كان جَديرًا به أن يَتناوَل من الطَّعامِ ما يُشْبِع جَوْعَتَه ، ويُطفِئ غُلَّتَه ، ولكنه كان مُحبًّا لنَفْسِه ، مُغاليًا بها ، فَضَمَّ إلى مائدته ما اختَلَسَهُ من صَحْفَةِ الفقيرِ ،

فَعَاقَبَهُ الله على قَسْوَتِه بالبِطْنَةِ؛ حتى لا يَهْنِئَ للظالم ظُلْمُه، ولا يَطيبَ له عَيْشُه، وهكذا يَصْدُق المَثَلُ القائلُ: «بِطنَةُ الغَنِيّ انتقامُ لجوعِ الفَقيرِ.»

ما ضنت السَّماء بمائها، ولا شَحَّت الأرضُ بنباتِها، ولكن حسدَ القويُّ الضعيفَ عليهما فزواهُما عنه، واحتجَنَهُما دُونَهُ، فأصبحَ فقيراً مُعْدِماً، شاكياً مُتَظلِّماً، غرماؤه المياسيرُ الأغنياء، لا الأرضُ والسماء.

ما أظلمَ الأقوياءَ من بنى الإنسانِ، وما أقسى قُلوبَهم! ينامُ أحدُهم ملءَ جَفْنَيْهِ على فراشِه الوثير، ولا يُقْلقه فى مَضجَعِه أنه يسمعُ أنينَ جارِه، وهو يَرْعَدُ بَرْداً وقُرّاً. ويَجْلِسُ أمامَ مائدةٍ حافلةٍ بِصُنوفِ الطَّعامِ، قديدِه وشِوائِه، حُلوِه وحامضِه، ولا يُنغِّصُ عليه شَهْوَتَه عِلْمُهُ أن بين أقربائه وذَوى رَحِمِه من تَتَوَاثب أحشاؤه شَوقاً إلى فُتاتِ تلك المائدةِ، ويسيلُ لُعابُه تَلَهفاً على فَضلاتِها؛ بل إن بينهم من لا تخالط الرحمةُ قلبَه، ولا يَعْقِد الحياء لسانه، فيظَلُّ يسرُد على مِسمَعِ الفقيرِ أحاديثَ نِعمتِه، وربما استعانَ به على عَدِّ ما تشتمل عليه خزائنُه من الذهبِ، وصناديقُه من الجوهرِ، وغُرفُه من الأثاثِ والرِّياشِ: ليكسِرَ قَلبَهُ، ويُنغِّصَ عليه عَيْشه، ويُبَغِّضَ إليه حَيَاتَه، وكأنَّهُ يقولُ

فى كل كلمةٍ من كلماتِه، وحَرَكةٍ من حركاتِه : « أنَا سَعيدٌ لأنّى غَنِيٌّ، وأنْتَ شَقِيٌّ لأنَّك فَقِيرٌ . »

لا أستطيعُ أَن أتَصَوَّرَ أنّ الإنسانَ إنسانٌ حتى أراهُ مُحْسِناً، لأنّى لا أعتمدُ فَصْلاً صَحِيحاً بَيْن الإنسانِ والحيوانِ إلاّ الإحسانَ . وإنّى أرى النّاسَ ثلاثةً ؛ رجل يُحْسِن إلى غَيْرِه، ليتخِذَ إحسانَه إليهِ سَبيلاً إلى الإحسانِ إلَى نفْسهِ ، وهو المستَبِدُّ الجبّارُ الّذِى لا يَفْهَمُ من الإحْسَانِ إلاَّ أنّهُ يستعبِدُ الإنسانَ ؛ ورَجُلٌ يُحْسِنُ إلى نَفْسهِ ، ولاَ يُحْسِنُ إلَى غيره، وهذَا الشَّرِهُ الّذِى لو علم أن الدَّمَ السائلَ يستحيل إلى ذهبٍ جامدٍ لَذَبَح فى سبيلِهِ الناسَ جميعا ؛ ورجلٌ لا يُحْسِن إلى نفسِهِ ، ولا إلى غيرِه ، وهذا البخيلُ الأَحْمَقُ الذى يُجِيعُ بطْنَه ليُشْبِعَ صُنْدُوقَه .

أما الرابعُ الّذِى يحْسِنُ إلى غيرِه ، ويحْسِنُ إِلى نَفْسهِ، فلا أعْلَمُ لَهُ مكاناً ، ولا أجدُ إليهِ سبيلا . وأحسبهُ أنّهُ هُوَ الّذِى كَانَ يُفَتِّشُ عَنْهُ الفيلسوفُ اليُونَانِىُّ « إِدْيوجين » الكلبى ، حينما سُئِل ما يَصْنَع بمصباحه ، وكان يَدُور به فى بياضِ النَّهارِ فقال : « أُفَتّش عن إنسانٍ . »

١٠ — مصر بُستانُ العالَم ومَحشرُ الأمم

هذه كلمةُ الإمامِ المؤرِّخ عبدِ الرَّحمن بنِ خَلْدُون فى مصرَ . وقد استحقّتْ مصرُ أن تكونَ بستانَ العالَم بما مَنحها اللهُ من سماءٍ صافِيةٍ ، وشمسٍ مُشْرِقَةٍ ، وجَوٍّ على الأزمانِ مُعتَدِلٍ ؛ لا يَقسو بردُه ، ولا يَشْتد كلَّ الاشْتدادِ حرُّه ؛ ففيها النيلُ غزيرُ الماء ، دائمُ الجَرْيِ ، كثيرُ الخيْرِ . ولها التُّرْبةُ الخِصبةُ ، تُنبتُ مختلِفَ النباتِ ، ومُتنوِّعَ الشَّجرِ .

وحَسْبُكَ أن تَمُرَّ فى مزرعةٍ من مزارعِ القمحِ — وهو صغيرٌ نابتٌ أخضرُ لينُ العودِ ، يتماوجُ مع الهواء — لترَى منظرًا يُمتِعُ العينَ ، ويَملأُ القلبَ لَذَّةً وسرورًا . أو تزورَ مزرعةً من مزارعِ الفولِ — وقد أزْهَرتْ وملأَ الجوَّ شذاها — لتجد أجملَ مَنظرٍ ، مع أطيَبِ عَرْفٍ يَمْتَدُّ شذاهُ أميالا .

ولقد غَنَّى قدماءُ المصريين الأناشيدَ الجميلة ، يذكرونَ غيطانَ الفول وشذَاها ، وثمرها وجَناها ، ويُمَجّدونَ مزارعَ القمحِ ونضارتَها ، وهى أهلٌ لهذَا التمجيدِ ، وجديرَةٌ أن تُنْشَدَ فيها شَتَّى الأناشيدِ .

على أن مصر تزيدُ بَهجَةً ونضارةً إذا وُجِّهت العنايةُ إلى تجميلها فغُرِستْ فى جوانبِ النهرِ ومجارِى الماء الأشجارُ الجميلة ، وزُيِّنَت

الدور بالحدائقِ الصغيرةِ ، وعُنِيَ الزّارعون بتربيةِ أنواعِ الزّهر وتنسيقه . هنالك تَتجلَّى مصر فى حُلَّةٍ من الجمالِ ساحِرةٍ .

وجمالُ مصر واعتدالُ جوها وموقعُها بين القاراتِ ، جعلها مَقْصِدَ الشَّرْقِيِّ والغرْبِيّ، وصَيَّرَها — كما قال الإمامُ ابنُ خَلدون — « محشرَ الأُمَمِ » . وأنتَ تراها الآنَ مُجْتمعاً لعدة أجناسٍ يَقْصِدون إليها من أقصَى البلادِ شرقيِّها وغربيها ؛ ففيها من أُوربا وأَمريكا وآسيا وأسْتُراليا ، وأنواعِ الأُمَمِ المختلفةِ ما لا يكادُ يوجدُ فى قُطْرٍ سواها ؛ فهى تَتَّصِلُ بكل حضاراتِ العالَمَ وأُمَمَ الدنيا .

فهل تَمَتَّعَ المِصْرِىُّ بكل ما فى وطَنهِ من جمالٍ ، وبثمراتِ ما له من موقعٍ ، ومن اتصالها بكُل الحضاراتِ ؟ إِنهُ لواجبٌ على المِصرىّ أن يُفَكِّرَ فيما يُمكِّنُه من الانتفاعِ بميزاتِ بلاده على أتمّ أوْجُه الانتفاعِ ، وأفْضَلِها له ولوَطَنهِ .

١١ — أَنْتَ أَنْتَ اللهُ[١]

إذا ما اتجه الفِكر فى السمواتِ حَيث انتشرَت النجومُ فى الليلِ ، وإذا ما كلَّ البصر فيما لا نِهايةَ له من الآفاقِ المظلمةِ ، وإذا ما خشَعت النَّفْسُ خَشْعَتَها من رَهبةِ السّكونِ الشاملِ ، فإنك تشْرُف بوَجهك الكريم من خِلالِ هذه الآفاقِ ، وتسمعُ صَوتَك فى ذلك السكونِ ، وتَمَسُّ بعظمتِك النفسَ الخاشِعةَ المطمئنةَ ، حينئذ تبدو الآفاقُ المظلمة كأَنها باسمةٌ مُشرقةٌ ، ويتحوَّلُ السكونُ إلى نبراتٍ مُطرِبَةٍ تنبعث من كلِّ صَوب ، وحينئذ تتغنَّى النفسُ الخاشعةُ لتقولَ : « أَنْتَ أَنْتَ اللهُ . »

وإذا ما كان المتأَمِّلُ على شاطئِ البحرِ الخِضَمِّ ، وأرسَل الطرْفَ بعيداً بعيداً ، حيث تختلطُ زرقةُ السماء بزُرقةِ الماء ، وحيث تنحدرُ شمسُ الأصيلِ رُويداً رُويداً كأَنها الإبريزُ المسحورُ ، لتغيبَ فى هذا المتسعِ الملحِ الأُجاجِ . وحيثُ تَتَهادَى الفُلْكُ ذاتُ الشِّراعِ الأبيضِ فى حدودِ الأُفُقِ المُلَوَّنِ بأَلوانِ الشفق ، كأَنها طائرٌ يَسبح فى النعيم — إذ ذاك يشعر المتأمِّل بعظمةٍ واسعةٍ دونها عظمةَ البحرِ الواسِع ، وإذ ذاك تَقَرُّ العينُ باطمئنان الفلك الجارى على أديمِ الماءِ المُمَهَّد ، وفى رعايةِ اللهِ الصَّمَدِ ، حيث تكونُ مضرَ العظمة . وحيث تطمئن

---

(١) من « خواطر نفس » للدكتور منصور [illegible]

النفسُ لرؤيةِ ما تطمئن إليه فى مَنْظر جميلٍ . إذ ذاك يَدُق الفؤاد بدقات صَداها فى النفس : « أنت أنت اللهُ . »

وإذا ما انْطَلَقت السفينة بعيداً بعيداً فى البحرِ اللُّجِّىِّ ، وهبَّت الزوابعُ ، وتسابقت الرياحُ ، وتلبَّد بالسُّحُبِ الفضاء ، واكْفَهرَّ وجهُ السماء ، وأبرق البرقُ ، وأرعد الرعدُ ، وكانت ظلماتٌ بَعْضُها فوق بعض ، ولَعِبَت بالسفينة الأمواجُ ، وأَجْهَدَ البحار جُهْدَه ، وأفرغ الربان حيلتَه ، وأشْرَفَت السفينةُ على الغرقِ ، وتربَّص الموتُ من كل صَوْبٍ وحَدَبٍ — إذ ذاك يَشُقُّ ضياؤك هذه الظلماتِ والمسالكَ ، وتُحيطُ رأفتُك بِهَذه الأخطارِ والمهالك ، وتصِلُ بحبال نجدَتِكَ المكروبين البائسين ، وإذ ذاك يردّد القلبُ واللِّسانُ : « أنت أنت الله . »

وإذا ما اشْتَدَّ السَّقَم بمن أحاطت به عنايةُ الأطباء ، وسهرُ الأوفياء ، ونام بين آمالِ المخلصين ودَعَواتِ المحبِّين ، ثم ضَعُفَتْ حيلةُ الطبيب ، ولم ينفع وفاء الحبيبِ ، واستحالَ الرَّجاء إلى بلاء — إذ ذاك تَتَجلَّى مُسْتَوِياً على عرش عظمَتك ، والنَّواصِى خاشعةٌ ، والنُّفوسُ جازعةٌ ، والأيدى راجفةٌ ، والقلوب واجفةٌ لتقول : « أنا قضيتُ » ، ويقول الطبيبُ والقريبُ والحبيبُ : « لك الأمر ، أنت أنت الله . »

وإذا ما بانَ الدنيا إنسانٌ وبايَنَتْهُ ، إذ ينظر إلى المالِ فيلقاه فانياً ،

وإلى الجاهِ فيلقاه فانياً ، وإلى الأمانى فيلقاها زائلةً ، وإلى الآمال فيجدُها باطلةً ، وإلى الشهوات فيلقاها خادعةً كاذبة ، وإلى المسرّاتِ فيجدُها آفلةً غاربةً — إذ ذاك يَسْتَغنى عن الجاهِ والمالِ ، وتُشَلُّ فى نفسه حركةُ الآمال . وبين جاهٍ يدولُ ، وأملٍ يزولُ ، لا يملأُ فراغَ النفس إلا ذكرُكَ : « أنت أنت الله » .

وإذا ما وقعت العينُ على زهرة تتفتّقُ فى الأكمام ، أو تلاقت العينُ بعين يملؤها الحسنُ والابتسامُ ، وإذا ما أُعجب المعجَبون بجمالِ الفجْرِ المتنفّسِ ، وتغريد الطيرِ المتربِّصِ ، وعاود الصدرَ انشراحُه ، وملأ القلبَ ارتياحُه — إذ ذاك يُشرِقَ فى قلوبنا نورُكَ الجميل فنراكَ : « أنت أنت الله » .

فبما يمسُّ النفْسَ من مظاهر العظمةِ ، ومظاهرِ الوُسْعةِ ، ومظاهرِ الرَّحْمَةِ ، ومظاهرِ القُدْرَةِ والقضاء ، ومظاهرِ الدَّوامِ والبقاء ، ومظاهرِ الجمالِ والجلالِ — اعتادَ الناسُ أن يَصِفوكَ بالعظيمِ . والواسعِ والرَّحيمِ ، والقادرِ والدَّائم ، والجميلِ والجليل ، وأوتارُ القلوب تُرَدِّد : « أنتَ أنتَ الله ؛ أنتَ أنت الله » .

١٢ — السُّفن الهوائيـــة

كان من أمانىِّ الإنسان وأحْلامِه منذُ القِدَمِ ، أنْ يَصيرَ يوماً ما قادراً على أن يَمْتَطِيَ الهواء ، ويطير فى الْجوّ حيث يشاء ، كما يفعلُ الطائرُ الْحُرُّ الطليقُ .

وشاءت الأقدارُ ألا تَتحققَ أُمنيةُ الطيران إلا فى أوائِل القرنِ العشرين . وكل ما استطاع الإنسانُ أن يفعله فى العصور السابقة أن يرتفعَ فى الجو ، ويصعَد فى الهواء راكباً الْمنطاد أو سفينةَ الهواء .

ولقد كان الصينيون أسبق من الأوربيين إلى تحقيقِ هذا الْحُلمِ اللَّذيذِ ، كما كانوا أسبقَ إلى الطِّباعةِ واستخدامِ « البوصلة البحرية » . لا نعرف كثيراً عن المطاودِ التى صنعها الصينيون ، ولكنا نجزمُ أنهم صنعوا نوعاً منها فى القرنِ السابعَ عشرَ ، وأنهُم أطلقوها من « بكينَ » فطارت فى الجوّ ، وصعدت فى السماء ، وفاز من أطلقها ، وأعْجبَ بها من شاهَدها .

منطاد لافا

وفى القرنِ نفْسِه ، فكَّرَ « فرنسيسُ لافا » الْمُتَوَفَّى سنة ١٦٨٧ م فى صُنْعِ مُنْطَادٍ ذى شراع ، تجعله مكوناً من أربع كراتٍ من النحاس

جوفاء ، كبيرةِ الحجم ، خفيفةِ الوزن رقيقةٍ جدًّا ، فإذا أُفْرِغَ هواؤُها كان وزنها أخَفَّ كثيراً من الهواء المحيط بها ، واستطاعت أن تَعلوَ في الجو ، وتطير في الهواء ، تحمل « سَلَّة » ، ويتصلُ بها شراعٌ يُسْتَخدمُ للقيادةِ ، وكانت من القدرة على الارتفاع بحيثُ يمكن أن تَحْمِلَ في « السَّلة » بعضَ المسافرينَ . وكانت هذه فكرة طريفةً ، ولكن حال دون تنفيذها صعوباتٌ فنيَّةٌ ، فلم تَعْدُ عَالَمَ الْخَيَالِ .

وفي سنة ١٧٦٦ م وُفِّق أحدُ العلماء[1] إلى أن يبرهِنَ أن غازَ (الهيدروجين) أخفُّ من الهواء ، وقد كان لهذا الكشفِ أثرٌ كبيرٌ في اختراعِ المطاودِ : إذ أصبحَ من الممكن أن تملأ كرةً أو نحوها بذلك الغاز ، ويُربط بها « سَلةٌ » أو نحوُها فترتفعُ الكرةُ في الهواء تحمل بها « السَّلةَ » .

بعد ذلك بنحو عشرين سنة قام « يوسف منتجلفير[2] » وأخوه « جاكْ » الفرنسيان بتجربَةٍ خطيرةٍ : هي أنهما ملأا حقائبَ من الوَرق بالهواء الساخن ، وأطلقاهَا فطارت في الهواء : لأَن

مطاد منتجلفير

(١) هو كافندس العالم الإنجليزي Cavendish (٢) Montgolfier

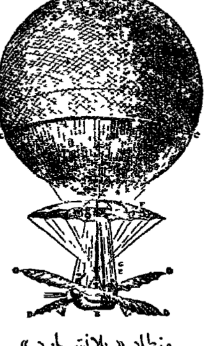
الهواء الساخنَ — كما تعرفُ — أخفُّ من الهواءِ البارد . ولقد لفتت هذه التجربةُ أنظارَ الباحثين ، وكانت مبدأً لعمل تجاربَ أُخرى ، من نتائجها بناء مطاودَ تطيرُ فى الهواء حاملةً المسافرين .

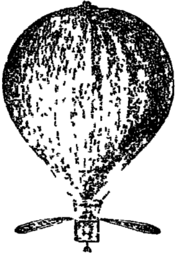
وفى سنة ١٧٨٣ م كرر الأخَوان التجربة مستعينَين هذه المرةَ بمنطاد من الكتَّانِ بدلاً من الورق ، وربطا به « سَلَّةً » وضعا فيها شاةً وديكا وبَطَّة ، فكان لهذه الثلاثة الأسبقيةُ فى الطيران فى الهواء بهذه الوسيلةِ . وقد بقى هذا المنطاد فى الهواء ثمانى « دقائق » ، ثم نزل إلى الأرضِ بهدوء .

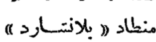
بعد ذلك ببضعِ أسابيع طارَ أوَّلُ من طارَ من بنى الإنسانِ ، ذلك هو « بلاَتْردِي رُوزِير » الفرنسى الجرىء ، الذى صَعِد فى الهواء فى منطاد مقيَّدٍ ، وعَلا فى الجوِّ إلى ارتفاع مائة قدم ، ثم نَزَلَ إلى الأرض سالماً . ثم قام هذا المِقْدام بتجربة أخرى أشدَّ خطرًا من الأولى ؛ فرَكِبَ هو وأحد أصدقائه مُنْطاداً طليقاً ، ارتفع بهما خمسمائة « قدم » ، وظلَّ سائرًا فوق متْن الهواء عشرين « دَقيقة » . ثم نَزَلَ إلى الأرض بسلام .

وفى سنة ١٧٨٤ م صَعِدَ فى الجوِّ أوَّلُ منطاد أُطْلِقَ من إنجلترا ، وكان ذلك بأ[illegible] على يد « لُونَارْدِى » الإنجليزى الذائع الصيت . ومن ذلك الحين شُغِفَ الناسُ بإطلاق المطاودِ فى سنة ١٨١١ م حينما

وُلد لنابليونَ ابنُهُ الذى سُمِّىَ « ملكَ رومة » رَكبت المنطادَ سَيِّدَةٌ جريئةٌ هى مدام « بلانْشارْد » ونَثَرت من الجْوِّ نشرات تُبَشِّر الشعبَ بذلك المولودِ .






منطاد « بلانشـارد »

منطاد « لو ناردى »

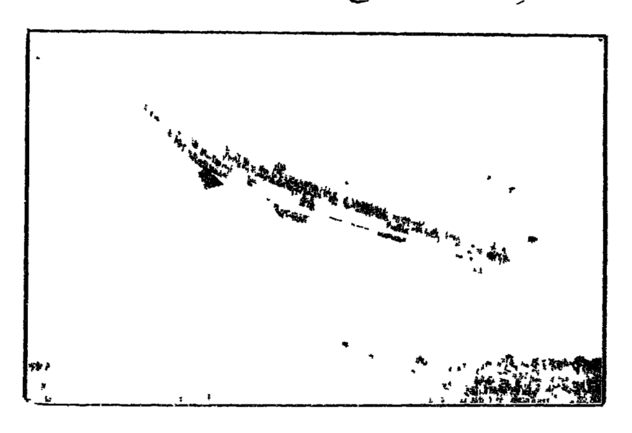
وإلى ذلك الحين لم تُستَعْمَل المطاوِدُ لأغراضٍ عمليةٍ هامَّةٍ .

ولم يهتدِ الباحثون فى أوَّلِ الأمرِ إلى إخْضاعِ المطاوِدِ لقيادةِ الراكبين ، وقد كان « زبلينُ » الضابطُ الألمانىُّ من بين الذين شاهدوا المطاوِدِ المقيدة تطيرُ فى الهواء فى أمريكا ، وتُستَخْدَمُ للكشف فى أثناء الحربِ الأمريكية التى قامت سنة ١٨٦١ م ، ولَشَدَّ ما كان إعجابُه بما رأى وشاهَد ، فما إن وصَل إلى وطَنِه حتى أغرى قُوادَ الألمانِ باستعمالِ المطاوِدِ لأغراضٍ حربية .

وإلى الكونت « زبلينَ » هذا يرجعُ الفضل فى إخضاعِ المنطاد

لقيادةِ الرّاكِب ، فقد فكّر فى بناء سُفُنٍ هوائيّةٍ حقيقيّةٍ تَخْضَعُ لقيادةِ السائقين ، فيسيرونها حيثُ يشاءون مهما كان اتجاهُ الريح . وقد نجح فى الوُصولِ إلى هذا الغرَضِ ، غير أن سُفُنَه المزوّدة بالآلاتِ المحرِّكةِ كانت كثيرةَ النّفقاتِ .

وقد لَقِيَ « زبلينُ » فى صنع هذه السفن صعوباتٍ جمّةً ، وكان كلما



منطاد « زبلين »

فقد سفينةً همَّ بصنعِ أخرى ، حتى أثقلتهُ الديون . واعتقد الناسُ أنه مِتلافٌ مسرِفٌ . ولكنه ما زال دائبًا فى تجاربه . غيرَ هيّاب ولا بائسٍ ، حتى وُفق إلى صنعِ سفينةٍ متينةٍ استطاعت أن تقومَ برحلةٍ جويّةٍ ، وظلّتْ تطْوِى الفضاء حتى تمت مسافةً طولها سبعون ومائتا « ميل » .

ولقد لفتَ هذا النجاحُ نظرَ الحكومةِ الألمانية ، فعَمَدت إلى تشجيعِ « زبلين » ، وأمدَّته بالمالِ لمتابعة تجاربه ، واستمرَّتْ صناعةُ السُّفن الهوائيةِ تتقدَّمُ على يد « زبلين » ؛ فكانت كلُّ سفينةٍ أفضلَ من سابقتها ، وانتفعَ الألمانُ بهذه السُّفُنِ في الحرْب العظمى .

ولم تَألُ الحكومةُ الألمانيةُ جهداً في تشجيع « الكونت » ، ومدِّه بالأموالِ كي يستمرَّ في تجاربه ، ويرقَى في صناعته . ولقد نَهجَ هذا المنهج انجلترا وفرنسا وغيرُهما ، فانتشرت بين الأمَمِ صناعةُ السفنِ الهوائيةِ الخاضعةِ للقيادةِ . ولكن هذه الأممَ لم تُقْبِلْ على صنعِ هذه السفن إقبالَ ألمانيا عليها ؛ لأنهم رَأَوا أن الطيَّاراتِ أقلُّ نفقةً ، وأسرَعُ طيراناً ، وأقلُّ عرضةً للأخطار .

وقد ابتُكِرَ من طراز « زبلين » عدَّةُ سفنٍ تختلفُ في شكلها وحجمها ، وكان لها شأنٌ عظيم في الحرب العظمى الماضية ، فكثيراً ما كانت تغير ليلاً على الأعداء وترميهم بوابل قنابلها ، وتُلحِقُ بهم خسائرَ فادحةً . ولكن الحلفاء استطاعوا أن يتغلبوا على السفن الهوائية باستخدامِ الطياراتِ في الهجوم عليها والإحداقِ بها . وإطلاقِ النار عليها ، وإتلافها أو تدميرها . ذلك لسرعة الطيارات في السير والالتفافِ والارتفاعِ والانخفاضِ .

ومنذ انتهاء الحرب العظمى ، استُخدمت المطاود فى السفَر ، وكَشْفِ مجاهلِ القطب الشمالى . وقد حاز المنطادُ « جراف زبلين » شهرةً عالميةً . وما زال قائدُه الدكتور « إكْنَرُ » الألمانى يقومُ بالرحلات الجوية المختلفة من أوربا إلى أمريكا وبالعكس ، ومن أوربا إلى آسيا وأفريقية ، وما عَهْدُ زيارتِهِ لبلادنا المحبوبةِ ببعيد .

ولقد تعلمُ أن بناء السفنِ الهوائيةِ يرجعُ إلى سُنَّةٍ طبيعية ، هى أن الخفيف من السوائل أو الغازاتِ يطفو على سطح الثقيل منها ، كما يطفو الخشبُ والزيتُ على سطح الماء ، وكما يعلو الدخان فى الجو ، وكما ترتفع السحُبُ إلى الطبقات العليا من الهواء .

ومن المعروف أن الهواء الساخن — لتمدده — أخفُّ من الهواء البارد ؛ ولذا كانت المطاودُ فى مبدأ اختراعها تُملأ هواءً ساخناً ، وكان من الطبعى أن يسقطَ المنطادُ حينما يبرُد ما به من هواء . وهذا هو الذى حدا بالمفكرين إلى استعمال غازٍ يبقى أخفَّ من الهواء مهما تكنْ درجةُ حرارته ، فاستعملوا « الهيدروجين » ؛ إذ وجدوا أنه يَفْضُل غيره من الغازات ؛ لأنه أقلها كثافةً ، إذ تبلغ كثافته جزءًا من تسعةَ عشرَ جزءًا من [illegible] قدرته على الارتفاع ورفع المطاود ، ترجح مقدرة أيّ غازٍ آخر [illegible] يبقى منه بالمنطاد ما دام الراكبُ

يرغبُ في البقاء في الهواء . ولكنه مع ذلك قابلٌ للالتهابِ بسرعة ، وإذا اشتعل أحرق المنطادَ ، وعَرَّضَ راكبيه للخطر . وقد نشأ عن التهابه تدمير عدَّةِ مطاودَ ، وفَقْدُ كثير من الركاب والقادة .

وقد عثر الباحثون في أمريكا حديثاً على غازٍ سَمَّوْه « الهليومَ » وقد عرفوا من خواصه خِفةَ الوزن وعدمَ الالتهابِ ؛ فهو لذلك يفضل « الهيدروجين » ، ويصلح لرفع المطاودِ دون أن يجعلها عرضةً للخطر .

ولا ريب أن قدرة المنطادِ على الارتفاع تختلف باختلاف كثافةِ الهواء المخزون به ؛ وكلما عظمت كثافةُ الهواءِ المحيط بالمنطاد ، عظمت مقدرتُه على الارتفاع ؛ ولذا نرى أن المنطاد يقف ولا يقدر على الارتفاع إذا وصل إلى الطبقات العليا من طبقات الجو ، حيث يكون الهواء متخلخلاً .

وقد كانت المطاودُ الأولى خاليـــةً من الآلات الميكانيكية ، التى يستطيع بها الراكب أن يوجه المنطادَ إلى حيثُ يريد . فكان المنطادُ يتبع في اتجاهه اتجاهَ التيارِ الهوائي ، وكل ما كان يَسْتَطِيعُه الراكب أن يرتفع بالمنطادِ أو ينخفض به ، بتغيير كثافةِ الغاز الذي به ، أو بِوَضعِ بعضِ الأجسام الثقيلة فوقه .

فانظر كيف كانت حقيقةٌ علميةٌ واحدة سبباً في قيام صناعةِ السُّفُنِ الهوائية — إحدى عجائب القرن العشرين .

١٣ — مَساجِدُ القاهرةِ

كانت المساجدُ تبنى فى القاهرة قديماً : لتكون مدارسَ لدراسةِ العلومِ المختلفةِ مع إقامةِ الصَّلَاةِ فيها ، ثم بُنِيَتْ مَعَاهِدُ خاصَّةٌ بالتَّعليم ، وأخذ الملوكُ يتنافسونَ فى تَعْميرها والإِنفاقِ عليها .

ومن أفخم المساجدِ وأضْخَمِها مَسجِدُ السلطانِ حسنٍ بجوارِ القَلْعَةِ : فهو عَظِيمُ الاتساعِ ، شاهقُ البنيان ، غايةٌ فى الدِّقَّةِ ، وجَمالِ الهَنْدَسَةِ ، وإِحكامِ البِناء . ويُعَدُّ من عجائبِ الأَبْنِيَةِ التى تُزَيِّن القاهرةَ الآنَ .

جامع السلطان حسن

قال فيه المقريزى :

« لا يُعْرَفُ ببلاد الإسلام مَعْبَدٌ من معابد المسلمين يُحاكى هذه المدرسةَ فى كِبرِ قالبِها ، وحُسْنِ هندامِها ، وضخامةِ شكلِها . أقامت

العِمارةُ فيها مُدَّةَ ثلاثِ سنينَ لا تَبْطُل يوماً واحداً، وأُرْصِدَ لعمارتها في كلِّ يوم عِشرُونَ ألفَ دِرْهَمٍ، حتى قال السلطانُ: «لولا أن يقالَ: مَلِكُ مِصر عجز عن إتمامِ ما بَناهُ لتَرَكْتُ بناءها.»

وذَرْعُ إيوانِها الكبيرِ خَمْسةٌ وستونَ «ذِراعًا» في مِثلِها. وكان السلطان يريد أن يَبْنِيَ لها أَرْبَعَ مَنائِرَ، فلما بُنِيَتْ ثلاثٌ سَقَطَت المنارةُ التى على البابِ، فَهَلَكَ تَحتَها نحوُ ثلاثمائةِ نَفْسٍ من الأيتامِ، الذين كانوا يَقْرءون القرآن ومِن غيرِهم، فَلهِجَ الناسُ: «إن هذا يُنْذِرُ بِزَوالِ الدَّوْلةِ.» فقال الشيخُ بهاءِ الدِّين السُّبْكِيُّ:

تلك الحِجارةُ لم تنقَضّ بل هَبطَتْ ... مِن خَشْيةِ اللهِ لا لِلضَّعْفِ والخَلَلِ
وغابَ سُلطانُها فاستوْحَشَتْ فَرمَتْ ... بنفسِها لِجَوًى في القلبِ مُشْتَعِلِ
لا يعترى البؤسُ بعدَ اليوم مدرسةً ... شَيَّدْتَ بُنْيانَها لِلْعِلْمِ والعَمَلِ
ودُمْتَ حتى ترَى الدُّنيا بها امتلأَتْ ... عِلماً فليس بمصرٍ غيرُ مُشْتَغِلِ

وفي القاهرة مساجدُ أُخْرى عَظيمةٌ شاهِدَةٌ بحضارَةِ مِصرَ، وعِنايةِ مُلُوكِها بالتعليمِ ونشرِه، وتَنافُسِهم في العِمارة؛ كجامِعِ المُؤَيَّد عند باب زُوَيْلَة، وهو — في فَخامةِ بنائه، وارتفاعِه، وجمالِ هَنْدَستِه، وبديعِ نِجارَتِه، ونَفاسةِ زَخْرَفتِه ونُقُوشِه — مِن مَحاسِنِ القاهرةِ ومَفاخِرِها

١٤ — خُزَيْمَةُ بنُ بِشْرٍ وعِكْرِمَةُ الفَيَّاض

كانَ فى زمنِ سليمانَ بنِ عبد الملك شريفٌ عربىٌّ يُسمَّى: « خزيمةَ بن بِشْر » ، وكان يسكن « الرَّقة(١) » ، وله ثروةٌ ونعمةٌ حسنةٌ ، وفضل على إخوانهِ . فلم يزَل عَلَى تلك الحالِ حتى نَفِد مالُه ، وساءت حالُه ، فاحتاج إلى أصدقائه وإخوانه الذين كان يَتفَضَّلُ عليهم ، فواسَوْه حيناً ، ثم مَلُّوه وقطعوه ، فلما رأى تَغيُّرَهُمْ عليه ، قال لزَوْجِه :

« يا بنة العَمِّ ! قد رأيت من إخوانى تغيراً أَغَمَّنى ، وقد عزمت على لزومِ مَنْزِلى حتى يأتىَ إلىَّ أجَلِى ، أو يُفرِّجَ اللهُ سبحانه وتعالى مِن أمْرى . »
فأغلق بابه ، وأقام مع زَوجِه وأولاده يقتاتون مِمَّا بَقِىَ عندهم حتى نفِدَ .

وكان عِكْرِمةُ الفياضُ والياً على الجزيرة ، وجرى بمجلسه ذكرُ خزيمةَ يوماً ، وعنده عدة من وجوهِ البلدِ ، فقال عكرمةُ : « كيف حالُ خزيمةَ ؟ » فقيلَ له : « قد ساءت حالُه إلى أن أغلق بابه ولزِم مَنْزِلَه . » فقال : « إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون ! أما وُجِد له مُواسٍ ولا معينٌ ؟ » قالوا : « لا . »

فأمسك عِكْرمة على ما فى نفسه . فلما كان المساءُ عَمَدَ إلى أربعةِ آلافِ دينارٍ ، وجعلها فى كيسٍ ، وأمر بإسْراج دابَّته سِرًّا من أهْلِه ووَلَدِه ، وركب ومعه غلام من غلمانه يَحمِل الكيسَ ، ثم خَرَج فلم يَزل سائرًا

---

(١) مدينة على شاطئ الفرات الأيسر، وبالقرب منها على الشاطئ الأيمن كانت وقعة صفين المشهورة .

حتى وقف بباب خُزَيمة، فناوله الكيس وقال له: «أصلحْ بهذا شأنك.» فرأى خزيمة كيساً ثقيلا، فوضعه بين يديه، ثم أمْسك بِعِنَانِ دَابة عكرمة، وقال له: «مَنْ أنتَ؟ جُعِلْت فِداكَ!» فقال له: «ما جئتك فى هـذه الساعة وأنا أُرِيدُ أنْ تَعرِفَنِى.» قال: «ما أَقْبَلُهَا أوْ تخْبِرَنِى مَنْ أنت.» فقال: «أنا جابِر عَثَرات الكِرامِ.» قال: «زِدْنِى.» قال: «لا.» ثم مَضَى.

ودخل خزيمةُ على امرأته، وقال: «أَبْشِرِى فقد أتى الله بالفرج والخَيرِ، وإن كانت نقودًا فهى كَثيرةٌ، أسْرِجى لنا السِّرَاجَ.» قالت: «لم يكن عندنا نارٌ. ولا سبيلَ إلى السراج.» فبات يَتَلَمَّسُ الكيسَ، فيجد خشونَةَ الدنانيرِ، ولا يُصَدِّق لكثرتها.

ورجع عِكرمة إلى منزِلِه. فَوَافَى زَوْجَه، وكانت ابنةَ عمه أيضاً، وقد انتبهت فسألتْ عنه، فأُخبِرت بركوبه مُتَنَكِّرًا مُنْفَرِدًا، فأقلقها ذلك، وحرَّكَ ظُنُونَها، فلما عاد إليها، ورأى سُوءَ حَالِها قال: «ما بَالُكِ يابنةَ عَمِّى؟» فقالت: «أميرُ الجزيرةِ يَخْرُج بعد هَدْأَةٍ من الليل مُنْفَرِداً؟! ما خرجتَ يا عِكرِمةُ إلَّا لِزَوْجَةٍ أُخْرى.» قال: «ما خرجتُ لِهذا.» قالت: «فأَخبرنِى الذى خرجتَ له؟» قال: «يا هذه! إنى لم أخرجْ فى هذا الوقتِ وأنا أُريدُ أن يَعْلَمَ بِى أحَدٌ.» قالت: «لا بُدَّ.» قال: «وتَكْتُمِينَه؟» قالت: «أَفْعلُ؟»

فأخبرَها القِصَّةَ عَلَى وَجْهها ، وما كان مِنْ قوله لِخُزَيْمَة ورَدِّهِ عليهِ ، ثم قال لها : « تحبِّينَ أن أحْلِفَ لكِ على ذلك ؟ » قالت : « لا ، فإن قلبي قد اطْمأن إلى ما ذَكَرْتَ لى . » وأصبح خُزَيْمَة ، وأصلَحَ حالَه ، وقضى دَيْنَه ، ثم تَجَهَّزَ إلى الشَّامِ يَقْصِدُ أميرَ المؤمنين سُلَيْمَانَ بْنَ عبد المَلِك . فلما وقَفَ بباب دارِه ، دخل الحاجبُ ، فأخبره بمكانهِ ، وكان مشهورَ المروءة والفَضْلِ ، فأَذن له ، فلما سَلَّمَ قال : « يا خُزَيْمَةُ ! ما أبطأ بكَ عَنَّا ؟ » قال : « سوءِ الحالِ » قال : « فما منعكَ من النهضةِ إلينا . » قال : « ضَعْفِي عَنها . » قال : « فَبماذا نهضتَ الآن ؟ » فقص عليه قِصَّته من أولها إلى آخِرِها . قال : « فَهلا عَرَفْتَه؟ » قال : « لا يا أميرَ المؤمنين ، وذلك لأنه كان مُتَنَكِّرًا » فتلَهَّفَ سليمانُ وقال : « واللهِ لو عَرفناهُ لأعَنَّاهُ على مُرُوءَتِهِ . »

ثم إنه وَلَّى خزيمةَ الجزيرة ، وَعقد له بها وهى يومئذٍ بولاية عِكرمة . فلما دنا خزيمةُ من الجزيرةِ ، خرجَ عِكْرِمَة لِلقائهِ والناسُ معهُ ، فلما سلَّمَ عليه ، سارَ مع مَوْكِبه ، ومَضى خُزَيْمةُ حتى دخل دارَ الإمارَةِ ، وأمرَ بمحاسبَةِ عِكْرِمة ، فوَجَد عليه فُضولًا كثيرةَ ، فبعَثَ إليه فى أدائِها ، فقال : « ما إلى شيءٍ منها سبيلٌ . » فقال خزيمة : « لا بد منها » فقال عِكْرِمة : « ما أمْلِكُ شيئًا منها ، فاصْنعْ ما أنت صانِعٌ . » فأمرَ به فكُبِّلَ في الحديد [illegible] أقامَ شهرًا حتى أضناه القيْدُ ، وضاقت بذلك امرأةُ عِكْرِمة . [illegible] فدعت مولاةً لها ذاتَ عقْلٍ وأدبٍ ،

وقالت لها : (اذْهَبِي إلى بابِ هذا الأميرِ ، واستأذِنِي عليه ، وقولِي : « عندي نصيحةٌ ، وما أُحِبُّ أن يَسْمَعَها غيرُكَ . » فإذا خَلَوْتِ به ، فقولِي له : « ما هذا جزاءُ جابرِ عثَرَاتِ الكرامِ . ») فلما قالت له ذلك ، قال خزيمةُ : « وَاسَوْءَتاهُ وإنه لَهُوَ عِكْرِمة ؟ » قالت : « نعمْ . »

ثم وثَبَ وأمرَ بدابته فأُسْرِجَت ، وبعثَ إلى وجوهِ أهلِ البلد فجمعهم ، وخَرجَ بهم إلى السِّجن ، فلما رآه السَّجَّان قامَ مَذعوراً ، فقال له : « افْتَحْ ! » فَفَتَحَ ودخل هو ومَن مَعهُ ، فَلَقِيَ عِكرِمَةَ فى قاعةِ السِّجن مُتَغيِّرًا ، قد أضناهُ القَيْدُ والحبْسُ ، فلما نظرَ إلى خُزيمة ، وإلى مَن معهُ ، احتشمَ ونكَّس رأسَه ، فأقبل خزيمةُ على رأسه يُقَبِّله ، فرفع نظرَه إليه . وقال : « ما أوْجَبَ ذلك ؟ » قال : « كَرَمُ فِعْلك ، وسوءُ مُكافأتِي . » قال : « يَغْفِرُ اللهُ لنا ولكَ . » وأُتِيَ بالحدَّادِ ، وأمَرَهُ أن يَفُكَّ قَيْدَ عِكْرِمَة وأن يُقَيِّدَه مكانه ، قال عِكْرِمة : « فماذا تُرِيد ؟ » قال خزيمةُ : « أريد أن ينالَنِي من الضُّرِّ مثل ما نالَكَ من الحبس والقيد والضِّيق . » فأَلَى عليه ألاَّ يفعلَ .

ثم خرجا جميعاً — وقد أُعِدَّتْ لهما دابتان — فركبا ، وسار الناسُ معهما حتى وافيا باب دارِ خزيمة ، فسكرَ له عِكْرِمة ، وأراد الانصرافَ ، فقال خزيمة : « ما أنت بنازِحٍ عَنِّي . » ودخل به قصرَه ، فقال له

عِكرمة : « ماذا تُريد ؟ » قال خزيمةُ : « أُريد أن أغيِّرَ ما ظهرَ عليك من الحبسِ ، وإن حيائِي من ابنةِ عَمِّك لأشدُّ من حيائى منك . » ودعا خزيمةُ بأحسنِ ثيابهِ ، وأفْرَهِ دَوابِّه ، ودَفَع به إلى عِكْرِمة ، وَوُجِّه إلى بيته مُكَرّما . ثم سأله خزيمة أن يسيرَ معهُ إلى سليمانَ بنِ عبد الملك ، فسارا حتى قَدِما عليه . فلما دخَل الحاجبُ على سليمانَ يستأذنه لخزيمةَ قال : « والِي الجزيرَةِ يَقْدَمُ بغيرِ أمرنا ؟ ما هذا إلا لأمرٍ عظيم . »

فلما دخل عليه قال سليمانُ قبل أن يُسَلِّمَ عليه : « ما وراءكَ ؟ » قال : « خيرٌ يا أميرَ المؤمنين ، ظَفِرت بجابرِ عثَرَاتِ الكرامِ ، فأحببت أن أُبَشِّرَكَ ؛ لِما رأيتُ من تَلَهُّفِكَ عليه . » قال : « ومَن هوَ ؟ » قال : « عِكْرمة الفياضُ . » قال : « وما كان من خَبرِه ؟ » فقصَّ عليه أمره ، وأذن لِعكْرمة فدخل وسلّم ، فرحَّبَ به ، وأدنى مجْلِسهُ منه ، وقال : « يا عِكرمةُ ! اُطلبْ حاجاتِكَ كلّها . » فقال : « أَعذرني يا أميرَ المؤمنين » قال : « لا بُدَّ » ثم دعا بدَواة وقرْطاسٍ ، وقال : « قُم وأثبتْ حاجاتِكَ كلّها . » فأثْبتَها ، ثم أُتِي بالرُّقْعَةِ ، فأمرَ سليمانُ بإنفاذِها من ساعتِه ، وأمرَ له بعشرة آلافِ دينارٍ ، ثم دعا بقَناةٍ ، فَعقَدَ له على الجزيرةِ وأرْمينيةَ وأذربيجان ، وقال له : « أمرُ خزيمةَ إليكَ فإن شئتَ فاعزله ، وإن شئت فاتركه » قال : « بل أتركه يا أميرَ المؤمنين على عمله . » ثم انصرَفا شاكرَيْنِ لأمير المؤمنين حُسْنَ مُقابلتِهِ ، وجميلَ [illegible] وما زالا عامِلَيْنِ له مُدةَ حياتِهِ .

١٥ — الزراعة والفلاحة

الزراعةُ من أقدمِ أعمالِ الإِنسانِ ، وأوْثقِها صِلةً بحياته ، وأمسها رابطةً بنَشأته ، وكانت موْضعَ تجاربه ، ومجالَ أفكارِه . وقد أيدت المباحثُ العلميةُ الحديثةُ ، المعنيَّةُ بتعَرُّفِ طبائعِ الأرض ، وخصائصِ التُّرْبة ، معظم النتائج العامَّة ، التى وصل إِليها الإِنسانُ القديم بطول الممارسةِ . ومعاودةِ الخِبْرةِ . فقد أدركَ الفلاحون الأقدمون أن السَّمادَ الحيوانِىَّ يَزيد الأرضَ خِصْباً وقُوّةً ، كما بيَّن العلم الحديثُ أن التُّرْبةَ تستمد من ذلك السَّمادِ مركبات « النتروجين » التى لا غنى عنها لحياةِ النباتِ .

فلما ارتقى البحثُ العلمِىُّ فى العهدِ الحديثِ ، أصبحَ فى استطاعةِ الإِنسانِ أن يصنعَ هذه المركباتِ صُنعاً كيميائيًّا . وقد أطلقوا على هذه الأسمدة الصناعية اسماً يُشْعِر بمرْجِعِها — فسمَّوْها « الأسمدةَ الكيميائيةَ » وتُمْزَجُ بالتُّرْبةِ الزراعيةِ فتزيدُها خِصباً ، وتضاعف قُوّتَها أضعافاً كثيرة .

وهناك مناجم تحتــوى على السمادِ الطبيعى الذى له خواصُّ مفيدةٌ . وتكثر تلك المناجمَ فى بلاد « شيلى » وسمادُها نقىٌّ إلى حد كبيرٍ .

وبالعلمِ تمكّن العلماء من استِنبات أصنافٍ جديدةٍ من الحنطة والشعيرِ ، وتوليد أنواعٍ من البقولِ والحبوبِ والبذور ، أكثرَ غلاتٍ ، وأشدَّ مقاومةً للآفاتِ الزراعيـة الكثيرة . وقد خَضَعت زراعةُ أشجارِ الفاكهة للسَّيطرةِ العلمية ، وبخاصَّة ما كان منها مرتبطاً بمكافحة الحشرات ، وتطعيمِ الأشجارِ . وأفضى البحث العلمى إلى أنه من الممكنِ زيادةُ مقدار السكر فى نبات البنجر وقصب السكر إلى ثلاثة أضعاف ما يحويان الآنَ .

وكانت الزراعةُ فيما مضى عملاً يدَوِيًّا ، لجهود الحيوان فيه الأَثَرُ الظاهرُ ، ولا تزال كذلك فى معظمِ البلادِ الإفريقية والأسيويةِ ، وبعض البلدانِ الأوربيةِ ؛ فما زلنا نرى فى الصين والهند ، ومصر وإيطاليا — الثيران تجُرُّ المحاريث التى كانت تُستَعمَل قديماً ، والرجالَ يحصدون القمحَ والشعيرَ . ولكن العلمَ والصناعةَ أخَذا يغزُوان الزراعة بالوسائل الآلية المُعدَّةِ للحرْثِ والبَذْرِ والحصْدِ والجْنْىِ . وقد فاقت الولاياتُ المتحدةُ الأمريكيةُ جميعَ الأمم فى تلك النَّاحيةِ .

ولكن عصرَ الآلاتِ الزراعيةِ ونَشاطِها ، وتعميم استخدامها ، يَخلُق مُشكلاتٍ اجتماعيةً لا مَفرَّ منها ، ولا بُدَّ من مُعالجتِها لصالح

المجتمعِ . فإذا كان المحراثُ الآلىُّ يعمَلُ عَمَل عشَرة محاريثَ يجرها الحيوانُ ، ولا يحتاج إلا إلى عمل رَجُلٍ واحدٍ — فلا بُدَّ للمجتَمع من أن يبحثَ عن عمل لتسعةِ الرجال الذين تَعَطَّلوا عن العمَلِ من جَرَّاءِ استخدَامِ الآلاتِ .

وإن لم يتدارَكْ المجتَمعُ ذلك تكن فتنةٌ فى الأرض ، وفسادٌ كبيرٌ ، وثوراتٌ يضطرب لها الأمنُ ، وتُقْلِق بالَ الحكوماتِ والشعوبِ .

١٦ — عيـــادة المريض[١]

كان أبو عمرو بن العلاء إماماً من أئمة العلماء فى اللغة والشعر، يُعجَب به تلاميذه ويخلصون له الحب . مرض يوماً فعاده رجل من أصحابه ، وقال له :

«أريد أن أساهرك الليلة . » فأجابه : «أنت معافًى وأنا مبتلى ، فالعافية لا تدعك أن تسهر ، والبلاء لا يدعنى أن أنام ، وأسأل الله أن يهب لأهل العافية الشكر ولأهل البلاء الصبر . »

وكتب أديب إلى صديق له مريض :

نبئت أنك معتل فقلت لهم نفسى الفداء له من كل محذور
ياليت علتـــه بى ثم كان له أجر العليـل وأنى غير مأجور

وقال سفيان الثورى :

« حمق العواد أشد على المرضى من أمراضهم ؛ يجيئون فى غير وقت ويطيلون الجلوس . » وقد قيل : « المريض يعاد ، والصحيح يزار »

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز يعوده فى مرضه ، فسأله عن علته ، فلما أخبره قال : « من هذه العلة مات فلان ومات فلان . » فقال له عمر : « إذا عدت المرضى فلا تنع إليهم الموتى ، وإذا خرجت عنا فلا تعد إلينا . »

---

(١) تركت هذه الجمل بدون تشكيل ، انظر المقدمة .

١٧ — في الفخـــــر

قال محمود سامي باشا البارودي يفخر :

وَقُورٌ وأحْلامُ الرِّجال خَفِيفَةٌ ... صَبُورٌ ونارُ الْحَرْبِ مِرْجَلُهَا يَغْلِي
أَنَا ابْنُ الْوَغَى والْخَيْلِ واللَّيْلِ والظبَا ... وسُمْرِ الْقَنَا والرَّأْيِ والْعَقْدِ والْحَلِّ
فَقُلْ لِلَّذِي ظَنَّ الْمَعَالِي قَرِيبَةً ... رُوَيْدًا فَلَيْسَ الْمَجْدُ يُدْرَكُ بِالْهَزْلِ
فَمَا تَصْدُقُ الآمال إِلاَّ لِفَاتِكٍ ... إِذَا هَمَّ لَمْ تَعْطِفْهُ قَارِعَةُ الْعَذْلِ
فَلاَ تَعْتَرِفْ بِالذُّلِّ خَوْفَ مَنِيَّةٍ ... فَإِنَّ احْتِمَالَ الذُّلِّ شَرٌّ مِنَ الْقَتْلِ
ولاَ تَلْتَمِسْ نَيْلَ الْمُنَى مِنْ خَلِيقَةٍ ... فَتَجْنِي ثِمَارَ اليَأْسِ مِنْ شَجَرِ الْبُخْلِ

* * *

وَمَا أَنَا والأَيَّامُ شَتَّى صُرُوفُهَا ... بِمُهْتَضِمٍ جَارِي ولا خَاذِلٍ خِلِّي
أَسِيرُ عَلَى نَهْجِ الْوَفَاءِ سَجِيَّةً ... وَكُلُّ امْرِئٍ فِي النَّاسِ يَجْرِي عَلَى الأَصْلِ
تَرَكْتُ ضَغِينَاتِ النُّفُوسِ لِأَهْلِهَا ... وَأَكْبَرْتُ نَفْسِي أَنْ أَبِيتَ عَلَى ذَحْلِ
كَذَلِكَ دَأْبِي مُنْذُ أَبْصَرْتُ حُجَّتِي ... وَلِيدًا وحُبُّ الْخَيْرِ مِنْ سِمَةِ النُّبْلِ
أَقُولُ وأَتْلُو الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ كُلَّمَا ... أَرَدْتُ وبِئْسَ الْقَوْلُ كَانَ بِلاَ فِعْلِ
أَرَى السَّهْلَ مَقْرُونًا بِصَعْبٍ وَلاَ أَرَى ... بِغَيْرِ اقْتِحَامِ الصَّعْبِ مُدْرَكَ السَّهْلِ
فَمَا يَبْعَثُ الْغَارَاتِ إِلاَّ مُهَنَّدِي ... ولاَ يَرْكَبُ الأَخْطَارَ إِلاَّ فَتًى مِثْلِي

١٨ — من رحلةٍ فى الصحراءِ

قال أحمد باشا حسنين

« قبلَ أن نباشِرَ السَّيْرَ يُدْفِئُ الرجالُ أيديَهُم وأرجُلَهُم على النّارِ ويَحْتَذُون نِعَالَهم ، ثم يسيرونَ خَلْفَ جِمَالِهِم وهم يُغَنُّون ، ويكونُ وَهَجُ الشَّمسِ قد اشْتَدَّ ، فيجعل كُلُّ واحد يُبْعِدُ عن أُذُنِهِ وعُنُقِه ما لَفَّهما بِهِ اتِّقَاءَ البَرْد ثم يَخْلَعُ جُرُدَه أيضاً ، إلاَّ إذا هَبَّت الريحُ من جهَةِ الشمال . ويتبارَى الرّحال فى الضحكِ والجرْيِ ، وأمارات البِشْرِ على وُجُوهِهِم . ويسيرون مثنى أو ثلاث يتحدثون فى أمورِهِم الخاصَّة والعامَّةِ ، وأما أسيرُ أمامَ الجِمَالِ أو وراءها من وقت إلى آخر . تحقق أننا غيرُ مختلطين بجماعة ، لكى أشعُرَ بلذّةِ الانفرادِ »



الرحالة احمد حسنين باشا

« ووقتَ الغذَاء لا تحَطُّ الرحالُ؛ لأن الجمالَ لا تأ كلُ إلّا مرتين في اليوم. فإذا كُنّاً قد خرجنا من واحٍ — وخُبْزُنا طَرِيٌّ — تناولَ كلٌّ منا رغيفاً أو نصفَ رغيفٍ فأ كله وهو ماشٍ مع قليلٍ من التمر، وبعد ذلك يجف الخبزُ ثم يَنْفَدُ، فنكتفِي بالتمر لأنه معنا دائماً . »

« وقد كان معي جَمَلٌ على رَحْلِه حوائجي وهَوْدَجي ، فإذا أضنا نِي التَّعَبُ أَصْعَدُ إليه وأستلقي فيه ، فأطلق عليه أحَدُ رجالِي اسمَ « الكلوب » .

« تفقَّدَنِي مَنْ أسيرِ مَعَهُم ذاتَ يَوْمٍ وقتَ الغَدَاء ، وسأل بعضُهم عبدَ الله عما إذا كُنْتُ قد أخَذْتُ حِصَّتِي من الْخُبْزِ والتَّمْرِ ، فقالَ : « إن « البك » يَتغدَّى اليوم في « الكلوب »

ولا يَصْعُب على المرء أن يَقِيلَ في الْهَوْدَج ، ولكنَّ السيرَ وراءَ الجمالِ سهل ؛ لأن مُعَدَّل سيرها « ميلانِ » ونصفُ « ميل » في الساعةِ ، والركوبُ حينئذ أصعبُ من المشي »

« وبعد الظهر يشتدُّ الْحَرُّ ، ويُبْطِئُ سير الجمال والرجالِ . ونحوَ المَساءِ يَبْرُد الهواءُ ، فتُسْرِع الجمالُ ، ولا سيما قبلما تُحَطُّ الرحالُ ، ويَحْدُوها الرجالُ فتزيدُ سُرْعَةً »

« وحالما تغربُ الشَّمْسُ أدنو من الدليل ، وأسأله عن الجهاتِ و« البوصلة » في يَدِي مخافة أن أضِلَّ بين غروبِ الشَّمْسِ وصعودِ النُّجُومِ

وحينما يُرْخِي الليلُ سُدُولَه ، نضيء مِصْباحاً يسير به الدليلُ أمامَ القافلةِ ، والظاهرُ أن الجمال تُسَرُّ برؤيةِ المصباح أمَامها ، فتَنْشَطُ لاتبَاعِه . »

« وإذا كانت الأمور ميسرةً كُلُّها ، مَشَيْنَا اثْنَتَيْ عشْرة ساعةً أو ثلاثَ عَشْرةَ ، وإلَّا اكتَفَيْنا بأقلَّ مِن ذلك . وفى نهايةِ الرحلةِ آمرُ بالوقوفِ ، فتَبْرُكُ الجمالُ حالاً ، لِتُرْفَعَ الأحمالُ عنها . ولا بد من اتخاذ الحيطةِ التامّةِ حينئذ ؛ لأن الرجالَ يَكونون مُتْعَبِينَ ، فلا يُعْنَوْنَ بإنزال الأحْمَالِ وما فِيها من الآلاتِ الدقيقة . »

« وإذا خيف من اشتدادِ الحَرّ ليلاً ، وُضِعت الأحمالُ بَعْضُها فوقَ بَعْضٍ ؛ لتكون سَدًّا فى وجه الريح ، وتُنْصَبُ الخيامُ فى مُثَلَّث ، وتُضْرَمُ النارُ ، ويُغْلَى الشاىُ ، وحينئذٍ تُعْرَفُ قيمتُه . والبدو يُعِدُّونه بإغلاء حَفْنَةٍ منه ، وحَفْنَةٍ من السُّكَّر ، فى نحو رِطْلَيْن من المَاءِ ، فيكون له فعلٌ عجيبٌ فى إنعاش المُتْعَبِ من السَّفر وإنهاض قُوّته . ويُسْرِع الرجالُ فى تقديم العَلَفِ إلى جِمَالهم ، وتحضير العشاء وتناوُله ، ثم يَسْتَلْقُونَ ويَنامُون . أما أنا فأقابل بين السَّاعاتِ السّتّ التى معى وأديرها ، وأَكتبُ على الصور الفوتوغرافية التى صورتها ، والرواميز الجيولوجية التى جمعْتُها ، وأُغيّرُ الشرائطَ من آلة التّصوير « السينما » وأكتبُ يومِيَّتِى . »

« بلغنا بئر « الظّيغن » فى السادسِ والعِشْرِين من مارسَ ، وأقمنا يوْمنَا هناكَ بسبب الهَبُوب . والراسخُ فى الأذهانِ أن الصحارى ثابتةٌ على



مخيم البعثة فى الصحراء

حالٍ واحدةٍ على كر الأزمانِ ، ولكن ليس الأمرُ كذلك . فلما سار « رولفس » إلى « الكَفْرَة » سنة ١٨٧٩ م قال : « إنه وجدَ فى طريقه بالسَّماع من العَرب بقْعَةً خضراء واسعةً ، أَما الآن فليس هناك إلا قليلٌ من النَّخْل فى بئر « الحرش » ، وكثيرٌ من الْحَطَبِ ، وما قاله « رولفس » يؤيِّدُه أبو حليقة من « الكفرة » . فقد قال لى : إنه لَمَّا كان صَغيراً كان أبوهُ يأخُذُهُ مَعَهُ إلى « الكفرة » حينما يذهَبُ لجلب التَّمْرِ مِنها ، وكانت تلك المسافةُ تقطعُ فى خمس ليالٍ ، وثلاثة أيام ،

وحينما يبلغون « الظيغن » تجد دَوَابُّهم عُشْباً ترعاه . » فما ذكره « رولفس » صحيحٌ . ولكن تغيرت الحالُ فى خمس وأربعين سنةً ، وسببُ ذلك فيما يظهر: نضوبُ المياهِ الأرضية ، فصار ما كان نابتاً هناك حَطباً يابساً . »

« إنَّ سَيرَنَا من بئر «أبى الطفل» إلى «الظيغن» أثبت لنا خطأ ما يقدرهُ الإنسان فى قطع الصحارى ، فإننا اتخذنا الحِيطةَ من كلٍّ وجهٍ ، ومع ذلك نفِد وَقُودنا ، ومات جَمَلٌ من جِمَالِنا ، ورَزَح جَمَلان آخران ، ونفِد عَلَفُ الجمال ، فجعلنا نُطْعِمُها من « الظيغن » إلى «الكفرة» من خُوصِ النَّخْل الذى قَطَعْنَاهُ من « الظيغن » ، وهو عَلَف لا يُغَذِّى»

« ورصدت الشمس فى « الظيغن » « بالثيودوليت » مراراً ، فثبتَ لِى بالحِسَابِ أن « الظيغن » أبعدُ إلى جهة شرقِ الشَّمال الشرقى بمائة « كيلومتر » مما قاله «رولفس»، وكان قوله مبنيًّا على ما قاله له الأدِلَّة ، لا على ارْصَادٍ فَلَكِيَّة .

الرحالة أحمد حسنين بك (باشا)
وأمامه الثيودوليت

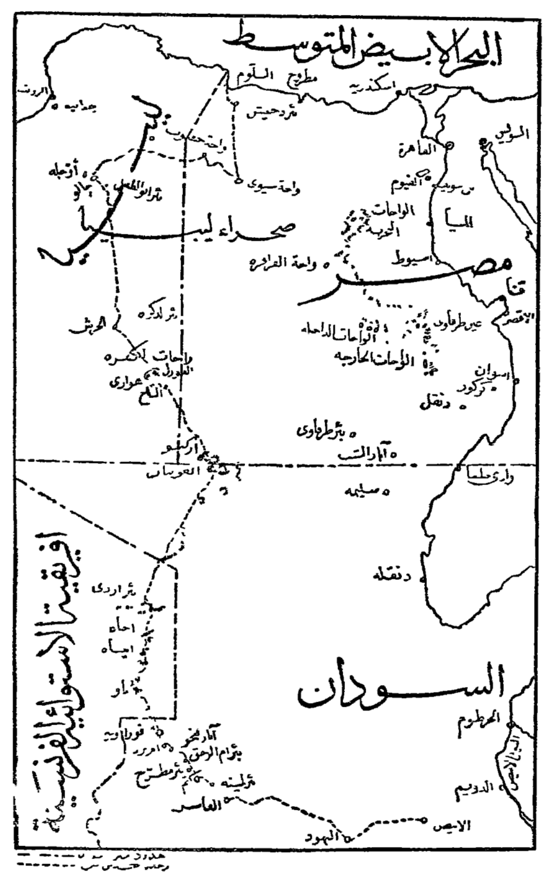
ووجدت أن ارتفاع « الظيغن » ٣١٠ « أمتار » فوق سطح البحر . »

« ومن « الظيغن » إلى « هوارى » أربعُ مراحلَ ، وهى أبعدُ واحاتِ « الكفرة » شمالاً . وقد لقينا فى منتصَفِ الطريق أشَدَّ الزوابع الرَّمْليَّة التى صادفتُها فى حياتى . عصفت الرياحُ فجأة ، بعد نصف الليل بثلاثِ ساعاتٍ ونصفِ ساعةٍ ، ولم يكن إلا قليلٌ ، حتى قُوِّضَت خِيامُنا ، ووقعت خَيمَتى على رأسى ، وجعلت الريح تسفى الرمالَ عليها ، وتزيد ثِقَلَها ثقلا ، حتى كدت أختنق ، ولكننى أمسكتُ بأحد الأوتاد ، ورفعْتُ به بعض الخيمة عن وجهى ، وبقيت على هذه الحال ساعتين ، وكان الرمل يدخل من ثقوب الخيمة ويصل إلىَّ كرَصاص البنادق ، وذاقت الجمَّالة والجِمالُ من الشدة أمرَّها ، ووجدتُ فى الصَّباح أن أكثرَ آلاتى قد تَهَشَّمَ ، وانكَسَرَ « خرنومترى » الصغير ، ولو أصاب عمودُ الخيمة « خرنومترى » الكبير لكسرهُ ، ولكانت النتائجُ العاميةُ من رحلتى غيرَ ما هى الآن . »

« استرحنا يومنا فى « هوارى » بَعْد العاصفة ، ثم استأنفنا السَّيْرَ إلى « الكفرة » . وفى الوصول إلى « الكفرة » شيءٌ يستوقف النظر : مشينا إليها فى أرض مُتَمَوِّجة ، تنطوى أمام [illegible] يحيط بها نَجْدٌ قليل الارتفاعِ ، يتكون منه [illegible] السائر ينكشف هذا النَّجْدُ أمامَه عن [illegible] لا يكاد يُفَرِّقُ بينها وبين الصخور والرمال ؛ لشدة الشبه بين الفريقين شكلا ولوناً . »

« هذه مدينة التاج ، مقر البيت السنوسى من « الكفرة » ، وهو غورٌ قُطْرُهُ الأطول أربعون « كيلومترا » ، والأقصر عشرونَ ، تُرَصِّعُه النَّخيلُ ، وتنتظم فيه من الشمال الشرقيّ ستُّ مَحَلات وهى : « بومبا » و « بوما » و « جوف » و « الزردق » و « طلالب » و « كلاب » . وإلى جانب « جوف » بحيرةٌ واسعة ، يترقرق ماؤها الأزرقُ ، فيهيج النَّظَر وهذا الماء الغزيرُ — فى وسطِ قفرٍ أجرَدَ — نعمةٌ لم تَكْمُل ؛ لأنه مِلحٌ ، وقد وجدنا فى الاغتسال فيه لَذَّةً ، لم نجدها فى بحر ، ولا فى نهر ، ولا فى حَمَّام . »

« لما دخلنا التاجَ ، لاقانا الأصدقاء بمزيدِ الترحاب . كان السيدُ محمّدٌ العابدُ — ابن عم السيد إدريسَ رئيس السنوسيين — فى « كفرة » مريضاً بالنِّقْرِسِ ، فاستقبلَنا السَّيدُ صالح البَكْرى والقائمقام ، والسيد محمود الجداوى ، ووكيل السيد إدريس ، وكثيرون من الإخْوان ، وحَيَّوْنا باسم السيد العابِد . وساروا بنا إلى دار السيد إدريس ، وقد نزلتُ فيها فى رِحْلَتِى الأولى إلى « الكَفْرَة » منذ سَنَتَيْنِ ، فشعرْت الآن كأنى فى بَيْتى ، ولم أكد أستريحُ من وَعْثاء السَّفَر حتى جاءنى عبْدٌ مِن قِبَلِ السيد العابد ليذهب بى إليه للعَشاء ، وهو نَفْسُ العبدِ الذى مَشَى بِى منذ سنتَيْنِ . فَسِرنا فى الطريقِ الذى سِرْنا فيه أوَّلاً إلى البيتِ



خريطة رحلة أحمد حسنين بك (باشا) من السلوم إلى الأبيض

الذى دَخلْناهُ حينئذٍ ، نخيَّل إلىّ أنّ الزّمان انتفى من الوجود ، أو رجع بنا القهقرى . »

« بيتُ العابد لغز من الألغازِ ، سراديبُ وراءها الغرف التى يسكن فيها أهلُه وخَدمُه . وصلنا بها إلى غرفة دخلتها قَبْلا ، أرضها مُغطَّاة بالبُسط الفاخِرَة ، والوسائد المطرَّزَة ، وعلى جدرانها الساعاتُ الدقَّاقة ، « والبارومترات » « والترمومترات » التى يفاخر بها مُضيفى . أما الساعاتُ — وهى اثنتا عشرة على الأقل من أقدار مختلفة — فلا انتظامَ فى سَيْرِها ، وإذا دقَّتْ لم تَدُق معاً ، بل بعضها بعْدَ بعضٍ ، فتذكرنى بساعاتِ الكنائس والأبراجِ فى « أُكسفورد » ، حينما كنت أسْمَعُها وهى على أبعادٍ مُخْتلفة ، فيأتى صوتُ الواحدةِ بعد صوتِ الأخرى . »

« وجاء السيِّدُ صالح البكرى ليُسَلِّيَنِى ، ويعتذِرَ عن السيد العابد ، ثم جىء بالطَّعامِ وهو مما يشتهيه مَن قَضَوْا وقتاً طويلاً فى القفْرِ الأجْرد ؛ رزٌ مُفَلْفَل ، وحَمَل حنيذٌ ، وخضراوات مطبوخةٌ ، وخبز سَميذٌ ، ولبن رائبٌ ، وحَلوى بدويةٌ ، ثم القهوةُ ، ولبن ممزوجٌ برب اللوْزِ ، وثلاثُ كئوسٍ من الشَّاى مُطَيَّبَةٌ بالعنبر وماءِ الوَرْد والنَّعْناعِ . »

« استرحتُ يوماً ، ثم جُلْتُ فى وادى « الكَفْرةِ » فزرت القرى ، والزاوية وهى أقدمُ مدارسِ السنوسى ، وأول بناء بُنِيَ فى « الكفرة » ،

وزرت السوق التى تقام كلَّ أُسبُوعٍ ، ويرى الإنسانُ فيها أشياء متباينة معروضة معاً ، فيرى مثلاً خرطوش البنادق ، وقد صُنع منذ ثلاثين سنة ، وإلى جانبه مربى الطَّماطمِ الإيطالى وارداً من « بنى غازى » ، وأنسجةً بيضاء وزرقاء واردة من مصر ، والجلودَ والعاجَ وريشَ النعام من « ودّاى » . إلا أن بضائع الجنوب هذه قلَّ بَيْعُها الآن فى « الكفرة » ، فلا تباعُ إلا إذا جاء بها التجار قاصدين مِصرَ أو طرابلس الغرب ، فمُنِعُوا من مُوَاصلة السير لِسَبَبٍ من الأسْبَابِ . »

« وقد كان عَصْرُ « الكفرة » التِّجارىُّ قبل استرجاع السودَانِ ؛ فإنها كانت حينئذ سُوقَ « ودَّاى » و « دَارْفور » ، ترد المتاجرُ إليها ، وتُنقَل منها شمالاً . والآن يصل إليها ما يُمنَع مرُورُه أو إصْدارُه من السودانِ ، مثل عاجِ إناث الأفْيالِ ، والأسنان التى وزن الواحدِ منها أقلُّ من ١٤ « رطلاً » .

« وأكثر رؤساء الزوايا الكبيرة يأتُون « الكفرَة » لِلزّرَاعَةِ ، فيزرعون فيها الشعير والذرَةَ ، أما « السنوسيون » فيزرعون العنبَ والموزَ والبِطيخَ ، ونحو ذلك من الخضراواتِ التى يَجدها المرْء فاكهةً مُنعِشةً بعد الضَّرْب فى الصحراء ، ويزرعون أيضاً الحِنّاءَ والوَردَ ،

ويَستَخرِجون رُوحَيهِما لأنهما لازمانِ فى تكميل شُروطِ الضيافةِ . وعندهم قليلٌ من شَجرِ الزَّيتون ، يستخرجون منه الزيتَ ، ولكنَّ طعامَ البَدْوِ وقِوامَ مَعيشتهم هو التَّمْرُ ؛ ولذلك ترى النخلَ كثيرًا فى وادى « الكَفرَةِ » . والتمرُ هو الشيء الوحيدُ الذى يصدرُ من تلك الواحاتِ ، أما سائرُ الحاجات والكماليَّات فترد إلى « الكفرة » من الخارج ؛ كالشاى والسُّكَّر والرُّز والدقيق والأنْسِجَةِ .

١٩ — الحمامة والثعلب ومالك الحزين

قال الفيلسوفُ : « زعموا أن حمامةً كانت تُفْرِخُ فى رَأسِ نخلة طويلة ذاهبةٍ فى السَّماء ، فكانت الحمامةُ تَشْرَع فى نقل العُش إلى رأس تلك النخلةِ ، فلا يمكن أن تَنْقُلَ ما تنقل من العش ، وتَجْعَلَه تحتَ البيْضِ إلا بعد شِدَّةٍ وتعَبٍ ومَشَقَّةٍ ؛ لطول النخلة وسُحْقِها . فإذا فَرَغَتْ من النقل باضَت ، ثم حَضَنَتْ بَيْضَها ، فإذا فَقَسَت وأَدْرَكَ فِراخُها ، جاءها ثعلبٌ قد تعاهَدَ ذلك منها لِوَقْتٍ قد عَلِمَه ، بِقَدْرِ ما يَنهضُ فِراخُها ، فيقفُ بأصلِ النخلةِ فيصيحُ بها ، ويتوعَّدُها أن يَرْقَى إليها ، فَتُلْقِى إليه فِراخَها . »

« فبينما هى ذاتَ يوم قد أدركَ لها فَرْخانِ ، إذ أقبل مالكٌ الحزينُ ، فوقع على النخلةِ ، فلما رَأَى الحمامةَ كئيبةً حزينةً شديدةَ الهمِّ ، قال لها : « يا حمامةُ ! مالِى أراكِ كاسفةَ اللَّوْنِ ، سيئةَ الحالِ ؟ » فقالت له : « يا مالكُ الحزين ؛ إن ثعلباً دُهيتُ به . كلَّما كان لِى فَرْخانِ جاءنى يُهدِّدُنى ، ويَصيحُ فى أصلِ النخلةِ ، فأفرَقُ منه ، فأطرح إليه فرْخَىَّ . » قال لها مالكٌ الحزين . « إذا أتاكِ ليفعلَ ما تقولين فقولى له :

لا أُلقى إليك فَرْخىَّ ، فارْقَ إلَىَّ ، وغرِّر بِنَفْسِك ، فإذا فعلتَ ذلك ، وأكلت فَرْخَىَّ طِرْتُ عنك ، ونَجَوْتُ بنفسى . » فلما علَّمَها مالكٌ الحزينُ هذه الحيلَة طار فوقَعَ على شاطِئِ نهرٍ ، فأقبل الثعلبُ فى الوقت الذى عرَفَ ، فوَقف تحتها ، ثم صاح كما كان يَفْعَلُ ، فأجابته الحمامةُ بما علَّمَها مالكٌ الحزين ، فقال لها الثعلَبُ : « أخبرينى ! مَن عَلَّمَكِ هذا ؟ » قالت : « علَّمنى مالكٌ الحزينُ . »

فتوجَّه الثعلب حتى أتى مالكاً الحزينَ على شاطئ النهرِ ، فوَجدَه واقفاً ، فقال له الثعلبُ : « يا مالكُ الحزين ! إذا أتتك الريح عن يَمينك فأين تجعل رَأْسَكَ ؟ » قال : « عن شِمالى . » قال : « فإذا أتتك عن شِمالِكَ فأين تجعل رَأسك ؟ » قال : « أجعله عن يَمينى أو خلْفِى . » قال : « فإذا أتتك الرِّيح من كل مكانٍ وكلِّ ناحيةٍ فأين تجعله ؟ » قال : « أجعله تحت جَناحى » قال : « وكيف تستطيعُ أن تجْعلهُ تحت جَناحِك ؟ ما أُراه يَتهَيَّأُ لكَ . » قال : « بَلَى » قال : « فأَرِنى كيف تَصْنَعُ ؛ فلَعَمْرِى يا معشَرَ الطيْرِ لقد فضَّلكم اللهُ علينا ، إنّكُنَّ تَدْرِينَ فى ساعةٍ واحدةٍ مثلَ ما ندرى فى سَنَة ، وتَبْلغْن ما لا نَبْلغ ،

وتدخِلْنَ رءوسكُن تحت أجْنِحَتِكُنَّ من البَرْدِ والرِّيحِ . فهنيئاً لكُنَّ ، فأَرِنى كيف تَصْنعُ ؟ »

« فأدخل الطائرُ رأسَه تحت جَناحِهِ ، فوثَبَ عليه الثّعلبُ مكانَه ، فأخذه ، فهمزه هَمْزةً دقَّتْ عُنُقَه ، ثم قال : « يا عَدُوَّ نَفْسِه ! ترَى الرَّأْىَ للحمامَةِ ، وتُعَلِّمُها الحيلَةَ لِنَفْسِها ، وتَعْجزُ عن ذلك لِنفْسِك حتى يَسْتَمْكِنَ منك عَدُوُّك . » ثم أجْهزَ عليه وَأَكَلهُ . »



٢٠ — من صحيح مسلم[١]

رُوِىَ عن ابنِ عباسٍ أن أبا سُفيانَ أخبرَهُ من فيه إلى فيه قال :

« انطلقْتُ فى المدَّة التى كانت بينى وبينَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبَيْنَــا أنا بالشَّأْم إذ جِىء بكتابٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى « هِرَقْلَ » يعنى عظيمَ الرُّومِ ، وكان « دِحْيَةُ الكَلْبِىُّ » جاء به ، فدفعَه إلى عظيم « بُصرَى » ، فدفعه عظيمُ « بُصْرَى » إلى « هِرَقْلَ » ، فقال هِرقلُ :

« هل هٰهُنا أحدٌ من قوم هذا الرّجلِ الذى يزعُمُ أنه نَبِىٌّ ؟ » قالوا : « نعَم . » فدُعيتُ فى نَفَرٍ من قُرَيشٍ ، فدَخلْنا على « هرَقلَ » ، فأجلسَنا بينَ يديه ، فقال : « أيُّكم أقرَبُ نَسباً من هذا الرّجلِ الذى يزعُم أنه نبىّ ؟ » فقال أبو سُفيانَ : « أنا . » فأجلسونى بين يديه ، وأجلسوا أصحابى خَلْفِى ، ثم دعا بتَرْجُمانه فقال له : « قل لهم إنى سائلٌ هذا عن الرّجل الذى يزعُم أنه نبىٌّ : فإن كَذَبنى فكذّبوه » فقال أبو سفيان : « وَايْمُ اللهِ لولا مَخافَةُ أنْ يُؤْثَرَ علىَّ الكَذِبُ لَكَذَبتْ »

---

(١) مسلم بن الحجاج القشيرى من أئمة المسلمين الذين عُنوا بجمع الأحاديث الصحيحة وعاش فى القرن الثالث الهجرى ، ويعد صحيح مسلم وصحيح البخارى فى الطبقة الأولى من المراجع فى الأحاديث النبوية .

ثم قال لِتَرْجُمانه : « سَلْه كيف حَسَبُه فيكم ؟ » قلت : « هو فِينَا ذو حَسَبٍ . » قال : « فهَل كان من آبائه ملك ؟ » قلت : « لا . » قال : « فهل كنتم تَتَّهِمونه بالكذبِ قبلَ أن يقولَ ما قال ؟ » قلت : « لا . » قال : « ومن يَتَّبِعُه ؟ أشرافُ الناسِ أم ضُعفاؤهم . » قلت : « بل ضُعفاؤهم . » قال : « أيَزيدونَ أم يَنقُصونَ ؟ » قلت : « لا ؛ بل يَزيدونَ . » قال : « هل يرتدُّ أحدٌ منهم عن دِينِه بعدَ أن يَدْخُلَ فيه سَخْطَةً له ؟ » قلت : « لا . » قال : « فهل قاتلتُموه ؟ » قلت : « نعم » قال : « فكيف كان قِتالُكم إيّاه » قلت : « تكونُ الحرب بيننَا وبينَه سِجالاً ؛ يُصيبُ منّا ونُصيبُ منه . » قال : « فهل يَغْدِرُ ؟ » قلت : « لا ، ونحن منه فى مُدَّةٍ لا نَدرى ما هو صانعٌ فيها . » — فواللهِ ما أمكنني من كلمة أُدْخِلُ فيها شيئاً غيرَ هذه . قال : « فهل قال هذا القولَ أحدٌ قبلَه ؟ » قلت : « لا . »

قال لِتَرجُمانه : « قلْ له : إنّى سألتُك عن حَسَبِه ، فزَعَمتَ أنّه فيكم ذو حَسَبٍ ، وكذلك الرُّسُلُ تُبعثُ فى أحسابِ قومِها . وسألتُك : هل كان فى آبائه مَلِكٌ ؟ فزعَمتَ أنْ لا . فقلتُ لو كان من أبائه مَلِكٌ : قُلتُ رجلٌ يطلبُ مُلْكَ آبائِه . وسألتُك عن أتْباعِه : أضُعفاءُ النـاسِ أمْ أشْرافُهم ، فقُلتَ : بل ضُعفاؤهُم ، وهُم أتْباعُ

الرسُلِ . وسألتُك : هل كنْتم تتَّهمونَهُ بالكذبِ قبلَ أن يقولَ ما قال : فزَعمتَ أنْ لا ، فقد عرفتُ أنّه لم يكن ليَدَعَ الكذِبَ على النّاسِ ، ثم يذهبَ فيَكْذِبَ على الله . وسأَلتُك : هل يَرْتَدُّ أحدٌ منهم عن دينِه بعد أن يدخُلَه سَخْطَةً له ؟ فزَعمت أنْ لا . وكذلك الإيمانُ إذا خالطَ بَشاشَةَ القُلوبِ . وسألتُك : هل يَزيدون أو ينْقُصون ؟ فزَعمت أنهم يَزيدونَ . وكذلك الإيمانُ حتى يتِمَّ . وسألتُك : هل قاتَلْتُموه ؟ فزَعمت أنكم قد قاتَلتُموه فتكونُ الحربُ بينَكم وبينه سِجالاً ؛ ينَال منكم وتنالون منه . وكذلك الرُّسلُ تُبْتَلى ، ثم تكونُ لهم العاقِبةُ . وسألتُك : هل يَغْدِر ؟ فزَعمتَ أنّه لا يغدِرُ . وكذلك الرُّسلُ لا تَغْدِرُ . وسألتُك : هل قال هذا القولَ أحدٌ قبلَه ؟ فزَعمْتَ أنْ لا ، فقُلتُ : لو قال هذا القولَ أحدٌ قبلَه قلتُ : رجلٌ ائْتَمَّ بقَوْلٍ قيل قبْلَه . »

ثم قال : « بِمَ أمرَكم ؟ » قلتُ : « يأمُرُنا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ، والصلةِ والعَفافِ . » قال : « إنْ يكُنْ ما تقولُ فيه حقًّا فإنه نَبِيٌّ . وقد كنتُ أعلَمُ أنّه خارِجٌ ، ولم أكن أظنُّه منكم . ولو أنّي أعلَمُ أنّي أخْلُصُ إليه لأحْبَبتُ لِقاءَهُ ، ولو كنْتُ عندَه لغَسَلتُ عن قدَمَيْهِ . وليَبْلُغَنَّ مُلكه ما تحتَ قدَمَيَّ . »

ثم دعا بكِتاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقرأه فإذا فيه :

بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ . من مُحمَّدٍ رسولِ اللهِ إلى هِرقلَ عظيمِ الرُّومِ ، سلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهُدى ، أمّا بعدُ : فإنِّي أَدْعوكَ بدِعايةِ الإسْلامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِم يُؤْتِك اللهُ أَجْرَكَ مرَّتيْن . وإن تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليك إثمَ الأَرِيسيِّينَ ، و « يَأَهْلَ الكِتَٰبِ تعالَوْا إلَىٰ كلمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ؛ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . »

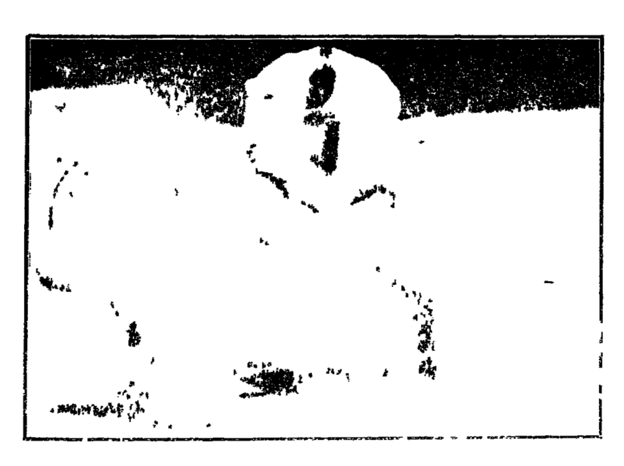
فلمَّا فرَغ من قِراءةِ الكِتابِ ارتفَعتِ الأصْواتُ عندَه ، وكَثر اللَّغَطُ وأَمَر بنا فأُخْرِجْنا .

فقُلتُ لأصحَابي حينَ خَرجْنا : « لقد أَمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ ، إنَّه ليَخافُه مَلِكُ بَني الأصْفَرِ . » قال : « فما زلْتُ موقنًا بأَمْرِ رسول الله صلَّى الله عليه وَسلَّم أنَّه سيَظْهرُ حتى أَدخَل الله عليَّ الإسْلامَ . »

٢١ — الجليد

الجليدُ هو الماء المتجمِّدُ بالبُرُودَةِ ، ويتكوَّنُ الجليدُ طبيعيًّا فى المناطِقِ القُطْبِيَّةِ ، ووَسَط المحيطاتِ ، وفى أعالى الجبالِ المرتفِعة .

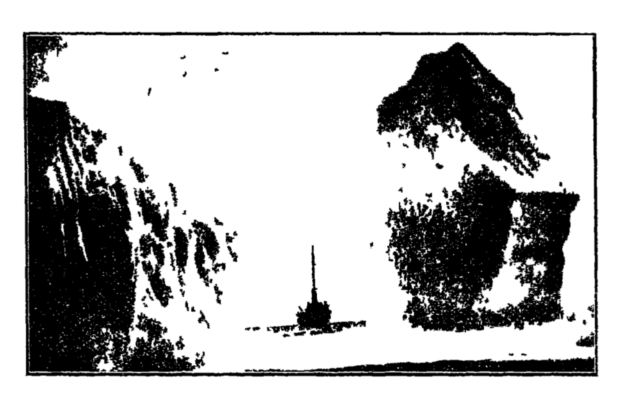
وفى المناطق القطبية تبلغُ البرودةُ أقْصَاها ، فنجدُ الأرضَ يَكْسوها الجليدُ فى أكثرِ شهورِ العام ، ولذلك يَلبَسُ أهالى هذه المناطِق فراء « الدُّبّ الأبيضِ » الذى نجده فى حديقةِ الحيوانِ فى الجيزةِ ، وهو حَيوانٌ ضخمٌ ، ذو لون أبيضَ ناصعٍ ، ويُغَطُّون رءوسهم وآذانَهم وأيدِيَهم



الدب الأبيض

ليتَّقوا البرْدَ القارسَ بذلك اللِّباس الطَّبيعى ، الذى وهبَهُ اللهُ حيواناتِ هذه المنطقةِ .

وفى هذه المنطقة أنهرٌ يجرى فى وديانها الجليدُ بَدَل الماء ، ويصلُ منها إلى البحارِ والمحيطاتِ أيَّامَ الصيفِ والرَّبيع قِطَعٌ ضخمةٌ ، فَتُكَوِّنُ فيها جبالًا من الجليد .



باخرة بين جبال من الجليد

وإنك لتأخذُكَ الرَّوْعةُ لو اطلعتَ على جبلٍ من الجليدِ وسْطَ المحيطِ ، والملَّاحون يَتوَقَّوْنَ هذه الجبالَ ، ويتجنبونها بِسُفُنهم ، فإنها إذا ارْتَطمت بسفينةٍ قَصَمَتها وأغرقتْها مهما تكن عظيمةً ، ومهما يكن بُنْيانُها متينًا ،

ولا تزالُ فاجعةُ الباخرة « تيتانيك » عالقةً بالأذهانِ ، قد كانت يوم أخرجت إلى البحرِ أكبرَ باخرةٍ ، وكانت فى أوّلِ رحْلةٍ لها . أبْحَرَ فيها أكثرُ من ألْفَىْ نفسٍ ، من بينهم عددٌ من السّاسةِ والمفكرينَ والعلماءِ ، وفى ظُلْمةِ الليلِ صَدمها جبلٌ من الجليدِ فى المحيطِ الإطلنطيقى ، فراحت هى وجلُّ ركابها ضحيّـةَ فاجعة مُبْكيَةٍ .

ويصل ارتفاعُ جبـلِ الجليد فوق سطح المـاء إلى أكثرَ من ستّمائة قدمٍ ، على أن الجزءَ المنْغمِسَ من الجبلِ تحتَ سطح المـاء أكبرُ بكثيرٍ من الظاهر فوْقَه ، فيا لها من كُتلَةٍ كبيرةٍ تتضاءلُ بجانبها أيّة باخرةٍ عظيمةٍ .

ويوجدُ الجليدُ فوْقَ قِممِ الجبالِ المرْتفعةِ ؛ ففى سويسرا تُغطى جبالها فى الشتاء بطبقاتٍ سَميكة من الجليدِ ، وقد أعدَّها السويسريون للانزلاقِ ، فيتمتعون بتلك الرياضـةِ الجذَّابَةِ التى يُقْدِمُ عليها كلُّ شجاعٍ جسورٍ



الانزلاق على الجليد

هذا هو الجليدُ الطبيعيُّ ، ونحن نحتاجُ إلى صناعةِ الجليدِ ؛ لنَستعمِلَه في تبريد الماءِ وغيرِه في الصَّيفِ ، إذ تبلُغُ حرارةُ الْجَوِّ أربعين درجة مئوية ، ونحتاجُ إليه أيضاً في إعداد الثَّلاَّجاتِ ، وفي علاجِ بعض الأمراض ، وفي حفظ أنواعِ الأغذيةِ من التلفِ أو التَّعَفُّنِ ؛ وبخاصَّةٍ اللحومُ ، والأسماكُ ، والفواكهُ ، والبيضُ . فلا غرو أن تَكوَّنتِ الشركاتُ لصناعةِ الجليدِ وتقديمِه للجمهورِ .

وفي مصر عدةُ شركاتٍ لصناعةِ الجليدِ ، وهذه الصناعةُ مبنيَّةٌ

على فكرةِ البرودةِ التى تنشأ عن البخْر ، وإننا فى مصر نستغل هذه الحقيقةَ العلميةَ فى تبريدِ الماء فى القلل والأزيارِ . فإن لهذه مسامَّ يَنفُذ من خلالها الماء إلى سَطْحِ القُلَّةِ أو الزير فيتبخر ، ويَسْتَمِدُّ الحرارةَ اللازمةَ لذلك من حرارةِ الماء نفسهِ ، فيبرُدُ الماء لدرجةٍ يستسيغها الشاربُ . وإذا وضَعْت بعضَ « الأثيرِ » على كفِّك تبخَّرَ هذا السائلُ بسرعةٍ ، ونشأ من ذلك برودةٌ تَشْعُرُ بها يَدُكَ .

وفى صناعة الثلج يستعملون « النوشادر » — وهو سائلٌ يتبخَّر فى درجةِ حَرارةٍ منخفضةٍ . وطريقة ذلك أن يُمرَّر سائلُ « النوشادر » فى أنابيبَ يخفف فيها الضغط ، فيبخر السائل ، ويستمد الحرارةَ اللازمةَ لبَخْرِه من الماء الذى يحيطُ بالأنابيبِ ، فيجمد ويتكون الثلج الذى نستعمِلُه فى شئون الحياةِ المختلفةِ

٢٢ — الاقتصـــاد

للبديع الهَمَذانيِّ المتوَفَّى سنة ٣٩٨ هـ

وهو كتابٌ أرسلَهُ إلى أحدِ الوارثينَ :

وَصلَتْ رُقْعَتُك يا سَيِّدِي ، والمُصَابُ — لَعَمْرُ اللهِ — كبيرٌ ، وأنتَ بالجزعِ جَديرٌ ، ولكنَّك بالصَّبْرِ أجْدَرُ ، والعَزَاءُ عَنِ الأَعِزَّةِ رُشْدٌ كأنَّهُ الغَيُّ ، وقد مَاتَ الميِّتُ فليَحْيَ الْحَيُّ . فاشـدُدْ على مَالِكَ بالخمْس ، فأنتَ اليـومَ غَيْرُكَ بالأمسِ . قد كان ذلك الشيخُ — رحمه الله — وكيلَك ، تَضْحَكُ ويَبْكى لك ، وقد خلَّفَك فقيرًا إلى الله ، غنيًّا عن غيره ، وسيعجُمُ الشيطانُ عُودَكَ ، فإن استلانَه رَماكَ بِقَومٍ يَقُولون : « خيْرُ المالِ ما أُتْلِفَ بينَ الشرابِ والشبابِ ، وأُنْفِقَ بين الْحَبَابِ والأحْبَابِ ، والعَيْشِ بين الأقداحِ والقِداحِ . ولولا الاستعمالُ لَمَا أُرِيدَ المالُ . واليومَ واطرَبًا لِلكاسِ ، وغداً واحَرَبًا من الإفلاسِ . »

وإن لم يَجِدِ الشيطانُ مَغْمزًا في عودِكَ من هذا الوَجْهِ ، رَماكَ بآخَرِينَ يُمَثِّلونَ الفقرَ حِذاءَ عَيْنَيْكَ . فتُجاهِدُ قَلْبَكَ ، وتُحاسِبُ

بَطْنَك ، وتُناقِشُ غَيْرَكَ ، وتَمنَع نفْسَك ، وتبوء فى دنياك بِوِزْرك ، وتراهُ فى الآخرةِ فى ميزانِ غيرك . لا ، ولكن قَصْداً بين الطَّرِيقَيْنِ ، وميلًا عن الفَرِيقَيْنِ ، لا مَنْعَ ولا إِسْرافَ . والبُخْلُ فَقْرٌ حاضِر ، وضَيْرٌ عاجِلٌ ، وإنما يَبْخَلُ المرء خِيفَةَ ما هو فيه .

لِلهِ فى مالِكَ قِسْطٌ ، وللمُروءةِ قِسْمٌ ؛ فَصِل الرَّحِمَ ما استطعْتَ ، وقَدِّر إِذا قَطَعْتَ ، فَلأَن تكونَ فى جانِبِ التَّقتير ، خيرٌ لكَ من أن تكون فى جانِبِ التَّبْذيرِ .

٢٣ — مُصْطفى كامل

أمامَكَ ابنُ مِصْرِ البارُّ بها، وأوَّلُ مُنادٍ بحرِّيتها فى نهضتها الحاضِرَةِ؛ ذلك هو الوطنىُّ الذى شُغِفَ بحُبٍّ وطنه، وعَاشَ طولَ حياته يَعْملُ لاستقلالِه ورِفْعَتِه — المغفورُ له مُصطفى كامل باشا.



وُلِدَ بالقاهِرةِ فى سنة ١٨٧٤ م فى بيتٍ اشتهر بكَرمِ المَحْتِدِ، والتَّمسُّكِ بالدِّين، وحَاطَهُ والدهُ بعِنايَتِهِ من صِغَرِه؛ فشَبَّ حميدَ الخِصالِ عالِيَ النَّفْسِ، بعيداً عمَّا يَشِينُ أمْثالَهُ من الأطفالِ. ولما بَلَغَ الثالثةَ من عُمرِه كان كثيرَ السُّؤالِ عمَّا يحيطُ به من الأشياء ويَعْرِض له من الأمُورِ.

أَدخلَه والدُه فى السَّابعةِ من حياتهِ (مدرسة والدةِ المرحوم عباسٍ الأوَّلِ)، فكان أوَّلَ فِرْقَته؛ لِذكائِه وانتباهِه إلى ما يُلْقَى عَليْه، ومُواظَبَتِه على عمله وجِدِّه. وفى السنةِ الثالثةِ من الدراسةِ

انتقلَ إلى مدرسةِ (القربيّة) لِقُرْبِها من منزله ، فأتمّ الدّراسةَ الابتدائيةَ بها .

وكان مِن عادته أنّه إذا عادَ مِن المدرسةِ خلعَ ملابِسَه ورتّبَها ، ثم جلس بجوار وَالِدِه يَقُصُّ عليه ما شاهده فى يَوْمِه ، ويشكو إليه ما رآه من عِنَاد بَعضِ التّلاميذ ومُشاكَسَتِهم .

وعَوّدَهُ والدُه أن يَقُصَّ عليه سِيَرَ أبطالِ الرِّجال ؛ لِيغرِسَ فى نفسه الشَّمَم والإِباء ، ويُحبِّبَ إليه الشجاعَةَ والإِقدامَ .

لذا كان وَلوعًا بسَماع أحاديثِ والِدِه ، مُحِبًّا للجلوس معه .

وقد نَجَح والِدُه نجاحًا عظيما فيما أرادَه له .

فمِمّا يَدلُّ على شَممِهِ وإِبائه ما نَرْوِيه لك :

جاء يَوْماً إلى أبيه — وهو فى التاسِعَةِ من عُمره — بعد الانصرافِ من مدرسته ، يبدو عليهِ الاضطرابُ الشديدُ ، فسأله والدُه عَمَّا بِه ، فأجابَ غاضِباً عابساً : « قالوا انا فى المدرسة : إنّكُمْ سَتَذْهبون غَداً إلى قَصْرِ الحِلْمِيّة ؛ لتأخذوا من الأميرةِ نُقُوداً . وأنا لا أقْبَل أن آخُذَ شَيْئاً من هذه النقودِ ؛ لأنك أمَرْتَنِي ألا آخُذَ شيئاً من أحَدٍ . »

وكان مع والده جماعةٌ من أصدقائه ، فَأَكْبَرُوا شممَه وعُلوَّ نفسهِ ، فقال له والدُه : « وعَلاَم أنت عازمٌ ؟ وماذا تَصْنَعُ فى أَمْرِ ناظِرِ المدرسةِ ؟ » فأجابَهُ من فَوْرِه : « إذا أنا لَمْ أذْهَبْ فى مُقَدَّمَةِ إخوانى أُعاقَبُ ، وإذا ذهبتُ ولم أَقْبَل ما أُعْطَاه أُسْوَةً بِمَنْ هُمْ مَعِى كان ذلك خروجاً على الذَّوْقِ ، وإذا قَبِلْتُ اعتبرتُ نَفْسِى آثِماً ؛ لأنّى أكونُ قد خالَفْتُ أمْرَكَ الذى لا يُمكِنُنِى مخالَفَتُهُ ؛ ولذا تجدنى يا والدى فى حَيْرةٍ من أمْرِى . » فَقَرَّبَهُ والدُه منه وقبّله ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « اذْهَبْ مَعَ إخْوَانِك لِتَرَى مَاذَا سيَكُون ، وخُذِ النُّقُود . وتَصَدَّق بِها على عاَجزٍ مُقْعَدٍ أو عَجُوزٍ ضَرِيرٍ . » فلما سَمِعَ ذلك من أبيه تَهلَّلَ وَجْهُهُ وانْشَرَح صَدْرُه وَفَعلَ ما أُمِرَ بِه .

مصطفى فى المدرسة الثانوية :

دخل مصطفى كامل المدرسةَ الخديويةَ بعد إتمام الدراسةِ الابتدائيةِ . فتجلت نباهَتُه وظهرت عَبْقَرِيَّتهُ ، فكان القدوةَ الحسنةَ فى الْجِدِّ والعملِ والأدبِ لإخوانه ، والتلميذَ الذى يُعْجَبُ به أساتِذَتهُ ؛ لتوقُّدِ ذكائِهِ . وعِظَمِ نَفْسِهِ ، وإقبالِه على طلبِ العلمِ بكُلِّ حوَاسِّه .

ألفَ — وهو فى السنةِ الثالثة الثانوية — جماعةً أدبيةً وَطَنِيَّة سَمَّاها « جمعية الصليبةِ الأدبية » جَمعَ فيها كثيراً من أصدقائِه ، وانْضَمَّ إلى

« جمعيتى الاعتدال والعَلَم المصرى » فَأَجَلَّهُ أعضاؤُهُمَا إجلالاً عظيما ؛ لنباهتهِ وشِدَّةِ تأثيره فى خَطَابَتِهِ .

زار وزيرُ المعارفِ مدرسته وهو فى السنة الرابعـةِ الثانوية ، وطَلَبَ من الأستاذِ أن يَدُلَّهُ على أذكى تلميذٍ فى الفِرْقَةِ ، فأشارَ إلى مُصْطَفى ، فطلب منه الوزيرُ أن يرتجلَ خطبة فيما يُرِيدُ أن يَعمَله بعد إتمام الدِّراسَةِ ، فوقفَ ثابت الْجَنَانِ ؛ وقال : « سألتنى يا معالى الوزير الخطيرِ — سألت الله لكَ الرفعةَ والارتقاء — أن أقولَ كلمة فيما أُريدُ أن أصنعَ بعد نيل شهادَةَ إتمامِ الدراسة ، فأنا أَكِلُ هذا الأمرَ إلى إرادةِ الخالِقِ عَزَّ وجَلَّ . فلتكن مشيئتُهُ تعالى ؛ بَيْدَ أنى استَنْبَطْتُ مما كان يَرْوِيه لى والِدى من أحاديثِ كبارِ الرِّجالِ ، وما دَرَسْتهُ على أُستاذِ التاريخ من سِيَرِ الفاتحِينَ الأبْطالِ — ما أيقَنْتُ معه أنَّ أعظَمَ الرِّجَالِ شأنًا مَنْ يُحرِّرُ بلادَهُ . وأنا سَأَكونُ ذلك المحرِّرَ الذى يَكْتُبُ ويَخْطُبُ . ويَضْرِبُ الأمثالَ لِلنَّاسِ ، مُبَشِّراً بما فى الحرِّيةِ من العِزة والحياةِ ، مُنْذِرًا بما فى الذُّل من الموتِ والصَّغَارِ . والله — تعالتْ حِكْمَتهُ وجَلَّتْ قُدْرَتهُ — يُوَفِّقُنِى إلى ذلك . »

فأَكبَرَ الوزيرُ ما سمع ، وشَكرَه وحَيَّاهُ ولَقَّبه بامْرِئِ القيس . وخرج الوزيرُ واللقبُ المذكورُ علم على مصطفى بين إخوانه .

تعليمه العالى :

انْتَظَمَ — رَحِمَهُ الله — فى سِلكِ طلبةِ مدرسةِ الحقوقِ وهو فى السادسة عَشرةَ من عمرِه ، وكان قويًّا فى اللُّغَـة العربية ، فعَرفه كثيرٌ من الأدباء ، وظَهر اسْمُه فى عَالَمِ الكُتَّابِ . وكتبَ كثيراً من المقالاتِ فى صحيفَتى الأهرام والمؤيَّدِ ، وأصدر مَجلة أدبية تَظْهر فى غُرَّة كُلّ شَهْرٍ عَرَبِىٍّ سَمّاها « مجلة المدرسة » فكانت أوّلَ مَجَلَّةٍ لِطَالب مِصْرِىٍّ . وأخذَ يَجْمَع إخوانَه ويَخْطُبُ فيهم ، حَاضًّا على خِدمة بِلادِه ، والسَّعْىِ لاستقلالِها . وما زَال فى جِدّه وكَدِّه ، تتنازع قُواه درُوسُه وخُطَبُه ومَقَالاتُه ، إلى أن نالَ إجازةَ الْحقوق — وسِنُّه لم تتجاوز التاسعةَ عَشْرَة .

جهاده لوطنه :

لما أتمّ تعلِيمَه العالىَ وبدأ حياتَه العمليةَ ، رَسَم طريقه فى جِهادِه ؛ فجعل كلَّ غَرَضِه إيقاظَ الشُّعورِ الوَطَنِىّ فى نفوسِ أفرادِ أُمَّتِه ، وكان سلاحُه فى ذلك قلَمه ولِسَانَه ، ووضوحَ حُجَّتِه وظهورَ بُرْهَانِه .

ولقد أحسَنَ فيما رسَمَ وأفْلَحَ فى نَيْلِ ما ابْتَغَى ، فالتَفَّت القلوبُ حَوْلَه ، وكَوَّن حِزْباً سِيَاسِيًّا سماه « الحِزْبَ الوَطَنِىّ » يؤيِّدُه ويُنَاصِرُه .

وأنشأ صحيفةً عَربية سَمَّاهَا « اللواء » . وما لبثَ أنْ انتشرت دَعْوَتُه ، وقَوِىَ حِزْبُه ، وكَثُرَ جَمْعُه حتى كان جُلُّ المِصريين من أعْوَانِه .

ولم يكتف بجِهَادِه فى داخل وطَنِه ؛ بل رَحَلَ إلى أورُبا يَنشُر دَعْوَته ، فصادَفَ نجاحاً عظيما ، وصَار مَسْمُوعَ الكلمةِ ، مَهيبَ الجانِبِ ، ولم تُمْهِلهُ الأيامُ حتى يُتِمَّ جِهَادَه ، ويُحقِّق مَا رَسَمَهُ لتخليص وَطَنِه ، فعدا عليه الموتُ شابًّا مُجَاهِدًا سنة ١٩٠٨ م ، فبكاهُ الوَطنُ ، ورَثاهُ الشِّعرُ ، وكتِبَتْ فيه آياتُ البَيانِ الخالدةُ . وأكبر آية خُلِّدت لَهُ : أنَّ دَعْوَتَه لم يَزَل يَرِنُّ فى جوانب القُطْرِ صَداها ، حتى تَحَقَّق ما أرادَ لِوَطَنِه ، وكذلك جزاءُ المجاهِدِين المخلِصين .

٢٤ — بين موسى وفرعون

قال فرعون وما رب العٰلمين * قال ربُّ السمٰوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنينَ * قال لمن حوله ألاَ تستمعُونَ * قال ربُّكم وربُّ ءآبآئكمُ الأوَّلينَ * قال إنَّ رسولَكمُ الذى أُرسلَ إليكم لمجنونٌ * قال ربُّ المشرقِ والمغْربِ ومَا بينهُمَا إن كنتُم تعقلون * قال لئن اتخذْتَ إلهًا غيْرِى لأجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجُونِينَ * قال أوَلَوْ جِئْتُكَ بشىءٍ مُبينٍ * قال فَأْتِ بهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ * فألْقَى عصَاهُ فإذا هى ثعبانٌ مُبينٌ * ونزَعَ يدَهُ فإذا هى بيضآءُ للنّٰظرينَ * قال لِلْمَلإِ حوْلَهُ إنّ هٰذا لَسٰحِرٌ عَليمٌ * يُريدُ أنْ يُخْرِجَكُم مِن أرْضِكم بِسِحْرِهِ فماذا تأمُرُونَ * قالُوا أرْجِهْ وأخاهُ وابْعث فى المَدائنِ حٰشِرِينَ * يأتُوكَ بِكلِّ سَحَّارٍ عَليم * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقٰتِ يوْمٍ مَعْلُومٍ * وقيلَ للناسِ هل أنتم مُجتمعونَ * لعلَّنَا نتَّبِعُ السَّحَرَةَ إن كانوا هُمُ الغٰلبينَ * فلمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفرْعوْنَ أئِنَّ لنَا لأجْرًا إن كنَّا نَحْنُ الغٰلبينَ * قال نَعَم وإنَّكُمْ إذًا لَمِنَ المُقَرَّبينَ * قال لهم موسىٰ ألْقُوا مَا أنتم مُلْقُونَ * فألْقَوْا حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ وقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعونَ إنَّا لَنَحْنُ الغٰلبُونَ * فألْقَى موسىٰ عَصَاهُ فإذا هى تَلْقَفُ ما يأفِكُونَ * فألْقِيَ السَّحَرَةُ سٰجِدِينَ * قالُوا ءامَنَّا بِرَبِّ العٰلَمِين * رَبِّ موسىٰ وهٰرُونَ *

٢٥ — الإنسان مدنىٌّ بالطبع

قال عبدُ الرحمنِ بن خلدون فى بيانِ ذلك :

إنّ الاجتماعَ الإنسانىَّ ضرورىٌّ ، ويُعبِّرُ الحكماء عن هذا بقولهم : « الإنسانُ مَدَنِىٌّ بالطبعِ . » وبيانه أن اللهَ سبحانه خلقَ الإنسانَ ورَكَّبه على صورةٍ لا تَصِحُّ حياتُها وبقاؤها إلا بالغِذاء ، وهداه إلى التماسِه بفطرته ، وبما رَكَّبَ فيه من القُدْرةِ على تحصيلِه . إلا أنّ قدرةَ الواحدِ من البشر قاصِرَةٌ عن تحصيلِ حاجتهِ من ذلك الغِذاء ، ولو فرضنا منه أقلَّ ما يمكن فَرْضُه — وهو قوتُ يوم من الحِنْطة مثلا — فلا يحصل إلا بعلاج كثيرٍ من الطَّحنِ والعَجْن والطبخ . وكل واحد من هذه الأعمالِ الثلاثة يحتاج إلى مواعينَ وآلاتٍ ، لا تتم إلا بصناعاتٍ متعددة . وَهَبْ أنه يأكُله حَبًّا من غير عِلاَج ، فهو أيضاً يحتاج فى تحصيله حَبا إلى أعمالٍ أخرى أكثر من هذه ؛ من الزِّراعة والحَصادِ والدِّراسِ . ويحتاجُ كلٌّ واحدٍ من هذه إلى آلاتٍ متعددة ، وصناعاتٍ كثيرة ، أكثر من الأولى . ويستحيل أن تَفِيَ بذلك كُلُه أو ببعضِه قُدْرَةُ الواحدِ ؛ فلا بُدَّ من اجتماعِ القُدَرِ الكثيرةِ من أبناء جِنسهِ ؛ ليحصل

القوتُ له ولهم ، فيحصل بالتعاونِ قدرُ الكفايةِ من الحاجةِ لأكثر منهم بأضعافٍ .

وكذلك يحتاجُ كلُّ واحدٍ منهم أيضاً فى الدفاعِ عن نفسه إلى الاستعانَةِ بأبناء جِنسِه .

ولما كان العُدْوانُ طَبَعِيًّا فى الحيوانِ ، جعل الله لكلٍّ واحدٍ منها عُضْوًا يَختَصُّ بمدافعتِه ما يَصِلُ إليه من عادِيةِ غيره ، وجَعَلَ للإنسان — عِوَضاً من ذلك كلِّهِ — الفِكْرَ واليَدَ ؛ فاليدُ مهيأة للصنائعِ بخِدمَةِ الفِكْرِ ، والصنائعُ تُحَصِّلُ له الآلاتِ التى تنوبُ عن الجوارحِ المُعَدَّةِ فى سائرِ الحيواناتِ للدِّفاعِ ؛ مثل الرماحِ التى تنوبُ عن القرون الناطِحَةِ ، والسيوف النائبةِ عن المخالبِ الجارحةِ .

فالواحدُ من البَشَرِ لا تُقَاوِمُ قدرتُه قدرةَ واحدٍ من الحيواناتِ العُجْمِ سِيَّما المفترسةِ ، فهو عاجزٌ عن مدافعتِها وَحْدَه بالجملةِ ، ولا تفى قدرتُه أيضاً باستعمالِ الآلاتِ المعَدَّةِ لها . فلا بد فى ذلك كلِّه من التعاونِ عليهِ بأبناء جِنْسِه . وما لم يكن هذا التعاونُ ، لا يحصلُ له قوتٌ ولا غِذاءٌ ، ولا تتمُّ حياتُه .

٢٦ — كِلابٌ

فَتًى من فِتيانِ العَرَبِ ، وفارسٌ منَ الشُّجعانِ المعدودين . كان بالمدينةِ فى وِلايةِ أميرِ المؤمنين عُمَرَ بنِ الخطابِ ، فوجَّههُ إلى العِراقِ مع جُيوشِ العرَبِ التى كانت تُقاتِلُ الفُرسَ هُناكَ .

وكان لِكلابٍ والِدانِ كبيرانِ أوْهَنَتْهُما السِّنُّ ، فناشَداهُ أن يَبْقَى معَهُما ، ولا يَدَعهُما ويذْهب إلى الحرْبِ ، وقال فى ذلك والِدُهُ :

لِمَنْ شَيْخَانِ قد نَشَدَا كِلابًا　　كِتابَ اللهِ لوْ قَبِلَ الكِتابا
أُنادِيهِ فَيُعْرِضُ فى إباءٍ　　فلا وَأَبِى كِلابٍ ما أصابا
تَرَكْتَ أباكَ مُرْعَشَةً يَدَاهُ　　وأُمَّكَ ما تُسِيغُ لها شَرابا
فإنَّكَ وابتغاءَ الأجْرِ بَعْدِى　　كَباغِى الماءِ يَتْبَعُ السَّرابا

ولكنَّ كِلابًا مضى إلى الجهادِ مَحبَّةً فى أداءِ واجبِهِ ، واشْتَدَّ بأبيه الشوْقُ . وزادَهُ الكِبَرُ ضَعفًا ووَهْنًا ، فشكا إلى عُمرَ حالَهُ فى أشعارٍ منها :

إذا ذاقَ الفؤادَ شديدَ وَجْدٍ　　لهَمَّ سَوادُ قَلْبِي بانْفِلاقِ
سأستَعْدِي على الفاروقِ ربًّا　　له ذَهَبَ الحَجيجُ على سِباقِ

فرَقَّ له عُمرُ ، وردَّه إليه من العراق . فلما حضرَ قال له : « ما بلغ

من بِرّك بأبيك ؟ » قال : « كنتُ أكفيه كلَّ أمره ، وأسارع إلى ما يُحِبُّ . » قال عمر : « وما أحبُّ ما كنتَ تلقاهُ به ؟ » قال : « كنتُ أعْتَمِد أسْمَنَ ما فى إبلِى وأغزَرها لبناً ، فأُريحُها وأتْرُكها حتى تستَقِرَّ ، ثم أغْسِلُ أخلافَها حتى تَبْرُدَ ، ثم أحْلُب فأَسْقِيه . »

قال عمر : « دونَكَ فأعِدَّ ما كنتَ تَصْنَعُ له . » ودعا بوالدِ كلابٍ فجاء يَتهادَى وقد ضَعُفَ بَصرُه ، وانحنى ظهْرُه ، فقال عمر : « كيف أنتَ يا أبا كِلاب ؟ » قال : « كما تَرى يا أميرَ المؤمنين ! ضَعفٌ موهِن ، وشوْقٌ مُبَرِّحٌ . » قال : « فهل لك من حاجَةٍ . » قال : « نعم . أشتهى أن أرَى كِلاباً ، فأَضُمَّهُ ضَمةً ، وأقبّله قبل أن أموتَ . » فرَقَّ له عمرُ وقال : « سَتبلغُ ما تُحِبُّ إن شاء الله . » ثم أمر بإحضار اللبن الذى احتلبه كِلابٌ كما كان يَصْنع من قبلُ ، وقَدَّمَه إليه ، فلما مَسَّهُ قال : « أرَى صَنيعَ وَلَدِى كِلابٍ وريحَ يَدِه . بَرَّحَ بِيَ الشَّوْقُ يا أميرَ المؤمنين . » فدَمَعَت عيْنا عمرَ وقال : « هذا كِلابٌ لديْكَ حاضرٌ قد جِئْناكَ به . »

فنهض يَضُمُّهُ ويُقَبِّله ويَبْكى ، حتى تأَثَّرَ عُمرُ وبكى . وكان رَضىَ اللهُ عنه — على شجاعتِهِ وشدَّةِ بأْسِه — يُبْكِيه مناظرُ العَطْفِ والرحمةِ ؛ وقال لِكلابٍ : « الْزَمْ خدمةَ أبيك ، ورِزْقُكَ جارٍ عليك . »

٢٧ — مقاييس الحرارة ونشأتها

مقياسُ الحرارةِ « الترمومتر » جهاز يُستخدَمُ لتقديرِ درجاتِ حرارةِ الأجسامِ ، وهذا الجهازُ من الأهميةِ بمكانٍ فى شئونِ الحياة ؛ أصبحَ من الضرورياتِ فى ميادينِ الطِّبِّ والصناعاتِ ، والأبحاثِ العلميَّةِ .

أمَّا فى ميدان الطّب فإن مقياسَ الحرارةِ أداةٌ لازمةٌ للطبيب فى الفَحْصِ عن المرضِ ، ومعرفةِ سيرِهِ ، ودرجةِ خطورتهِ .

ولا يكادُ يخلو منه مَصْنَعٌ حديثٌ للصناعاتِ الكيميائيةِ خاصَّةً ، ولا معملٌ من معاملِ الأبحاثِ العلميَّةِ .

ويُقَدِّرُ الراصدونَ درجاتِ حرارة الجوِّ فى الأماكنِ المختلفةِ فى العالمَ بجانبِ درجات الرطوبةِ والضغطِ الجْوِّيِّ ، ويُصْدرون لها رسوماتٍ بيانيةً تُبَيِّنُ للفاحصِ خطوطَ الحرارةِ المتساوية فى العالَمِ ، ويستنبطونَ منها استنباطاتٍ مختلفةً تهديهم إلى معرفةِ الجْوِّ فى الأيّامِ التاليةِ ، وغير ذلك من شئون الأرصاد .

نشأتها :

هذه أهميَّةُ مقياسِ الحرارةِ . على أنه لم يَظْهر إلا فى النهضةِ العلميَّةِ فى القرنِ السَّابعَ عشَرَ ، ولا يوجدُ فى النَّواحى التاريخية المختلفةِ ما يُثبتُ

وجودَه قبلَ هذا القرنِ ، وقد كان معروفاً للقدماء أن الهواء يتمدَّدُ بالحرارةِ ، فاستَغَلَّ العالمُ الإيطالىُّ « غاليليو » فى القرن السادسَ عَشَرَ هذه الظاهرةَ ، واستعملها فى عملِ أَوَّلِ مقياسٍ حراريّ ، وجعل من بين أجزائه جزءًا منتفخاً ، وبه هواءٌ يَتَمددُ بالحرارةِ ، وينقصُ بالبرودَةِ .

وهذا الجهاز على حساسيَّتِهِ لم يكن دقيقاً الدقَّةَ العلميَّةَ الكافيةَ . ولذلك جاء من بعدهِ العالمُ الفَرنسىُّ « أمنتن » فى القرنِ السابعَ عَشَرَ وأدْخَل فى هذا الجهازِ بعضَ الإِصلاح .

وكان « أمنتن » يشتغلُ فى إصلاحِ الأجْهزةِ والآلاتِ المستعملةِ فى تجاربِ الطبيعةِ .

فهرنهيت العالم الألمانى :

وقد أثارت بحوثُ « أمنتن » همة العالم الطبيعى الألمانى « فهرنهيت » وجرَّه الإِعجابُ بهذه البحوث إلى الاشتغالِ بعمل مقياس الحرارة ،

وإليه يرجعُ الفضلُ فى صنعِ المقاييسِ الزئبقيةِ الحديثة ، وقد اشتهرَ أَمرُه ، وذاعَ صيته ، وانتُخِبَ فى إنجلترا عُضْوًا بالجمعيـةِ الملـكيَّةِ بلندن سنة ١٧٢٤ م .

نشأ « فهرنهيتُ » فى بلدة « دانتزج » بألمانيا ، ثم رحلَ إلى «أمستردام» فى هولندة ؛ ليَحْصُلَ على وظيفةِ التدريسِ ، وقد شُغِفَ بعلم الطبيعةِ ، واشتغل بصناعةِ الآلات التى يستعينونَ بها فى الرَّصْدِ الْجوِّىِّ ، وسافرَ كثيراً ، فزار السويد والدانمرك وإنجلترا . وقابل سنة ١٧٠٩ م فى مدينة « كوبنهاجن » العالمَ الفلـكىَّ الشهيرَ « ريومر » ، وقد كانا يَرْصُدان معاً ويدوِّنانِ درَجاتِ الحرارةِ فى الأوْقاتِ المختلفةِ .

المقياس الفهرنهيتى :

ووضع « فهرنهيتُ » نظامَ قياسِه عام ١٧١٤م ، واختار نقطتين ثابتتين على مقياسِه ، إحداهما عند ما يوضَع المقياسُ فى مخلوطٍ من الماءِ والجليدِ وملحِ الطّعامِ ، وجعل هذه الدرجةَ صِفرًا ، والنقطة الأخرى عند ما يوضَعُ المقياسُ فى فَمِ سَليمٍ من الأمراضِ ، وقَسمَ المسافةَ بين النقطتين إلى ستَّةٍ وتسعين قسما .

وعلى هذا الأساسِ وجد أن درجةَ غليان الماءِ تحت الضَّغط الجوِّىِّ المعتادِ تبلغ (٢١٢°) درجة على مقياسه ، وأن درجةَ انصهارِ الجليدِ

تبلغ (٣٢°) درجة على مقياسه . وقد عم هذا المقياس « الفهرنهيتى » إنجلترا ، وهولندا ، وبعضَ البلاد التى تتكلم الإنجليزية .

القياس المئوى :

أما القياسُ المئوىُّ — الذى يُسْتَعمَلُ الآنَ فى الأبحاثِ العِلْميَّة — فإن أوّلَ من نَصَح باستعمالِهِ العالم السُّوَيْدِىُّ « سلسيوس » ، واختارَ درجةَ غليانِ الماءِ إحْدَى النقطتين الثابتتين ، ودرجة ذوبِ الجليد النقطةَ الثابتةَ ، وقسمَ المسافةَ بينهما مائةَ قسم ، ولكنه جعل درجةَ الغليانِ صفرًا ، ودرجةَ انصهارِ الجليدِ مائةً .

وقد غُيِّرَ هذا النظامُ ، وعُكِسَ الترتيبُ بعد ذلك ، وصارت درَجةُ حرارةِ غليانِ الماءِ مائةً ، ودرَجة انصهار الجليد صفرًا على القياسِ المئوى المستعملِ إلى الآن . وعلى هذا الأساسِ وُجِدَ أن درجةَ حرارةِ الإنسانِ السليمِ سبعٌ وثلاثون درجةً على القياسِ المئوى .

٢٨ — الأُسْطُولُ المِصْرِىُّ

مصرُ قطرٌ بحرىٌّ تَمْتَدُّ شواطئهُ إلى مسافات بعيدةٍ على طولِ البَحْرَيْنِ العظيمين؛ البحرِ الأبيضِ المتوسِّط والبحرِ الأحمرِ. وقد شَعرَ المِصرِيون مُنذُ فجرِ التاريخِ بمركزِهم الخطيرِ، وموقعِ بلادِهم وشِدَّة احتياجِها إلى قُوَّةٍ دِفَاعِيَّةٍ عَظِيمَةٍ، فكان لهم مِنْ أقدمِ العصورِ أساطيلُ حربيةٌ تجوسُ خلالَ هذَيْنِ البحريْنِ بجنودها الباسِلين، ورجالِهَا الأمجادِ؛ لِتَذُودَ عن حِياضِها، وتَصُدَّ غاراتِ أعْدائِها. وكان لهم بجانب الأسطولِ البحرىِّ أسطولٌ تجارىٌّ يَحمِلُ تِجارَةَ قُطرِهِم إلى أقصى ثغورِ العالَمِ القَدِيمِ.

فقوةُ مصرَ البحريَّةُ فى عهدِ الفراعنةِ مَكَّنتهم أن يَقهَرُوا أكثرَ الممالكِ المُعَاصِرَةِ لهم، وبها وَسَّعُوا رُقْعةَ مُلْكِهم، وبَسطُوا نُفُوذَهم على مُعْظَمِ بلادِ آسيا وجُزُرِ اليونانِ وسورية والبحرِ الأحمرِ وإفريقيةَ، وأضْحتْ مِصر إحدى ممَالِكِ الدُّنيا العظيمةِ، تنتشرُ دُورُ الصناعاتِ المختلفةِ فى أكْثَرِ ثُغورهَا.

وفى العهدِ العَرَبِىِّ أحسَّ المِصريُّون حَاجَتَهم إلى القوَّةِ البحريَّةِ، فأُنْشِئَ أولُ أسطولٍ فى خِلافةِ المتوكِّلِ على اللهِ أبى الفضلِ

جَعْفَرِ بنِ المعْتَصِمِ ، سنة ثمَانٍ وثمانين ومِائتين مِنَ الهِجرةِ النَّبوِيَّة ، ثم اشْتدَّت العنايةُ بِهِ بعدَ هذا ، ومَنَحهُ أَحَمدُ بنُ طولون من اهتمامهِ أَكْبرَ نصيبٍ ، وأبْلَغـهُ مِنَ القُوَّةِ والعَظَمةِ ما ألْقَى الرُّعْبَ والرَّهْبةَ فى قلوبِ أعْدَائهِ ، وجَعلَهُ ذا سلطانٍ يُخْشَى بأسهُ ، وَيُهابُ جانبهُ .

وجاء الفاطميونَ فأَعْلَوْا مِن شأنه ، وأكثروا من وَحَدَاتهِ المختلفةِ ، وأصبحت دورُ الصناعةِ فى زمنهم بمِصْرَ والإسكندريةِ ودِمْيَاط تخرِج أعظمَ السُّفُنِ البحرية المعروفةِ فى عَصْرِهم ، وبلغ أسطولهُم نَحْوَ ستمائة قطعةٍ ، تُرابِطُ فى الإسكندريةِ ، ودمياطَ ، وعسقلانَ ، وفى البحرِ الأحمَرِ . وكان للأُسطولِ وشُئُونه دِيوانٌ خاصٌّ يُعْرَفُ بديوانِ الجْهَادِ ، أو بديوانِ العَمَائرِ .

وفى أيامِ الدَّولَةِ الأيوبيـةِ خَصَّه صلاحُ الدِّين بكاملِ عِنَايتهِ ومُعَاضَدتهِ ، وأفْرَدَ له ديواناً سمَّاه (ديوانَ الأسطولِ) ، وجعلَ رياسته لأخيه العادلِ . وقد نال به من الفوْزِ والنَّصْرِ ما توَّجَ رأسَ مِصرَ بإكليلِ العزِّ والفخَارِ .

ولبث الأسطولُ المِصرىُّ أيامَ دُوَلِ السَّلاطين عاملاً هامًّا فى التوازُنِ الدَّوْلِىّ فى شرقىِّ البحر الأبيض المتوسِّط ، وإن لم يَنَلْ من العناية ما نالَهُ فى عهدِ الفاطميين والأيُّوبيين .

ففى أوائلِ القرنِ التاسعِ افتتح الأسطولُ المِصْرِىُّ جزيرةَ قُبْرُسَ ، فى حُكْمِ الملكِ الأشرف « بِرِسْبَاى » ، وغزا رودسَ عدة مرَّاتٍ . وعُنِىَ السلطانُ الغورِىُّ به ، وأعَدَّه لمحاربةِ البُرتغاليين للمحافظة على طَرِيق الهِنْدِ القَدِيمِ ، الذى كانَتْ مِصْرُ حارِسَته . وكان للمصريين قِلاَعٌ على ساحلِ الهنـد لحمايةِ التجارةِ والأُسْطولِ . وإِن التاريخَ ليُنَوِّهُ بشجاعَةِ البَحَّارةِ الإسْكَنْدَرِيِّين فى عـدة مواقعَ حتّى فى أيامِ العُثمانيِّين .

وكان لِمصْرَ فى أوائل القرنِ الماضِى أسطولٌ ضَخْمٌ عُدَّتْ بهِ من الدُّوَلِ البحرية ، التى يُحْسَبُ لها حِسَابٌ فى شرقىِّ البحر الأبيض المتوسِّط ؛ فقد اهتم مُحَمَّدُ علىّ من بدءِ حُكمه بإِنشاءِ الأسْطولِ ، ووجَّه لذلك جُلَّ مجهوده ، وأوْجَدَ بالإسكندرية دَارَ صِنَاعةٍ واسعةً لِصُنع السفن الحربية . ولم تَمْضِ أيَّامٌ قلائلُ حتى كان لمصرَ أسطولٌ مرهوبُ الجانبِ . قِوامُهُ ستٌّ وثلاثون قِطعةً ، بها ثمانى مائة وألفُ مِدْفعٍ ، وبلغ رجالُه نَحْوَ ثمانيةَ عشَرَ ألْف مُقَاتِلٍ .

هذه خُلاصةٌ تاريخيَّة تُبيِّنُ كيف كانت مصرُ فى عصورِ استقلالها دولة حربية عظيمة ، لها تاريخٌ حافلٌ بمجدِ أبنائها ، وشجاعةِ جُنودها ، وعَظَمَةِ مُلوكِها .

وقد استأنفت مِصرُ الآنَ حيَاتها الْحرَّةَ المستقلةَ ، وأخذت تعْنَى بتنظيم دِفاعها ، وإعداد جَيْشِها ؛ لِيَتبوَّأَ بينَ الجيوشِ الحديثة مكانته التاريخية القديمةَ .

فلتذكر مصر تاريخَ أسْطولها ، وليكُنْ لها من شَبَابها الناهضِ أقْوَى مَدَدٍ ، حتى تُعِيدَه سيرَتهُ الأولى ، وتُصْبِحَ دولةً من الدول البحرية العظيمةِ ، فى عهدِ مليكها المُعظَّمِ فاروق الأوَّل ، جعلَ اللهُ عَصْرَه عصر سَعَادةٍ وعِزَّة ، وهَيَّأَ لِأُمَّتهِ على يَديْه أقوَى وَسائلِ العظَمةِ والفَخَارِ .



٢٩ — من الحديث الشريف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) مَثَلُ ما بَعَثَنى اللهُ به من الهُدَى والعِلْمِ ، كمَثَلِ الغَيثِ أَصابَ أرضاً ، فكانَ منها نَقِيَّةٌ قَبِلت الماء ، فأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكَثيرَ ، وكانت منها أَجادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ ، فنفعَ اللهُ بها النَّاسَ ، فشَرِبوا وسَقَوْا وزَرَعوا ، وأصابَ منها طائِفَةً أُخْرى ؛ إنَّما هى قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِت كلأً . فذلك مَثَلُ من فَقُهَ فى دينِ الله ، ونفَعَه ما بعثَنى الله به ، فعلِمَ وعلَّم . ومثَلُ مَنْ لم يَرْفع بذلك رأساً ، ولم يَقبَل هُـدى الله الَّذى أُرْسِلْتُ به .

(٢) آيَةُ المنافِقِ ثَلاثٌ ؛ إذا حَدَّثَ كذَبَ ، وإذا وعَدَ أَخلَفَ ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ .

(٣) إنَّما مثَلُ الجَليسِ الصّالحِ والجَليسِ السَّوْءِ ، كحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكيرِ ؛ فحامِلُ المِسكِ : إمّا أن يُحْذِيَك ، وَإِمّا أنْ تبْتاعَ منه ، وإمّا أن تجِد منه رِيحاً طَيِّبةً . ونافِخُ الكيرِ : إمَّا أنْ يُحرِقَ ثِيابَك ، وإمّا أنْ تجِدَ رِيحاً خَبيثَةً .

(٤) عُذِّبتِ امْرأةٌ فى هِرَّةٍ أوْثقَتْها ؛ فلَم تُطْعِمْها ولم تَسْقِها ، ولم تدعْها تأكلُ من خَشاشِ الأرْضِ .

(٥) المؤمِنُ القَوِىُّ خَيرٌ من المؤمنِ الضَّعيفِ، وفى كُلٍّ خَيْرٌ. اِحرِص على ما يَنْفعُك ، واسْتَعِنْ بالله ولا تَعْجِز . وإن أصابَك شيءٌ فلا تَقُل : « لو أنّى فعَلتُ كذا وكذا » ، ولكن قُل : « قَدَرُ الله وما شاءَ فعَلَ . » فإنَّ « لو » تفتَحُ عَملَ الشَّيطانِ .

٣٠ — رثاء صغير

قَال المرحومُ إسماعيل[1] باشا صَبرى يَرْثِى طفلاً كَانَ وَحِيدَ والِدَيْهِ :

يَا مَالِئَ الْعَين نُورًا والفؤادِ هوًى — والبَيْتِ أُنْسًا ، تَمَهَّلْ أَيُّهَا الْقَمَرُ

لاَ تُخْلِ أُفْقَكَ يَخْلُفْكَ الظَّلاَمُ بِهِ — والزَمْ مَكانك لا يَحْلُلْ بِهِ الكَدَرُ

فِى الْحَىِّ قَلْبَانِ بَاتَا ـ يَا نَعِيمهمَا ـ — وفِيهِمَا ـ إِذْ قَضَيْتَ ـ النَّارُ تَسْتَعِرُ

وَأَعْيُنٌ أَربَعٌ تَبْـكِى عَلَيْكَ أَسًى — ومِنْ بُكاءِ الثَّكالَى السَّيْلُ والْمَطَرُ

*
* *

قَدْ كُنتَ رَيْحَانَةً فى البيْتِ واحِدَةً — يَرُوحُ فِيهِ ويَغْدُو نَفْحُهَا العِطرُ

مَا كَانَ عَيْشُك فى الأَحْيَاء مُخْتَصَراً — إلاَّ كما عاش فى أكمَامِه الزَّهَرُ

فارْحَل تُشَيِّعُكَ الأرواحُ جَازِعَةً — فِى ذِمَّةِ اللهِ بَعْدَ الْقَبْرِ يَا عُمَرُ

(١) المرحوم إسماعيل باشا صبرى من شعراء مصر المعدودين فى نهضتها الحديثه . كان قاضياً ومن رجال الشرع . وامتاز بشعره العذب الذى تغنى بكثير منه ؛ وتوفى سنة ١٩٢٣ م والطفل الذى رثيه صبرى بهذا الشعر كان وحيد صديقه المرحوم الشيخ على يوسف ، وهو من أكبر كتاب الصحافة فى زمنه .

٣١ — الربيــــع

وَرَدَ الرَّبيع فمرْحَبا بِوُرُودِهِ ... وبِنُورِ بَهْجَتِهِ وَنَوْرِ وُرُودِهِ
وبِحُسْنِ مَنْظَرِه وطيبِ نَسِيمِهِ ... وَأَنِيقِ مَلْبسِه وَوَشْيِ بُرُودِهِ
فَصْلٌ إذا افْتَخَر الزَّمانُ فإنَّهُ ... إنْسانُ مُقْلَتِه وَبيْتُ قَصِيدِه
والوَرْدُ فى أَعْلى الْغُصُون كأَنَّه ... مَلِكٌ تَحُفُّ به سَرَاةُ جنوده

الصفى الحلى

مَرْحَبا بِزمن الوَرْدِ ومَوْسِمِ الأزهار ، وشَبابِ الزَّمان ، وعيدِ الجمال ، وفُرصَةِ اللَّذات

رُوحُ الزَّمان هى الرَّبيعُ فبكِّرِ ... وانْهَضْ إلى اللَّذات غيْرَ مُفَكِّرِ
هذا الرَّبيعُ يبيعُ من لَذَّاتِه ... أصْنَافَ ما نَهْوَى فأيْنَ المشْترى
فافْرَحْ به فَلِفَرحَة بِقدُومِه ... رَفَلَ الشَّقائق فى القَباء الأحْمر
والكون مُبْتَهِجٌ وخفَّاق الصَّبا ... يحْيِي الْقُلوب بِنَشْرِه المتَعطِّرِ

شمس الدين الكوفى

كتب عُمرُ بنُ الخطاب إلى أمير الأجناد :

« مُرُوا النَّاس أن يَخرُجوا إلى الصَّحارى أيامَ الرَّبيع : فَيَنْظُروا آثار رحمة الله كيف يحْيِي الأرض بعد مَوْتها . »

وكان المأمون يقول :

« أغْلَظُ الناس طبْعاً من لم يَكُنْ زمن الرَّبيع ذا صَبْوَة . »

وَرَوَوْا عن بُقْرَاطَ الحكيم :

« من لم يَبْتَهج بالرَّبيع وأزْهَارِه ، ولم يَسْتَمتع بِبَرْد نَسيمه — فهو فاسِدُ المِزَاج ، مُحْتاجٌ إلى عِلاج . »

نُريدُ أن نُذَكر قَوْمنا بالرَّبيع أَعْدل فصول العام وأطْيَبها ، وأظْهرها بهْجةً ونَضَارَة ؛ لِيَنْظروا إلى جَمَالِ الأزْهار ، ويُنْصِتوا إلى تَغْريد الأطْيار ، وَيَتَعَرَّضوا لِنَفَحاتِ الله فى ذلك النَّسِيم الَّذى يهُبُّ بالأَشْجار الغضة .

كأَن غُصونها سُقِيَتْ رَحيقاً   فمَالَتْ مثل شُرَّاب الرَّحيق

نَحن أقلُّ الناس شُعوراً بالرَّبيع وَبهْجَتِه ؛ فإِنَّ السَّماء لا تُمْطِرنا فى الشِّتاءِ ، حتى تُنْعِشَنا الشمس سافِرَةً من غيْرِ حِجاب ، والأَزْهارَ لا تَعْنِينا حتَّى نسر بتلقى بسَماتها ، إِذ تَتَفَتَّق عنها أكمامها بنسيم الرَّبيع . »

ونحن إزاء كل ذلك أقرب إلى الانْقباض والحُزْن ، أو إلى الدَّعَةِ والخُمُول فى جَميع فُصول العام .

لا شيء يُذكر بالرَّبيع إلا تغيرُ الجو ، وحاجتنا إلى هَجْمَة الظَّهيرة ،

وانْتِقال مَجَالِسنا من القَاعاتِ إلى السَّاحات ، وأفنية القهواتِ والمنازل .

وذلك مع أنّه مروى عن بَعض الحكماء :

« من أرادَ أن يَنْظُرَ إِلى الجَنَّة فلينْظُر إلى دِيارِ مِصْر فى زَمن الربيع قبل طلوع الشَّمس . »

ومن مِنّاً يَقْصِدُ قبل طلوع الشَّمس إلى المزارع ليرى ذلك البساط الأخْضَر ؟

إِذا دَرَجت فيه الرِّياحُ تَتَابَعَت ذَوائِبه حتى يُقَالَ غَديرُ

ويِعلاً رِئتيه

فى نسيم كأن مَسراه فى الأدْ وَاحِ مسرى الأرواح فى الأجساد

ويِعلأ عَيْنَيه من رياحينَ

كأنَّ تَفَتُّحَهـا فى الضّحا عَذارى تُحَلِّـل أزرارها

ومن ورد

كأنَّ وُجوهه لما توافت بُدُورٌ فى مَطالِعها سُعود

بَياضٌ فى جَوانبه احْمرارٌ كما احْمَرَّتْ من الخجل الخُدود

من كُفْرِ النِّعمة ألاَّ نُحَيِّيَ الرَّبيع ، وألاَّ نقولَ مع الرّقاشِي :

إِذَا أقبل الوَرْدُ أَهْدى لنا سُرورًا بأيّامهِ مُقْتَبـل

أَيُّها الشَّباب :

أما تَرى الْوَرْدَ قَدْ باحَ الرَّبيعُ به ... من بَعْدِ ما مَرَّ حَوْلٌ وهو إِضمار
وكان فى خِلَعٍ خُضر فقد خلعت ... إِلا عُرًى أُغلقت منه وأزرار

أَيُّها الشَّباب :

قد صَفا الجَوُّ واستَحال نَسيماً ... وتَنَدَّى الهَواء وهو يميع
بَشَّرتنا أَوائل الزَّهْر بالوَرْ ... د فكلف صِباكَ ما تَستَطِيع

أيها الشباب :

إِنَّ فى تَذَوُّقِ الجمالِ لَذَّة عظيمةً ، وفيه عَزاء من كُلِّ آلام الحياة ، فالجمال فى موسم الجمال ؟

٣٢ ـ الإمام على ومال الأمة

قال على بن أبى رافع : « كنت على بيت مال المؤمنين أيام ولاية على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وكان فى بيت المال عِقد ، فأرسلت إلى بنت على بن أبى طالب : إنه قد بلغنى أن فى بيت المال عقد لؤلؤ ، وأحب أن تعيرنيه ؛ لأتجمل به فى يوم عيد الأضحى . فأرسلتُ إليها : « العقد عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام . » فقالت : « نعم ! عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام » فدفعته إليها . »

« ولما رآه أمير المؤمنين فى جيدها ، قال لها : « من أين جاء إليك هذا العقد ؟ » قالت : « استعرته من ابن أبى رافع خازن بيت المال ؛ لأتزين به يوم العيد ، ثم أرده . » فبعث إلىَّ أمير المؤمنين فجئته ، فقال لى : « أتخون المسلمين يابن أبى رافع ؟ » قلت : « معاذ الله أن أخون المسلمين يا أمير المؤمنين . » فقال : « أعرت العقد الذى فى بيت المال بغير إذنى ورضاى . » فقلت : « يا أمير المؤمنين ! إنها ابنتك ، وسألتنى أن أعيرها العقد تتزين به ، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة ، على أن ترده سالماً إلى موضعه بعد ثلاثة أيام . » فقال : « رده من يومك ؛ وإياك أن تعود إلى مثل هذا ، فتنالك عقوبتى ، وويل لابنتى . » فلما بلغت ابنته مقالته بادرت برده وهى تستغفره . فأعدته إلى مكانه من بيت المال . »

٣٣ — من القاهرة إلى دمشق

هذه قَنْطرةُ القناةِ والساعةُ العاشرة من مَسَاء السبتِ الثامِنَ عشرَ من شعبانَ (ديسمبر سنة ١٩٣٠) . وشد ما تُثير القناةُ فى النفس من ذِكرى ، وما تُنَبِّه فيها من عِبَر الغابر والحاضِر .

عبرنا القناةَ إلى سيناء ، وسمعنا — ونحن نَدْخُل المَحَطّة — أن قِطارنا لا يسير إلا والساعة خمسٌ من الصَّباح ، فكيف بِسَبع ساعات تَمُرّ فى انتظار السَّفَر ؟

إن المُزْمِع سفراً بعيداً لا بُدَّ له أن يتزود الصَّبْر، وأن يُوَطِّنَ نفسه على مَا عسى أن يُلاَقِيَه من مكاره . شرعنا نَمْشِي ونتحدثُ ، وآوَى بعضنا إلى منتدى هنالك لشُرب الشَّاى والقَهْوَة ، حتى أقبلَ القطارُ والساعة واحدةٌ . فَهَرعنا إليه ، واتخذنا أمْكِنَتنَا فيه ، ومنا مُضطَجع يَعُدُّ على القطار ساعاتِ الانتظارِ ، ومنا الذاهبُ فى أحاديثه مذاهِبَ تُوقظ النائمَ ، وتَقْطَعُ على المفكِّر مذاهِبَ الفِكر .

سيناء :

وبعدَ لأْيٍ تحركَ القطارُ فسارَ ، وأصبحنا نُطِلُّ على بيداء ليس فيها إلا رمالٌ تتخللها أعشابٌ وأشواكٌ ولكنها سيناء .

ولله ما ضُمِّنَتْ سيناء من الخبر والعِبَر ؛ فيها طورُ التجلِّى الذى آنس فيه موسى نارَ الهُدَى ، وعَلَيْها مر الزمانُ بالْغِيَر ، سعيدةً وشقية ، والجيوش هازمة ومهزومة ، فتمَثّل جيوشَ الفراعنة ذاهبَةً إلى الشام وآيبةً ، أو جيوشَ بابل وفارسَ مطرودةً وطاردةً ، ثم جيش الإسكندر وجيوشَ الرومان ، ثم جيوش العرب والتُّرك . دُوَلٌ بعد دُوَلٍ ، وسُطور يمحو فى صحائف الزمان بَعْضُها بَعْضاً .

تزاحمت الذكرياتُ ، وترادفت العِظاتُ حتى أشفقت النَّفْس ، فالتمست الخلاصَ تُسَرِّح الطرفَ فى الصحراء ، فلما عادت الصحراء بذكرياتها كرّةً أُخْرى ، هَرَبتْ إلى حديث الأصحابِ ، وطعامِ الصباح ، والقطارُ يطوى الأرض ، التى طالما تمادَت بالمسافرين ، ومَطَلت السائرين ، ووَدِدتُ حينئذ أنى أقطع الصحراء على جَمَلٍ ، مُتَرَسِّماً طريق المتنبي ، أعُد المراحلَ التى عَدَّها فى قصيدته بعد أن خَرَج من مِصْرَ مُغَاضِباً كافورًا .

كان أسلافُنَا يَلْقَوْن فى الأسفارِ مَشَقاتٍ وأهوالاً ، ولكنهم كانوا يُرَوِّضون أبدانَهم وأنْفُسَهم على المكاره ، ويَعْرِفون الأرضَ التى يقطعونَها ، والأحياءَ التى يمُرون بها — معرفةً لا تفتقر إلى استزادة .

عند غزة :

وقف القطارُ عند غَزَّةَ بعيداً من البلَد ، وهو يَبْدُو على رَبْوَة بين أشجارٍ كثيرة . ولغزة من حادثات سيناء نصيبٌ موفورٌ ، ولكن الخيال الذى يُشفِق من التوغُّل فى التاريخ آثر أن يتمثل أبا نُوَاسٍ منشداً قَصِيدَته ، التى تصف طرِيقَه إلى الْخصيب :

طوالبُ بالركبانِ غَزَّة هاشم   وفى الفَرَما من حَاجِهن شُقُور

طالت وقفةُ القِطارِ عند غَزَّة ينتظر الْخبَر عن الطرِيق ، وقد قطعته السيولُ .

اللد :

ثم سارَ حتى بلغ بنا اللّد ، وهى محطةٌ كبيرةٌ حديثةُ البناء جميلةٌ ، وهناك انتقلنا إلى القطارِ الذاهبِ إلى بيتِ المَقْدِس .

الصعود الى بيت المقدس :

سار القطارُ حتى أخذَ طريقه بين جبلين شامِخين متقاربين ، ظهرَا فى ألوانٍ من البياضِ والْحُمْرَة والدُّكْنَةِ ، على سفحيهما خضراء قليلةٌ منثورةٌ ، والقطارُ يسير الهُوَيْنَى شاهقاً زافِرًا ، مُصعِّداً قليلاً ومُنْحَدرا ، تراه فى حضيض أحدِ الجبلين على حافةِ هُوَّة مُخِيفة ، ثم تَراه فى حضيضِ الجبلِ الآخرِ على الحافةِ الثانيةِ ، لا تدرى كيف تَحَوّلَ به

الطريقُ ، وكلما رَمَى الرائى ببصره ، امتلأت نَفْسهُ رهبة وإجلالا ؛ إنه لَمرْأًى جليلٌ هائلٌ — والقطارُ دائبٌ فى سيره يَتلوَّى بين الجبلين كالسَّيْل يَتمعَّجُ به الوادى . رأينا على يسارنا غارًا عالِياً يقالُ إنه كان مَبَاءة « سمسون الجبَّار » . وَحقٌّ أنّ مَنْ يأوى إلى هذا الغارِ يستطيع أن يقذف بالأحجارِ ، بل يُدَهْدِى الصخورَ العظيمةَ ، فيقطع الوادىَ على كلِّ سائر . طال بنا هذا الوَادِى — وادى الصِّرار ، وأدْجَى الليلُ فزاد المكانَ رَهْبةً على رَهْبة ، حتى بلغنا بيتَ المقدسِ بعد الساعةِ السادسةِ .

فى القدس :

بينما نُحَنّى أنفسنا بالمبادرَةِ إلى الفُنْدُق إذا بِوَفد من كِرامِ إخوانِنا المَقْدسِيّين ينتظرنا ، فتقدم للسَّلام والتّرْحيب ، وأخْبرَنا أن حَفلاً حاشداً يرجُو لقاءنا فى رَوْضة المعارف . نَضَّر الله روضةَ المعارف ! وباركَ فى أهلِها الأمجادِ ! لقد لقِينا من حَفاوتِهم وإيناسِهم ما هو جدير بنفوسهم الكريمةِ وأخلاقِهم العظيمة .

دخلنا الروضة والموسيقا تَعْزِف بألحانٍ مِصْرِية ، ولقِينا هناك جماعةً من العلماء الأجلاَّء ، ولما اطْمأنّ بنا المجلسُ خطب مديرُ الكلية مُرَحِّباً مُعْرِباً عما يُكِنُّه الشاميُّون لإخوانِهم المصريين من الحُبِّ والوَلاَءِ ، والإكبارِ والإعجاب .

ثم دُعِينا إلى الشاى ؛ فاجتمعنا عليه إخوةً ينقُلون الأحاديثَ بين الآمالِ والآلامِ ، ويرددون الفِكر بين الماضِى والحاضرِ ، ثم انصرفنا والموسيقا تَعزِف بنشيدِ جَلالة ملكِ مصرَ ، ثم نشيدِ سعد باشا ، والطلبةُ يتغنَّوْن لِمصر فَتُجيبهم طلبة مصر محيين الأممَ العربيةَ .

بيت لحم :

ذهبنا صباح الإثنين إلى بيتِ لحم — مولد المسيح فيما يقال — فدخلنا كنيسةً عتيقةً كبيرةً ، تقسَّمت المذاهبُ أرضَها وجُدْرانها ؛ قد اتخذت كلُّ طائفةٍ مُصَلًّى تستأثر به ، وقد تزاحموا على الغار الذى يُظَن أن المسيحَ وُلِدَ به ، وعلى المكانِ الذى زَعموا أنه مكان الميلادِ من هذا الغار ، فَتقسَّموه بالأصابع حتى تنالَ كُلُّ طائِفةٍ نصيبَها منه .

المسجد الأقصى وقبة الصخرة :

رَجَعنا إلى القدس ، وذهبنا بعد الظهْر إلى المسجدِ الأقْصَى ، فاجتزنا سوقَ المدينةِ إلى شارع يُفضِى إلى بابٍ كبيرٍ ، وأبْصَرنا قبل أن نَلِجَ البابَ بناءً عالياً كتب عليه « المجلسُ الإسلامِىُّ الأعلى » .

ظننتُ أن البابَ يُفْضِى إلى ساحَةٍ فى المدينةِ ، ولكن بوَّاباً هناك منع بعضَنا من الدخول ، ففهمنا أنه المسْجد . هناك فناءٌ عظيمٌ ،

تلوحُ فى أرجائه حُجُراتٌ مُتفرِّقةٌ وأشجارٌ ، وفى وَسَطه دَكَّة عظيمة يُرْقى إليها عَشر درجاتٍ ، تقوم فى وسطها قُبَّة جميلة — يَحْمِلها جِدار مُثَمَّن — هى قُبة الصَّخرَة .

يرى الداخل تحت القُبة صَخرَةً كبيرةً ، حولها نِطاقٌ من الخشب ، وتدور بها أرضُ المسجد ، وتحتَ الصخرة غارٌ صغيرٌ يُهْبَط إليه درجات قليلة ، إذا هَبط الإنسانُ إلى هذا الغارِ تَبيَّنَ فى أعلاه ثَقْباً ، وقد أشارَ مُحَدِّثُنا إلى بَلاطَةٍ فى أرْضِ الغارِ إزاء هذا الثَّقبِ . قال : « إن تَحتها بئرًا كانت تجتمع فيه الدماء السائلة من الثَّقب ، دماء القَرابين التى كانت تُذْبح على الصخرةِ . » وعلى مقرَبة من قُبة الصخرة على هذه الدَّكة أبنيةٌ أقامها صلاح الدين الأيوبى وخلفاؤه ، منها حُجْرةٌ صغيرَةٌ أخْبرنا دَليلُنا أن السلطانَ صلاحَ الدين باتَ فيها ليلةً يبكى ، ويَتضَرَّعُ إلى الله أن يَنْصُرَه على الصليبيين ، وكان خَطبُهم قد اشْتَدَّ عليه ، فلما أُصبح جاءته البشرى بالانتصارِ على العَدُوِّ .

هَبطْنا من الرَّبوَة ، واجتزنا الساحةَ التى حولها إلى باب المسجد الأقصى ، فإذا وراءه رواقٌ مديدٌ رَفيعٌ ، على جانبيه رواقان آخران . أفضى بنا الرُّواقُ الأوْسَط إلى محرابٍ عجيب الصَّنعة ؛ بجانبه مِنْبر عليه اسمُ صلاح الدين ، قيل لنا إن السلطانَ أمرَ بصنعه لهذا المسجد ،

والصليبيون مشغولون حول بيت المقدس ، فصدَق الله ظَنَّه ، واسترجع المدينةَ ، فوضع المِنْبرَ حيث قدَّر .

ويتصلُ بأروقةِ المسجد — جهةَ القِبْلة — رُواقانِ من اليمين والشمال ؛ فالذى إلى اليمين مسجدُ النِّساء ، احْتُجِز عن المسجدِ بحاجز من الخشبِ ، والذى إلى اليسار مُصَلًّى ، قيل إنه مُصَلَّى عُمر ، صَلى فيه حين قَدِم بيتَ المقدِس مُصالِحاً أَهْلَهُ .

البحر الميت :

غَدَوْنا إلى البحر الميت ، وهو فى وَهدة مُنْخَفِضَةٍ جدًّا ، وماؤه مِلْح مر ، وهو حد بين فلسطين وشرق الأُرْدُنِّ ، ويصب فيه من الشمال نهر الأُرْدُنِّ . مشينا على شاطِئه قليلاً ، وأَعْجَلَنا ضيقُ الزَّمن .

أريحا :

سرنا إلى « أريحا » واخْتَرَقْناها إلى نهر الشريعة أو « الأُرْدُنّ » حيث عبرنا قنطرةً هناك أَحَدُ طرفيها فى فلسطين ، والثانى فى شرق « الأُرْدُنّ » .

رجعنا إلى بيت المقدِس ، ونزلنا فى الطريقِ على عين « أريحا » فشَرِبْنا منها ، وسمعنا الغِناءَ المِصْرِيَّ من حاكِيَة ، وقد قَدَّمَ إلينا أحدُ الشبان الماء وهو يقول : « هذه العين هى حياة » أريحا » ، كما أن النيلَ حَياةُ مصر

من القدس الى دمشق :

تركنا بيت المقدس كارهين ، تَتَلَفتُ العيون والقلوبُ فيها إلى إخوانٍ كرام وذِكرياتٍ عظيمةٍ ، ومشاهدَ رائعةٍ ؛ خرجنا والساعةُ ثلاثٌ بعد الظهر نسيرُ شَطْر الناصرةِ قريةِ المسيح عليه السلامُ ، وكان سيرنا فى طريق جَبَلِيّ مُعَبَّد ، وكذلك أكْثرُ طرق فلسطين التى مررْنا بها ؛ ترى الطريقَ يدورُ حوْل التَّـل ، أو يَتَمَعَّجُ على سَـفْحِه حتى يبلغَ القِمَّةَ ، ثم ينحدرُ إلى الحضيضِ ، والسياراتُ جاهدة ، مُنجدة غائرة ، تظهر وتختَـفِى ، تَـكَابَدُ المرْتقَى الصَّعْب ، فما هى إلا غمزةُ السائِق حتى تَنْطلقَ مُدَوِّيةً زاخِرة ، فتبلغ الذِّرْوةَ ، وكم تخللت طريقاً ضَيّقاً ، وأشْفَتْ على هُوَّةٍ مخيفة .

مررنا بنابلس قبيل الغروب والسماء تُمْطِر ، وإذا السيارةُ الأمامية تقِفُ ، وينزل منها بعضُ أصحابنا مُهَرْولين إلينا . قلنا : « ما خَطْبُكم ؟ » قال الدليل — مُعْرِباً عن أماني رفقائه — : « نابلس مَعْروفة بكنافتها اللذيذة ، ولا بد أن نُعَرِّج عليها . » قلنا : « ولكن السماء تمْطِر . » قالوا : « إنه رَذاذ . » قلنا : « فابْعَثوا سائقَ السيارَةِ ليُسْعِفَكم بما تُريدون . » قال خبيرهم : « لا بدَّ أن نأكلها فوْرًا وهى سخينةٌ . »

لم يكن بين الصحب وكنافة نابلس إلا خَطَواتٌ ومَضْغات ، ولكن رئيس السَّفْر أشفق من المطر والظلامِ ، فعزم عليهم أن يَرْجِعوا ، فَكَرُّوا إلى سيارتهم آسفين نادبين أُمْنِيَّةً قاربوها ، وتخيلوها حتى امتلأت بها أعينهم وأفواههم — وما كل ما يتمنى المرء يُدْرِكه .

انفرجت الجبالُ قليلًا بعد نابلس ، وتابعنا السير حتى بلغنا الناصِرَة فى الساعة السابعة من المساء .

الناصرة :

بلغنا الناصرةَ ، قريةَ المسيح عليه السلام ، وقد بلغ منا التعب غايتَه ، وغدونا نمشى فى البلدة ، وهى صغيرةٌ نظيفةٌ ، ضيقةُ المسالِك ، مرصوفةٌ بالحجارَةِ ، يتوسط طرقَها مسايِلُ صغيرة لماء المطر . زرنا كنيسةً هناك كبيرةً ، بنيت على مَغَارة يقال إنها كانت مسكنَ السيدة مريمَ وأسْرَتِهَا ، وهى كنيسةٌ جميلة ، حسنةُ الهندسة ، ليس فيها ما شاهَدْنا فى الكنائِس الأخرى من تزاحُم الزينات ، وتَعَقُّد الأبنية .

من الناصرة الى طبرية :

برحنا الناصرة قبل الظُّهر إلى طَبَرِية ، ومررنا فى طريقنا بمرج ابن عامر ، وهو سهل فسيح ينتهى فى الشمال إلى سهل « حطين » الذى حَطَّم فيه السلطانُ « صلاحُ الدين الأَيوبى » جيوشَ الصليبيين

يوم الخميس ٢٢ ربيع الثانى سنة ٥٨٣هـ (٥ يوليه سنة ١١٨٧م) . وعلى مقربةٍ من طبرية رأينا قُرًى لليهود المهاجرين ، يلوحُ عليها الجِدَّة والغِنَى .

طبرية :

طَبَرِيَّة مدينة صغيرة على البحيرةِ ، وهى بحيرة ماؤها عَذْبٌ ، يُفْضِى إليها نهر الأُردن من الشمال ، ثم يخرجُ منها إلى الجنوبِ ، ويُحيط بها جبالٌ عالية ، تتفجر فيها ينابيعُ حارة ، تُساق إلى حمامات هناك ، وقد تمشينا على شاطئ البحيرة ، وشربنا من مائها ، وذكرنا المتنبيَ الذى يقول :

لولاكَ لم أَتركِ البحيرةَ والغَو ... رُ دفىءٌ وماؤها شَبِمُ
والموج مثلُ الفُحُول مُزْبِدَةً ... تَهْدِر فيها وما بها قَطَمُ
والطيرُ فَوْق الحَبابِ تحسِبُها ... فُرْسانَ بُلْقٍ تخونُها اللُّجُمُ
كأَنَّها والرِّياحُ تَضْرِبُها ... جَيْشَا وَغًى : هازِمٌ ومُنْهَزِمُ
تَغَنَّت الطيرُ فى جَوانِبها ... وجادَت الرَّوضَ حَوْلَها الدِّيَمُ

رأينا جبالَهاَ مُخضرة ، ولكن لم نرِ الجِنَانَ التى تحيط بها — كما يقول المتنبى — إذ زرناها فى الشتاء ، ولعلنا نَزُورها صَيفاً ، فيصدِّق الخبرَ الخُبْرُ ، ولسنا ننكر على البحيرة جَمالَها ، فقد سرَّحنا فيها العيونَ على منظر جَمِيل فسيح ، ونَشِقْنا هواءها المُنعش ، ووددِنا لو طَال بنا المُقام .

تغدينا فى فندق جميل هناك ، ثم استأنفنا السيرَ قاصدين دمشق .

وصلنا الحدودَ ، فوقفنا وقَدَّمنا جوازاتِ السَّفرِ ، ثم سرْنَا قليلاً فتخطينا نهر الأُردن على قنطرةٍ صغيرةٍ ، ووقفنا على مقرُبةٍ من الشاطئ الآخر عند مَخَافر سوريا ، ثم تابعنا السير إلى دمشق .

وكم انقبضت الصدورُ وانشرحت بذكرى دمشق ، وكم ثار فى النفس ذكْرٌ من الماضى والحاضر ، وبَسَمت فيها الآمال ، وعَبَست الآلام . وكان القلبُ يخفُق كلما سألنا السائق ، نخبرنا أن المدينة قد اقترَبَت .

نَحْنُ أَدْرَى — وقد سألْنا بنَجْد — أطويلٌ طريقُنــــا أم يَطولُ
وكثيرٌ من السؤال اشتياقٌ وكثيرٌ من رَدِّهِ تَعْلِيلُ

غَرَبت الشمسُ ، وأظلَمَ الأُفُق ، فلاحَ على بُعدٍ نُورُ دِمَشق ، ثم دخلناها والنفس مُقَسَّمة بين عَيْنٍ تَجْهَدُ لترى دمشق ، وقلبٍ يخفُق لذكرى دمشق ، ورأسٍ يبحَث فى ثنايا التاريخ عن دِمشق ، وحَظِّها من غِيَرِ الزمان ، وها هو ذا نهر « بَرَدَى » حقيقةٌ لا خيالٌ .

٣٤ – من دمشق إلى القسطنطينية

رسالة إلى صديق

يا صديقى العزيز :

لعلّ رِسالتى التى حدّثتُك فيها بطُرَف من أحاديثِ دِمَشق قد بَلَغَتْك ، وهذه رسالةٌ أخرى أُطرِفُك فيها ببعض ما وَعَتِ النفسُ من مشاهد الطريق بين دمشقَ والقسطنطينية ، وأرجو أن أواصلَ الرسائلَ من بَعْدُ .

طريق البر أم البحر :

ترددتُ برهةً كيف آخذُ طريقى من دارِ الأمويين إلى دارِ البيزنطيين ، أأركبُ إليها البحرَ من بَيْروتَ وأرجع عن طريق البر ؟ أم أخترق اليَبَسَ إلى غايتِى ؟ وكنت ركبتُ السفينةَ بين الإسكندرية والقسطنطينية مرتين قبلاً ، فقلتُ فى نفسى : « ماذا تفيدين من رؤية ما رأيتِ ، وحافِظٌ الشيرازىُّ يقولُ :

من جَرَّب المُجَرَّب حَلَّتْ بهِ النَّدامه

وماذا تُجْدِى عَلَيْك رؤيةُ الدَّأْماء صَباحَ مَساء ؛ لُجَّةٌ واحدةٌ ، وأمواجٌ متشابهة ، كأنها ساعاتُ العُمْرِ فى بَحْر الزمانِ ؟ »

من دمشق الى حمص :

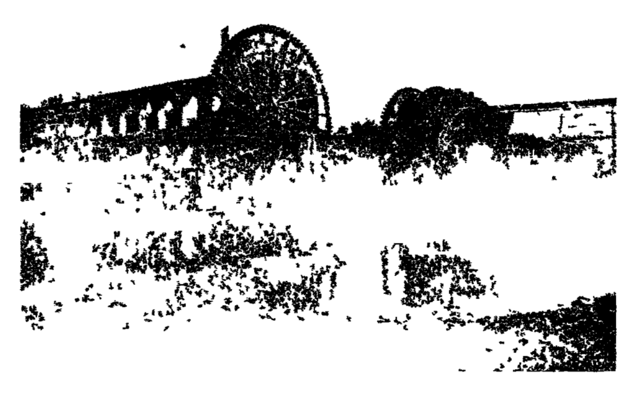
صَحَّ العزمُ على سَفَرِ البر ، فخرجتُ من دِمَشْق فى سيارةٍ أعدتها سركة الطرق الحديدية ، لإبلاغ المسافرين حمصَ ، ليركبوا منها سكةَ الحديد إلى حَلب . وقد ابتليتُ برُفقةٍ لناس بينى وبنهم سَبَبٌ ، فأرحتُ لسانى وأذُنى ، وسَرَّحت طَرْفى فى الفضاء ، وفِكرى فى مَسارِحَ لا تُحَدُّ ، بين الماضِى والحَاضرِ ، والقريبِ والبعيدِ ، وكان للسيارة سَوَّاقٌ ذكَّرنا بقول القائل : « قد لَفَّها الليل بسَوَّاق حُطَم . » فانْطَلَقَ بنا لا يألو سِرَاعاً حتى يكادُ الماء فى جوف السَّيارة يشتعل ، فيقف ريثما يَهْدَأُ الماء ، والطريق أكثرها صحراء جرداء ، تسايرها جبالٌ وتلالٌ ، وتزيِّنُها بين الحين والحين قُرًى ومدنٌ ، ومتاجرُ ومياهٌ ، ولا سيما قرب حمص .

عند حمص :

هذه حمصُ ، إن الوقتَ لا يُمْهِلك ولو لزيارة خالدِ بن الوليد ، فاصبر حتى تعودَ أدراجَك من هذه الطريق ، فتقضِىَ حقَّ العين

بين حمص وحلب :

بعد قليل جاءت من طرابلس سيارة كسيَّارَة « ديزل » المعروفة فى مصر ، وتسمى فى الشام باسمها الفَرنسى « أوتومُتربس . » أخذتُ مكانى بها وانطلقتْ سريعةً تَطْوى ما بين حمص وحلب ، والطريق هنا أكثرُ ماءً وشجرًا وزرعًا .



بعض النواعير فى حماة على نهر العاصى

وفى الطريق لاحت حَمَاةَ فى ربيات من شجرها ومائها ، ورأيتِ نواعيرِها مسورةً فى السهل ، تدورُ بالماء ، والماء لا يدور ... لا تفتر نهارًا ولا ليْلاً ، وتذكرت قول الشاعر :

ناعورةٌ مذعـــورةٌ ما بيْنِ حيْرَى سائِرة
الماء فوق كتْفها وهى عليـــه دائرة

وتذكرت أنى حين قرأت هذين البيتين فى المدرسةِ ظننت أن الناعورةَ هى الساقيةُ بلسان أهلِ مصر ، ثم عرفت الفرق بينهما حين ذهبت إلى الشامِ أولَ مرة . ومن رأى نواعيرَ الفيوم فقد رأى صورةً صغيرةً من نواعير الشام ، الماثلةِ فى الفضاء على نهر العاصِى — عاليةً رائعــةً .

فى حلب :

وبلغنا حلب بعد الساعة الثامنة من المساء ، فقصدت إلى فندق « البارون » اضطرنى إليه — على نُفُورى من هذه الأسماء الإفرنجية فى البلاد العَرَبيَّة — أنى نزلت به أولَ مَرَّة ، ولم أعرف من فنادق حَلَب غيرَه ، وقضيت به بقيةَ الليل ، وأصبحتُ مُبَكِّرًا إلى القِطار ، قطارِ الشَّرْقِ السريع ، ولم أرَ فى حَلَب شيئاً ، ولم ألاق بها صديقاً ، وسأعودُ إلى حديث حلب وحِمص فى رجوعى إلى الشام إن شاءَ اللهُ

من حمص الى الآستانة :

وجاء القطار [illegible] قد كتبت عليه بالفرنسية والتركية ذات الحروف اللاتينية . « قطار الشرق السريع » . وسألت أحدَ عُمّــال القطار عن

مركبات النوم ، فقال لصاحب له بالتركية : « دُلَّه عليها . » فقلت : « هذا أول العُجْمَةِ وطلائعُ الغُرْبةِ . »

أخذتُ مكانى بالقِطار مُوَطِّناً النفسَ على السفر ستا وثلاثين ساعةً ، ورَفيق فِكْرى ، وخَيالى ، وديوانُ البُحْتُرى . سار القطارُ والساعةُ سَبْع من الصَّباحِ ، وكان شَريكى فى المقصورَة إنكليزيًّا ذاهباً من العِراق إلى بَلَدِه فى إجازة قَصيرةٍ . ولكنى وجدتُ عن ملازَمته مَيْلاً ومندوحةً فى مقصورةٍ أخْرَى خالية ، خلوت فيها بصاحبي البُحْتُرِىِّ . وسأحدث القارئَ حديثه بعد .

على أنى لم أذْمُ من الإنكليزى الشَّيخ صُحْبَةً ، وكنت ألقاهُ حيناً فحيناً ، فَنَتَحَدَّثُ ونتفَكَّهُ ، وكنت أَجِدُه جالساً وبجانبه عُدَّةُ السفر من « البيبة » و « السجاير » و « الكتب » . ولست أنسى رِثائى له حينما أضلَّ مِنْظارَه ، فاضطرب حيناً يَبْحَث عنه ، ثم جلس كئيباً يقولُ : « إنى لا أستطيع القراءةَ بدونه ، وكيف أقطع الطريق إلى لندرةَ بغير قراءةٍ ؟ إنَّ مِنْظارى ثمينٌ ، إنه يلائم عَيْنى [illegible] فيتهم خادمَ القِطار بالسَّرقة ، ويَيْأس فيقعد لا أمن فى نفسه ، فيعود يبحث عنه وأبحثُ معه . وجاء الخادمُ يقول : « لعلها فى حقيبتك »

ففتحَ الحقيبةَ مُغْضَباً ، وأخرج ما فيها من ورَق ، وقال للخادِمِ بالإنكليزية — وهو عالِمٌ أنه لا يعرف كلمة — « انْظُرْ أَتَجِدُها هُنا ؟ أأنت على يقين ؟ إنها لَيْسَت هُنا ! أمطمئن أنت ؟ إنها لَيْسَت هنا ! » ثم رَجَعْتُ إليه بعد حين ، فإذا هو متهللُ الوجه مسرورٌ . فلما رآني وثب يريني كيف انزلق منظارُه من وراءِ البابِ وكيف وجَده ، فشاركته السرورَ ، وأعدنا الحديثَ ضاحِكين ، بعد أن أَطَلْنا الحديثَ عنه آسفين .

عند الحدود بين سوريا وتركيا :

وبعد ساعَتَيْنِ من حلب ، دخلنا إقليما جبليًّا مُشْجِرًا ، تَخَلل القطارُ فيه أنفاقاً كثيرة متعاقبة على سفوحِ الجبالِ ، حتى بلغنا ميدانَ « أمْبس » على الحدود بين سورية وتركية ، والساعة تسع وخمسون دقيقة ، فوقف القطارُ زُهاء نِصفِ ساعة ، وجاء موظف تركيٌّ فسأل : « من أَين ؟ » قلت : « من مِصرَ . » قال : « إلى أَين ؟ » قلت : « إستانبول . » قال : « أَمَعك أشياء (للجمرك) ؟ » قلت : « لا . » قال : « كم معك من النقود التركية ؟ » قلت : « قليل لا يتجاوز كذا . » قال : « نَعم السلامة . » وبلغنا — والساعة ثلاثٌ ونصف — محطةً اسمها « مصيص » . قلت لنفسي : « هذه — ولا ريب — المَصِيصَةُ التي كانت

ثغرًا بين البلادِ الإسلامية وبلادِ الروم زمنًا طويلاً . هنا نهر جَيْحَان ، وهنا مَغازى سَيْفِ الدولة . وفى هذا الإقليم وما يجاوِرُه نَظَم المتنبي ما نَظَم من قصائِده . أليس يقول أبو الطيب لِسَيف الدولة :

سَرَيتَ إلى جَيْحَانَ من أرض آمِدٍ ثلاثًا لَقَدْ أدْنَاكَ رَكْضٌ وأبْعَدَا

أجل ! وهنا أطرافُ العواصِمِ التى يفيض بذكرها التاريخُ والشعرُ .

وسرنا بعد المصيصة ثلاثين « كيلومترا » شَطْرَ الغرب فاتسع السهل وانتشرت الخضراء ، ووافينا أطَنَة والساعةُ أرْبعٌ .

جمال طوروس :

ندع حديث أَطَنَة وما يليها إلى العودَة ، ونسير إلى الشَّمال زُهَاء ساعة فنوافى جبالَ طوروس ، وما أعظمها ! مَنْظَرٌ جميلٌ رائع هائل ! سُفوحٌ مُخْضَرَّةٌ ، يُصَعِّد فيها الطرفُ حتى يبلغ قِممًا شاهقة تكاد العين تقصر دونها ، وَقِمم متنافسةٌ متسامية ، إذا صعِد البصر إلى إحداها ، انزلق على السفح ليَرْقَى فى سَفْحٍ آخر إلى قمة أخرى ، وإذا أَسَفَّ النظر إلى الحضيض ، فهناك الأودية العميقة السحيقة ، يهول الناظرَ عُمْقُها ، ويروقه بين الحين والحين مياه تجرى مسرعةً مُزْبِدَةً متعرّجةً ، كأنها الأراقمُ راعها القِطارُ فانسابت إلى مجاحِرها . وتتوالى مرائى طوروس فى جمالها وجلالها ، واختلاف ألوانها ، وارتفاعها واستِفالها ، وما يشغل

العينَ والفكر من صُوَرِها . وينبهر القطار أحياناً فيقف زَاخراً زافراً لا يقوَى على المرْتقى . فإذا أعد العُدة — من مائه ونارِه وبُخاره — عزَم فصعِد جاهداً مجهوداً . وبعد نصف ساعة على هذه السفوح تعاقبت أنفاقٌ لبث القطارُ فيها نحو عشرين دقيقة ، كلما بشَّر الضوء بانتهاء أحدها أقبل الآخر فى ظلامهِ يلتهم القطارَ . ومن بدائع الجناس أو المقابلةِ فى هذا الجمال البديع أذواد من الإبل فى أودية طوروس ، لم تذهب بجمالها ورُوَائِها مناظرُ الجبال العظيمةِ . وأما سرب المِعْزى الذى رأيته هناك ، فلا أدرى من أى أنواع البديع مرآه هناك ، وتوالت ذِكَرُ الآل والأصحابِ فإذا لسانى يترنم بهذه الأبيات :

ذكرتُكِ إذ طوروس فى الدَّوْح مُصعِدٌ ... يظل بأهداب السحاب يُعمَّمُ
يَطير بى الإعجاب بين سفوحه ... وقماتهِ والقلبُ فيــه مُقسَّمُ
ويفزَع من وِديانه كلُّ ناظرٍ ... ويحتار فيه الطَّرْف كيفَ يُيمِّمُ
جمال ترُود العين بين رِياضه ... عليه جلالٌ بالمهــابة مُفْعَم
فأيقنتُ أن ذكراكِ أروعُ مشهدا ... وأجمل من طوروسَ عندى وأعظم

وانتهى بنا الإصْعاد إلى مكان اسمه « أدلوقشان » وهو أعلى موضع فى طريق طوروس ، وبعده بقليل تلتقى الطريقان : الطريق الآتية من « أنقرة » والآتية من « قونية »

عند أنقرة :

وجَنَّ الليل وبات القطارُ يَسرِى ، فأصبحنا عند « أنقرة » والساعة سبع من الصباح . وأستأذنك يا صديقى أن أطوِىَ المسافةَ بين « أنقرة وإستنبول » والحديثَ عنها إلى العودة ؛ فقد كان نصيبى من هذه الديار فى عوْدتى أوفرَ ، وأُنسى بها أَطول ، ثم أخشى أن تَمَلَّ الحديثَ الطويل ، والرسالةَ المسهبة . فسلام عليك .

٣٥ — ثورة القاهرة على الفرنسيين

قاد « نابليونُ بونابرت » جيشاً فَرَنسيًّا إلى مصرَ فاحتلَّها ، وحاول أن يفتح الشامَ ، ويُثَبِّتَ سلطان أُمَّتِه على طريق الهند .

وتودد إلى المصريين كثيرًا ؛ ليتألَّفَ قلوبهم ، فلم يزدادُوا إلا كَرَاهِيَة لحكم الأجْنَبِيِّ . ثم اضطرته الحادثاتُ أن يَرْجع إلى وَطنِه ، ويستخلفَ على جيشِه فى مصر القائد « كليبر » . فأخذَ هذا القائدُ يدبِّر للخروج من مصرَ على حال لا تظهر فيها هزيمة الفَرنسيين ، ولا تُزرى بهم ؛ فشرع يُفاوض « مرادَ بك » — أحد زعماء المصريين — ليتولَّى الصعيدَ تحتَ رعايةِ فرنسا ، وتمَّ الاتفاقُ بينهما . ثم وَجَّهت الدولةُ العثمانية جيشاً إلى مصرَ ليُخْرجَ الفَرنسيين ، فأخذَ « كليبر » يفاوضُ التركَ والإنكليزَ على تَخْلية البلادِ .

وانتظر أهلُ القاهرة جلاء الفَرنسيين ، وفَرِحوا بزَوالِ حُكمهم . وكان مما اشترط الفَرنسيون : أن يكون رَحيلهم على نفقةِ المصريين ، فجد المصريّون فى جمع المال تعجيلاً لهذا الرحيلِ المرجُوّ ، وتولى جمعَ المالِ شيخُ تُجَّارِ القاهرة السيدُ أحمدُ المحروقِيُّ . وشرعَ الفَرنسيُّون يجلون عن قلعة الجبلِ والقلاعِ الأُخرى ، ولكن الإِنكليزَ لم يُوفُوا بالشروط التى أعطاها أميرُ البحر « سدنى سمث » .

توقف الفَرنسيونَ مُحْرَجِين بين الأسطول الإنكليزى فى البحر، وجيش العثمانيين، والجيش المصرى يقودُه إبراهيم بك على أبواب القاهرة، فلم يَرَوْا بُدًّا من الحربِ، فباغت «كليبر» الجيشَ التركىَّ المِصرىَّ عند المطرية وهزمَه.

فلما علم أهلُ القاهرةِ بما فَعـل الفَرنسيّون، وخابَ رجاؤُهم فى رحيل عَدُوِّهم، غَضِبوا وثارُوا والتَفُّوا حول السيد عُمَرَ مَكْرمٍ، واجتمعت القلوبُ والأيدى على الثَّورة، وتعاونَ الكُبراءِ والعامَّةُ على حربِ الفَرنسيين. وكان السيد عمرُ — عَلَمُ هذه الثورة — ينتقلُ من مكانٍ إلى آخر، ليُشَجِّعَ الثائرين، ويدبِّرَ أمورهم. واستبسل الناسُ، واستماتُوا فى الدفاعِ عن المدينة، وأنْشَئوا مصنعاً لذخيرة الحربِ فى «الخرنفش»، وجدُّوا فى صنعِ المدافعِ وغيرِها من الأسلحة. وكان بيتُ القاضِى وما يجاورُه من الحى الُحسَيْنِىِّ مَصْنَعاً حربيًّا لا تَفْتُرُ فيه الحركةَ. وبذَل الناسُ أنفسَهم وأموالَهم طائعين، واعتَصم الفَرنسيُّون بالقلاعِ المحيطةِ بالقاهرة.

وكان حىُّ «بُولاق» أكثرَ الأحياء تعرضاً لغارات الفَرنسيين، فهبَّ أهلُ الحىِّ للدِّفاع، وتولَّى قيادتَهم رجلٌ من كبرائهم اسمُه الحاج مصطفى البشتيلى، فهزموا كتيبةً فَرنسيَّةً كانت مُعَسْكِرةً

فى حيهم

ثم جاء الجيشُ الفرنسى يقودُه « كليبر » ، وكان رَجُلاً شُجاعًا قاسـ غليظاً . واستمرّ القتالُ بين الفريقين شهرًا كاملاً ، رأت فيه القاهرةُ كيف يَسْتَبْسِلُ أبناؤها فى ساحةِ الموتِ ذِيادًا عنها ، واحتفاظاً بحرمتها

واشتد الحصارُ ، ومُنِعَتِ الأقواتُ ، فعلَتِ الأسعارُ ، ولكنّ المدافعين لم يبالُوا بغير الدِّفاعِ ، والاستشهادِ فى سبيل بلادهم . وكان حسن « بك » الجداوى يدافعُ فى جهةِ الأزبكيةِ ؛ فإذا سَمِع أن العدُوَّ هاجمَ طرَفًا آخَر من أطرافِ المدينة سارعَ إليه ليدافعَ عنه . وكان السيِّد عمر مكرم والسيِّد أحمد المحروقى ، وغيرُهما من الأعيان يُثَبِّتُون الناسَ ، ويُواسُونهم ، ويُمِدُّونهم بالأموال .

وَخَشِيَ الفرنسيون عاقبَـة الثورة ، فأرسلوا إلى بعض الزعماء للمفاوضة فى الصلح ، فذهبَ إليهم الشيخُ الشّرقاوىُّ فى جماعةٍ من المشايخِ ، ورَجَعَ إلى المصريين يُبَلِّغُهم رضاء الفَرنسيين بِوَقْفِ الحرب ؛ لتَرجعَ الأمورُ إلى نصابها ، ويأمنَ كلُّ إنسانٍ على نفسه ، فمَنْ شاءَ بَقِيَ فى المدينة ، ومَنْ شاءَ خَرَجَ آمِناً من العقابِ .

ثاج الناسُ ، وضَربُوا الشيخَ الشرقاوىّ ، واستمرُّوا فى الدفاعِ ...شرين من ذى القعدة سنة ١٢١٥ هـ ، إذ دَهِمَ العدُوُّ المدينة [illegible] ، وهطَلَ مَطَرٌ شديدٌ فيه رَعْدٌ وبرقٌ ،

وتقدمَ الفرنسيُّونَ يُشْعِلون النار فى مساكنِ المدينة كُلِّها ، ما بين بابِ الحديد وبِرْكَةِ الرَّطْلِ والْحُسَيْنِيَّة إلى بلاق ، وأعانتهم القلاعُ الداخلية التى كانت بأيديهم ، كَحِصن جامِع الظَّاهِر ، وحِصن قَنْطرة اللَّيْمون . ويَئِس المدافِعُون من كُلّ مددٍ يأتيهم من العثمانيين ، أو مراد بك ، أو غيْرِهما .

وأخذَ الناسَ الجوعُ والجهدُ ، وآذتْهُم قذائفُ المدافع والبنادق من الدّاخِل والخارج ، والنيرانُ المُشتعلة فى دورِهِم ، والمطرُ المنهمر ، والسبلُ السائلة بالمياه والأوحالِ .

فى هذه القيامةِ بَدأت مُفاوضاتُ الصلح بين الفريقين ، ثم وضَعَت الحرب أوزارها أولَ ذى الْحِجَّة سنة ١٢١٥ هـ ، بعد ثورةٍ استمَرَّت سَبْعة وثلاثينَ يَوْماً ، تَجَلَّتْ فيه حَمِيَّةُ المصريين ، واستبسالهم فى ساحاتِ المَوْتِ ، وصبرُهُم فى الشدائد ، وتَعاونُهم على الدِّفاع عن ديارهم ، وجُودهم بالأنفسِ والأموالِ فى سبيلِ أمّتهم .

٣٦ – زُهد الصحابة فى صدر الإسلام

رُوِىَ أن عُمَرَ بنَ الخطّابِ (رضى الله عنه) استَعْمَل على حِمْص عُمَيْرَ بنَ سَعْدٍ . فلما مضت السنةُ ، كتب إليه عُمَرُ (رضى الله عنه) أنِ اقْدَمْ علينا ، فلم يشعر عمر إلا وقد قَدِمَ عليه ماشِياً حافياً ، عُكازَتهُ بيَدِهِ ، وإداوتُه ومِزْوَدُهُ وقَصْعَتُه على ظَهْرِه . فلما نظر إليه عُمَرُ قال له : « يا عُمَيْرُ ! أأجدبنا أم البلاد بلادُ سوء ؟ » فقال : « ولِمَه يا أمير المؤمنين ؟ وقد جئتُ إليك بالدنيا أجُرُّها بِقِرابها . » فقال له : « وما معكَ من الدنيا ؟ » قال : « عكَّازة أتوكَّأُ عليها ، وأَدْفَعُ بها عَدُوًّا إن لقِيته ، ومِزْوَدٌ أَحْمِل فيه طعامى ، وإداوَةٌ أحمل فيها ماء لشرابى ولِطَهورِى ، فواللهِ يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعدُ إلا تبعَ لِمَا معى . »

فقام عُمَرُ من مَجْلسِهِ إلى قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبى بكر (رضى الله عنهما) فبكى ودعا ، ثم عاد إلى مَجْلسِهِ فقال : « ما صَنعْتَ فى عملك يا عُمَيْرُ ؟ » فقال : « أخذت الإبلَ من أهلِ الإبلِ ، والجزيةَ من أهلِ الذّمّةِ عن يَدٍ وهم صاغِرون ، ثم قَسَمتُها بين الفقراء والمساكينِ وأبناء السبيل ، فواللهِ يا أميرَ المؤمنين لَوْ بَقِىَ عندِى منها شىءٌ لأتيتُكَ به . »

فقال عمر: « عُدْ إلى عَمَلِكَ يا عُمَيْرُ . » قال : « أَنْشُدُكَ اللهَ يا أميرَ المؤمنين أن تَرُدَّنِي إلى أَهْلِي ! » فأذنَ له ، فأَتى أَهْلَهُ ، فبعثَ عُمَرُ رَجلا يقالُ له حَبيبٌ بمائة دينارٍ وقال له : « اخْتَبِرْلِي عُمَيْرًا ، وانْزِل عليه ثلاثةَ أيَّامٍ حتى ترى حالَهُ ، هل هو فى سَعَةٍ أمْ فى ضيقٍ ، فإن كان فى ضيقٍ فادفَعْ إليه الدنانيرَ . » فأتاه حبيبٌ ، فنزل عليه ثلاثةَ أيَّام ، فلم يرَ له عيشاً إلا الشعيرَ والزَّيْتَ . فلما مَضت الثّلاثة الأيام دفع إليه الدنانيرَ وقال : « قد بعَثَ بها أمير المؤمنين إليك . » فدعا بفَرْوٍ خَلَقٍ لامرأته ، فجعل يصُر منها الخمسةَ الدنانير ، والستة ، والسبعة ، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنْفَدها .

فقدم حبيب على عمرَ وقال : « جئتك يا أُميرَ المؤمنين من عند أزْهدِ الناسِ ، وما عندَه من الدُّنيا قليلٌ ولا كثير . »

ولمَّا رَجع عُمَيْرٌ من عند أهْلِهِ ، أُمرَ له عمر بوَسْقَيْن من طَعام ، وثوبين ، فقال : « يا أميرَ المؤمنين ! أما الثوبانِ فأقْبلُهما . وأما الوَسْقانِ فلا حاجةَ لى بهما ؛ فعند أهلى صاعٌ من بُرٍّ ، وهو كافيهم حتى أرجِعَ إليهم . »

ورُوِيَ أن عمَر (رضى الله عنه) صَرَّ أَرْبعمائة دينارٍ وقال للغلام : « اذهب بها إلى أبى عبيدةَ بن الجرّاح ، ثم تربَّص عنده فى البيت ساعة

حتى تنظر ما يَصْنَعُ . » فذهب بها الغـلامُ إليه ، وقال له : « يقول آميرُ المؤمنين عمر بن الخطّاب : « اجعل هذه فى بعض حوائجِك . » فقال : « وصَلَهُ الله ورَحِمَهُ ! » ثم دعا بجارية وقال لها : « اذهبى بهذه السَّبعةِ إلى فلانٍ ، وبهذه الخمسةِ إلى فلانٍ ، حتى أنفدها . » فرَجع الغلامُ إلى عمَر وأَخبرَه ، فوجَده قد أعَدَّ مثلها لمَعاذ بن جَبل ، فقـال : « انطلق بها إلى معاذ بن جبل ، وانظر ما يكونُ من أمره . »

فمضى إليه ، وقال له كما قال لأبى عبيدة بن الجرّاح ، ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة . فرَجع الغلامُ ، وأخبرَ عمرَ فقال : « إنهم إخْوَةٌ ، بعضهم من بعض ، رَضِيَ الله عنهم أجمعين . »

٣٧ – فى وصف الحرب العظمى

من قصيدة للأستاذ على بك الجارم



مَنْ سَلَبَ الأعْيُنَ أنْ تَهْجعَا   وبَزَّ ذَاتَ الطَّوْقِ أنْ تَسْجَعَا
ومَنْ رَمَى بالشَّوْكِ فى مَضْجَعِى   فَبِتُّ مَكْلُومَ الْحَشَا مُوجَعَا
طاحَتْ بِأَهْلِ الْغَرْب نارُ الْوَغَى   وهَبَّت الرِيحُ بِهِمْ زَعْزَعا
طافَ عَلَيْهِمْ بالرَّدَى طائِفٌ   فَاخْتَرَمَ الأَنْفُسَ لَمَّا سَعَى
فى الْبَرِّ فى الْبَحْرِ ومِنْ فَوْقِهِمْ   لمْ يَتْرُكِ لْمَوْتُ لَهُمْ مَوْضِعا
يَجْمَعُهُمْ جَبَّارُهُمْ عَنْوَةً   وإِنَّمَا لِلْمَوْتِ مَنْ جَمَّعا

*
* *

لم يَكْفِهِ رُمْحٌ ولا مُرْهَفٌ فاتَّخَذَ الْمُنْطَادَ والْمِدْفَعَا
صَوَاعِقُ الْمُنْطَادِ لا تُتَّقَى وصَوْلَةُ الْأَلْغَامِ لَنْ تُدْفَعَا
أَوْقَدَها السَّفَّاحُ فى ساعَةٍ كادَتْ لها الْأَفْلاكُ أَنْ تَصْدَعا
وَخَبَّ فِيهَا راكِباً رَأْسَهُ لِلشَّرِّ ما خَبَّ وما أَوْضَعا

*
* *

يَا خَالِقَ النَّاسِ ، طَغَى شَرُّهُمْ فَاهْدِ الْحَيَارَى واكْشِفِ الْمَهْيَعا
لم يُشْبِهُوا الإِنسانَ فى خَلْقِهِ وأَشْبَهُوا الْحَيَّاتِ والْأَسْبُعا
قدْ رُفِعَ الإِحْسانُ مِنْ بَيْنِهِمْ وأَوْشَكَ الإِيمانُ أَنْ يُرْفَعا
لَوْلَا سَنَا هَدْيِكَ فى بَعْضِهِمْ لَدُكَّتِ الأَرْضُ بِهِمْ أَجْمَعا

٣٨ — الأغانى(١)

سأتكلّم فى هذه الأغانى الشّائعة الآن ، ولا يَظُنَّ أحدٌ أنى بهذا أنحرف عن الحديث فى الأدب ؛ فالقَوْل فى الأغانى إنما هو قولٌ فى صَميم الأدب . ولا تَنسَوْا أنَّ أغزَرَ كتاب وأجْمَعه وأكفاه ، صُنِّفَ فى الأدب العربى ، فأتى على عُصارته ، وعُيون رَوَائعِه ، من أول العلم بيلاغات الجاهِلِيَّة إلى غاية ثلاثة قرون فى الإِسلام — إنما كان مَوْضوعه الأغَانى ، بل اسْمه الأغَانى ! .

وبعد : فأرجو ألا يَتهاوَنَ أحدٌ منكم شأنَ الأغَانى ، على اختِلاف ضُروبها وألوانها ؛ فالأغانى هى عَرَض من أعْراض الأمَّة ، وتَرجُمانٌ صادِقُ الأداءِ عن حالها وعَقْلِيَّتها ، ومَبْعث مواجعها وآلامها ، ومُتَنَاجَى آمالها فى الحياة وأحْلامِها ، وإن لها لأثرًا بعيداً فى بِناء النَّشْء وتَرْبِيتهم ، وفى تَسْوِيَة الأذْواق العامَّة . بل إن لها وراءَ ذلك لأثرًا أبعد مدًى ، يوم تكون الْجُلَّى ، ويوم تُسْتَنْفَرُ الجمْهَرَةُ للعظائم .

على أنَّ أثَر الأغَانى فى هذا الباب لا يَحْتاجُ منى إلى بيان ؛ فلقد طالما قال فيه أفاضِلُ الأدباء وَبَيَّنُوا ، وأفاضُوا فأجْمَلوا وأحْسَنوا . وصدق المتَقَدِّمون حين قالوا : « إن تَوضيحَ الواضحات من بعض المُشْكلات . »

ولله أبو الطيب المتنبي حين يقول :

(١) من كتاب « المختار » للأستاذ عبد العزيز بشرى .

وليْسَ يَصِحُّ فى الأذهانِ شَىءٌ إذا احْتاجَ النَّهـــار إلى دَليل

وكيفما كانت الحالُ ؛ فإن الغِناء المِصْرِىَّ قد صرف جُلَّ هَمِّـه ، إن لم يكن صَرَف هَمَّهُ كلَّه إلى تَردِيد أحادِيث الصَّبابة والهوى ، وشِدَّة البَيْن وطُول النَّوى ، وألَمَ الفِراق وحُرْقة الجوى ، والهُتاف بالمحبوب فى حالَىْ إقْباله وإعْراضه ، وجِماحِهِ وارْتياضهِ ، وإظهار الفرح بجَميل لقائهِ ، والشَّـكوى من صَدِّه وطُول جَفائه ، ونحو هذا من فُنون المعانى التى ما بَرِحَ الغناء المصرى يتصرَّفُ فيها إلى الآن .

أما العِناية بإصابة المعانى السَّامية التى تَتصلُ بتربية الأخلاق ، أو بتزكية الأذْواق ، أو بوصف الحالات الاجتماعية ، أو الإشادةِ بالوطَنيَّات جُملةً — فهذه لقد ألقاها الغِناء المِصرىُّ دَبْرَ الآذان — إذا اسْتَثنينا أُنْشُودَةً وطنية ضئيلة ، كان يَترَنَّمُ بها صِغار التَّلاميذ عند مُنْصرَفهم آخر النهار من مدارسهم . والتى مطلعها : —

مِصرُ النَّعيمُ هى الوَطن وهى الحِمَى وهى السَّكَن
وهى الفَريدةُ فى الزَّمن فجميعُ ما فيهـــا حَسَن

ولستُ أدرى إن كانت أقلام الشُّعراء أو المتَشاعِرين أرْسلت فى ذلكم العصْر غير هذه الأُنْشُودة أم لم تُرسل ! وعلى كل حالٍ فما فى شىءٍ من مثال هذا جليل غناء !

واسْمَحوا لى أن أقولَ لكم إنَّنى من الجِهة القومِيَّةِ أصْبحت أحْتفِلُ للكلام فى « الطَّقاطيق » أكثر من احْتفالى لِأَىِّ ضَرْبٍ آخر من ضُروب الغِناء .

نعم ؛ لقد أصبحتْ مِنى بهذا الموضع ؛ لأنها فى الواقع الأغنيةُ الشَّعبِيَّة التى تُرَدِّدُها حلوق الجميع فى هذه الأيام ؛ يردِّدُها الرِّجال فى مجالسهم ، كما ترَدِّدُها السَّيِّدات فى خُدورِهنَّ ، ويردِّدُها الشُّبان والشَّابات ، والفِتْيان والفَتيات ، والأطفال والطفلات — كلهم يردِّدها على اختلاف المنازِل ، وتفاوتِ الثَّقافاتِ .

فاللَّهم إذا كان لشىء من فنون الغِناء أثرٌ شديدٌ أو ضعيفٌ ، قريبٌ أو بعيدٌ فى تكوين الأخلاق ، وتربيـة الأذوَاقِ ، والدَّلالة على ثَقافَةَ أمَّة واتِّجاه مُيولها ، فهو ولا شَكَّ لهذه (الطقطوقة) أكثر من أىِّ شىء آخر .

وإنِّى أرجوكم أوَّلاً أن تُقَلِّبوا النَّظر فى هذه (الطقاطيق) التى تُطرَون بها كلَّ بُكرَة وكلَّ عَشِىٍّ ، إذن فلَسْتُم واجِدين فى [illegible] الكثير إلا كلَّ رَذْلٍ وسَمِج وسخيفٍ وبارِدٍ من الكلام .

حدِّثونى بعيْشِكم ! أىُّ غرضٍ من مثل هذا الذى تَسْمعون كلَّ يوْم وكلَّ ساعة ، وأىُّ مَعْنًى فيه ، وأىُّ مَغزًى له ؟

وهنا أرفع شارة (الخطر) ليأخذ من شاء الحذر .

إن لِبلادكم آمالاً عِراضاً فى جميع نواحى الحياة . وهَيْهاتَ أن تَنالَ أيْسَرَها مَطْلباً إلا على أيْدى رجال صِحاح البِنَى ، مِتان الأخلاق ، شِداد النُّفوس ، صِلاب الطِّباع .

والأمر الآن إليك أيُّها الشَّعب ، فقل كَلِمتك ، وَأَمْضِ فى شَأْنِك حُكْمك ، والله مُوَفِّقُك وهادِيكَ سَواء السَّبيل .



٣٩ — رَبَاطَـــةُ الجأش

قال أحْمَدُ بن أبى داؤدٍ :

« ما رأيتُ رجلاً نزل به الموتُ فما شَغَلَه ذلك ولا أذْهَلَه عما كان يجب أن يَفعله إلا تميمَ بن جَميلٍ ؛ فإنه كان تَغَلَّب على شاطئ الفُراتِ فظُفِر به ، ووافى به الرّسولُ باب المُعْتَصِم فى يومِ المَوْكِب حِين جُلوسِهِ لِلْعَامَّة ، فأُدْخِلَ عليه . فلما مَثَلَ بين يَدَيْهِ ، دعا بالنِّطع والسَّيْفِ فَأُحْضِرا . وجَعَل تميمُ بنُ جَميل يُصَعِّد النَّظر إلى ذلك ، ولا يقولُ شيئاً ، والمعتصمُ يُصَعِّد النظر فيه ويُصَوِّبه . وكان جميلٌ جسيماً وسيماً ، فرأى المعتصمُ أن يَسْتَنْطِقَه ؛ ليرَى أَين جَنَانُه ولِسَانُه من جسمه ومَنْظَرِه ، فقال : « يا تميم ! إنْ كان لك عُذر فأتِ به ، أوْ حُجَّةٌ فَأَدْلِ بها . » فقال : « أَمّا إذ قَد أَذِنْتَ لِي يا أَمير المؤمنين بالكلام فإنى أقول : « الحمد لله الذى أَحْسَنَ كُلَّ شىء خَلَقه وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ ، ثم جَعَل نَسْلَهُ من سُلالَةٍ من ماءٍ مَهِين . يا أمير المؤمنين ! جَبَرَ اللهُ بك صَدْعَ الدِّين . وَلَأَمَ بك شَعَثَ الأُمَّةِ ، وأخْمَد شِهَابَ الباطِلِ ، وأَوْضَحَ سُبُلَ الحق . يا أميرَ المؤمنين ! إن الذُّنوب تُخْرِس الأَلْسِنَةَ ، وتَصْدَعُ الأفئدَةَ . ولقد عَظُمَت الجريرةُ ، وكَبُرَ الذَّنْبُ ، وساء الظَّنُّ ، ولم يبق إلا

عَفْوُكَ أو انتقامُك . وأرجو أن يكون أقربُهُما منك وأسرعُهُما إليك أَوْلاَهما بأَمَانَتك ، وأشبَهُهُما بِخلافتِك .

ثم انشد :

أرَى الموت بين السَّيْفِ والنِّطْع كامناً ... يُلاحِظُنى من حَيثُمَا أتَلَفَّتُ
وأكْبَرُ ظَنِّى أنك اليومَ قَاتِلى ... وأىُّ امرئٍ مما قَضَى اللهُ يُفلِتُ
ومَنْ ذا الذى يُدْلى بعذر وحُجَّة ... وسَيْفُ المَنَايا بين عينَيه مُصْلَتُ
يَعِزُّ على أبناءِ تَغْلِبَ مَوْقِفٌ ... يُسَلُّ علىَّ السَّيْفُ فيه وأسْكتُ
وما جَزَعِى من أن أموتَ ، وإننى ... لأعْلَمُ أن المَوتَ شىءٌ مُوَقَّتُ
ولكنَّ خَلْفِى صبيةً قد تَرَكْتُهم ... وأكبادُهم من حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ
كأنِّى أَراهم حين أُنْعَى إليهم ... وقد خَمَشُوا تلك الوجوهَ وصَوَّتوا
فإِن عِشْتُ عَاشوا خافضين بغبطة ... أذُودُ الردَى عنهم ، وإن مُتُّ مَوَّتوا
وكم قائلٍ لا يُبْعِدُ اللهُ دارَه ! ... وآخرَ جذلانٍ يُسَرُّ ويَشْمَتُ »

فتَبَسَّم المعْتَصِم وقال : « إنَّ من البيانِ لَسِحْرا ، كادَ — والله يَا تميمُ — أنْ يَسْبِقَ السيفُ العذَلَ . اذْهَبْ فقد غَفَرْتُ لك الهَفْوَة ، ووَهَبْتُكَ لله ولصِبْيتك ، وأعطاهُ خمسين ألفَ دِرْهَم . »

٤ — اللاسلكى فى خدمة الأمن



صورة سيارة للشرطة بها جهاز لاسلكى

لعلك شاهدت سَيّارَةً بها مِذْياعٌ يستقبل الإذاعاتِ اللاسلكية ، فَيَسْمعُ رُكّابُهَا ما يُذاعُ من الموسِيقا والأغانى والمحاضَراتِ ، ويتمتعون بذلك وهم مسافرون ، أو مُعْتزِلون لِلنُّزْهَةِ والرِّياضَةِ فى جهة من الخلاء .

وقد فكّرَ رِجالُ الأمْنِ أن يَسْتَعينوا باللاسلكى فى المحافَظَةِ على الأمْنِ ، وفى تَعقُّبِ الْجُناةِ والقَبْضِ على المُجْرمين . فكيف تمَّ لهم ذلك ؟

أَعَدُّوا سَيَّاراتٍ خاصَّةً ، فى كل واحدة جهازٌ لاستقبال الإذاعاتِ اللاسلكية ، وآخر للإذاعَةِ . وبَنَوْا محطة لاسلكية خاصَّة برجال الأمن .

ووُزِّعت السياراتُ على مناطق المدينة . فإذا حَدثت جناية فى ناحيةٍ وحاول الْجُناةُ الهربَ والإفلاتَ من يد الشُّرْطة بُلِّغتَ الحادِثة وأوصاف الُجناةِ باللاسلكى إلى محطة الإذاعةِ الخاصَّةِ بالشُّرْطة ، فبادرت المحطةُ إلى إذاعةِ هذه الرِّسالةِ ، ويتلقاها كلُّ رِجالِ الشرطةِ فى سياراتهم المنتشرة ، فَيترَقَّبونَ المجْرمين الذين عرفوا أوصافهم ، ويدقِّقون الملاحظةَ فى تتبعهم ، فلا يلبثون أن يَضَعوا أيْديهم على الجانى فى أى منطقة حاولَ أن يَفِرَّ إليها ويختبِئَ فيها .

وقد أدَّى هـذا النظامُ خِدْماتٍ جليلةً للأَمْنِ ولرجال الشرطةِ ، وجعلهم — وهم متفرقون فى المنـاطقِ المختلفةِ — يعملون مُتواصلين مُتَفاهمين فى مقاومة الْجُنَاةِ ، والتَّضْييق عليهم ، والإحاطةِ بهم .

وفى أوَّلِ ما أُعِدَّت هذه السياراتُ « بلندن » حدث أن سَطت عصابةٌ من اللصوصِ على متجرِ جَوْهَرِىٍّ بالقرب من القصر الْمَلَكىِّ ، وأتمَّ اللصوصُ سَرِقتَهم ، ورَكبوا سيارتَهم محاولين الفِرارَ . وبعد دقائقَ أُرْسِلَ الخبرُ إلى محطةِ الشُّرْطةِ فأذاعتهُ ، وتَلقَّتْهُ السياراتُ المتفرقةُ فى مناطق المدينة . فتَنَبَّه كلُّ رجالِ الشرطةِ ، واستعَدُّوا بسيَّاراتِهم ، وجعلَ القريبون من مكانِ السَّرِقةِ يُراقِبون كلَّ سيَّارَةٍ تَغْدُو، فلم تَبْتَعِدْ

سيارةُ اللصوصِ كثيرًا حتى هاجمها الشُّرْطةُ ، وأحاطوا بها ، وتَغَلَّبوا على من فيها واعتقلوهم ، وضبطوا ما معهم من الجواهرِ . وكان انتصارًا سريعاً عظيما ، شَجَّع الحكومةَ أنْ تُكْثِرَ من هذه السياراتِ ، وتُوَسِّعَ هذا النظامَ فى خدمةِ الأمْنِ .

وقد جُرِّب هذا النظام بمصر سنة ١٩٣٨ م ، وأسفرت التجربة عن نجاح يبعث على الارتياح إلى اتباع النظام بمصر وتوسيعه أيضاً .

٤١ — فى وصف سفينة ببحر هاج ثم هدأ

للمرحوم حافظ إبراهيم

عاصفٌ يَرْتمى وبَحْرٌ يُغيرُ　　أنا باللهِ منْهُما مُسْتَجيرُ
وكأَنَّ الأمْواجَ ، وهى توالى　　مُحْنَقاتٍ . أَشْجانُ نَفْسٍ تَثورُ
أَزْبَدتْ ، ثمّ جَرْجَرَتْ ، ثم ثارَتْ　　ثمّ فارَتْ كما تَفورُ القُدورُ
ثم أَوْفَتْ مِثْلَ الجِبَالِ على الفُلْـكِ وللفُلْكِ عَزْمَةٌ لا تَخورُ

***

أَزْعَجَ البَحْرُ جانِبَيْها من الشَّـدِّ فجَنْبٌ يَعْلو وجَنْبٌ يَغورُ
وعليها نُفوسُنا خائِراتٍ　　جازِعاتٍ كادَتْ شَعاعاً تَطيرُ
فى ثَنايا الأمْواجِ والزَّبَدِ المَنْـدُوفِ لاحتْ أكفانُنا والقبورُ
مَرَّ يومٌ وبعضُ يومٍ علينا　　والمنايا إلى النُّفوسِ تُشيرُ
ثم طافَتْ عِنايَةُ اللهِ بالفُلْـكِ فزالتْ عمَّن تُقِلُّ الشُّرُورُ

***

مَلَكَتْ دفّةَ النَّجاة يَدُ اللّـهِ فَسُبْحانَ مَن إليه المَصِيرُ !
أَمرَ البَحْرَ فاسْتكانَ وأَمْسَى　　منه ذاكَ العُبابُ وهو حَصِيرُ
أيها البَحْرُ لا تَغُرَّنْكَ حَوْلٌ　　واتِّساعٌ وأنتَ خَلْقٌ كبير
إنما أنت قَطْرَةٌ من إناءٍ　　ليْسَ يَدْرى مَداهُ إلاَّ القَديرِ

٤٢ — مُحمدُ فريد

وِلدَ المرحومُ مُحَمَّدُ فريدٍ بمدينة القاهرةِ فى شهر رمضان من سنة ١٢٨٤ للهجرة النبوية ، يناير سنه ١٨٦٧ م . وبيْتُه من أكبرِ بيُوتِ مِصْرَ وأمْجَدِها ؛ فقد كان والدُه — فريدٌ باشا — ذَا ثروةٍ واسعةٍ وجاهٍ عظيم . تَعَلَّمَ محمد بمدارسِ القاهرةِ حتى نالَ إجازةَ الحُقوقِ فى مايو سنة ١٨٨٧ م ، وانتظمَ فى سلكِ مُوَظَّفِى الدائرةِ السَّنِيَّة ، ثُمَّ انتقل إلى النيابةِ العُمُومِيَّة . ومنها إلى نيابةِ الاستئنافِ .



وكانَ من أقْوى دُعَاةِ النَّهضَةِ الوَطَنِيَّة الآخِذين بِيَدِ الوطنيين مِنَ الكُتَّابِ ، وأصْحَابِ الصُّحُف ، والمُشَجِّعين على الحرِّيَّة ... لها ، فاستقال من مَنْصِبه ، واشتغل بالمُحَامَاة زمناً . ثم تَرَكَ كلَّ عَمَلٍ له ؛ ليفْرُغَ لِخِدْمَةِ أُمَّتِه من الناحيةِ السياسيةِ ، فكان خَيْرَ مِعْوانٍ لصَدِيقه الْحَميمِ مصطفى كامل باشا ، وقد صَحِبَه فى كثيرِ

من رحْلاَتِه إلى أوربا ، وشَارَكَهُ فى خِدْمةِ مصر والدّعوةِ لِحُريتها .

واخْتِيرَ لِرِيَاسة الْحِزْبِ الوطنى فى سنة ١٩٠٨ م فَوَقَفَ مالَهُ ونَفْسَهُ على خِدمةِ وَطَنهِ والعمل لاستِقْلاَله ، ولقِىَ فى سبيلِ ذلك من الاضطهادِ الشىءَ الكثيرَ، فلم تَهِنْ له قُوّةٌ ولم يَفْتُر عَزْمٌ . ومضى إلى أوربا دَاعِياً لمصر، خادِماً مُخْلصاً لأهْلِها ، عاملاً جُهْدَه على رفع كلمتها . ومكثَ غريباً عن وطنه مُدَّةً تَحَمَّل فى أثنائها من المشاقِّ مَا تنُوء به الجبالُ ، وظَلَّ مجاهداً مِنْ خِيرةِ المجاهدين ، حتى لَقِىَ رَبَّه ببِرْلين — عاصمةِ ألمانيا — فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٩ م ، ثم نُقِلت جُثَّتُه إلى مِصْر ، ودُفِنَتْ قُرْبَ مسجدِ السيدةِ نفيسةَ . وقد قال المرحومُ حافظُ إبراهيم فى رِثَائِه قَبْلَ نَقْلِ جُثَّته إلى مِصْرَ :

يَا غَرِيبَ الدَّارِ وَالْقَبْرِ وَيَا سَلْوةَ النّيلِ إذا ما الْخَطْب جدّْ
وحُسَاماً فَلَّ حَدَّيْهِ الرَّدى وشِهاباً ضاء وَهْناً وخَمَد
قُلْ لِصَبِّ النِّيلِ — إنْ لاَقيْته فى جوَارِ الدَّائم الفرْدِ الصَّمَد :
« إنَّ مِصراً لا تنى عن قصْدِها رَغْمَ ما تَلْقَى وإنْ طالَ الأمَد
بشّر [illegible] البُشْرَى إلى أولِ البانِين فى هذَا البَلَد
فاسْتَرِحْ [illegible] غِبطة قد بذَرْتَ الحَبَّ والشعبُ حصَد

آثَرَ النيـــلَ على أمْوَالهِ   وقُواهُ وهَـوَاهُ والبَـــلَد
يَطْلبُ الخيرَ لمصرٍ وَهْوَ فى   شِقْوَةٍ أحْلى من العيش الرّغَد
فقدت مِصرُ فَرِيداً وَهى فى   مَوْطِنٍ يُعْوِزهاَ فيـه المَدَد
فقدتْ مِصرُ فَرِيداً وَهْى فى   لهوةِ المَيدانِ والموتُ رَصَد
فَقَدَتْ منه خبِـيرًا حُوّلاً   وهى والأيامُ فى أخذ وَرَدّ
لم يكد يُمْتِعُها الدَّهـــرُ به   فى رُبوع النيل حيًّا لم يَكَد
ليته عاشَ قَلِيـــلاً فترى   شَعْبَ مصرٍ عَيْنُه كيف اتّحد



٤٣ — البخلاء[١]

من رؤساء أهل البخل محمد بن الجهم وهو الذى قال : « وددت لو أن عشرة من الفقهاء ، وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الأدباء — تواطئوا على ذمى ، واستهلوا بذكر شحى حتى ينشر ذلك عنهم فى الآفاق ، فلا يمتد إلىّ أمل آمل ، ولا ينبسط نحوى رجاء راج . »

ومنهم مروان بن أبى حفصة . نزل به ضيف ، فأخلى له المنزل وهرب عنه مخافة أن يلزمه قراه تلك الليلة ، فخرج الضيف ، فاشترى ما يحتاج إليه ثم رجع وكتب إليه :

يأيها الخارج من بيته　　　وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له　　　فارجع تكن ضيفاً على الضيف

وقال جرير فى البخلاء :

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم　　　واستوثقوا من رِتاج الباب والدار

وقال اخر :

تراهم خشية الأضياف خرساً　　　يصلون الصلاة بلا أذان

(١) تركت هذه القطعة دون شكل . انظر المقدمة

٤٤ — حضارة العرب فى الأندلس

لما فتح العربُ الأندلسَ ساسُوا أهلها سياسةً رشيدةً ، بُنيتْ على التسامحِ والعدلِ ، وقامتْ على المساواةِ والإذْعانِ للحق ، وترفَّعَتْ نفوسُهم عن الدنايَا ، وعَفَّتْ أيديهم عن أموالِ المغلوبين .

ولم يمضِ إلا زمنٌ يسيرٌ حتى تبين أثَرُ العدلِ فى حضارةِ البلادِ ورُقِيِّها ، وأخذ العربُ فى تخطيط المُدنِ ، وتشييدِ القُصُورِ ، وحفر التُّرع ، وإقامة الْجُسور ، وبناء القناطر ، وشق الْخُلُج ، وتهيئةِ الأرضِ للزراعة ، وتعبيدِ الطُّرُقِ . واستيرادِ كثيرٍ من الأشجارِ والنباتِ من مصر والشام والعراقِ ، وجلبوا إليها من الشرقِ كلَّ ما فيه من صناعاتٍ ، وأقبل الأندلسيون عليها فأجادوها أيما إجادةٍ ، وأصبحت مدنهم الكبيرةُ غاصّة بالعددِ العظيمِ من الصُّنَّاع ، وجَمَعت قرطبةُ الشيء الكثير من مُخْتَلِف المصنوعات ، وأخذت ينابيعُ الثروة تتفجر فى كل ناحيةٍ من نَوَاحِي البلاد .

واهتموا بنشرِ العلومِ والفنونِ حتى نبغ كثير من العلماء فى العلوم المختلفةِ : من دينية ، ولسانية ، وطبية ، وزراعية ، وطبعية ، وفلسفية . وشملت العمارةُ جميعَ نواحيها حتى كان المسافرُ فى أوديتها وأنهارها — لا يكاد ينقطع نظره عن القصورِ الضخمةِ ، والبساتين المتصلةِ التى

أَمْلَتْ على ابن خفاجة المتوفى سنة ٥٣٣ ﻫ قَوْلَهُ فى وصفها :

يأهــلَ أندلُسٍ لِلّهِ دَرُّكُمُ   مَاءٌ وظــلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جَنَّةُ الْخُلْدِ إلا فى ديارِكُمُ   ولو تَخَيَّرْتُ هذا كنت أختارُ
لا تَحْسِبُوا بعد ذا أن تَدْخلوا سَقَرا   فليس تُدْخَل بعـد الجنة النَّارُ

وكانت قرطبةُ — عاصمةُ الأندلس — زهرةَ البلادِ فى الغربِ، كما كانت بغدادُ زهرتَها فى الشرق ؛ وكانت الحواضِرُ العظيمةُ — كالقاهرةِ ودمشق وبغدادَ — تحملُ إليها ما اكتملَ من صناعاتها ، ونادر كتبها ، ومختلِفِ تُحَفِها ؛ لبيعها فى أسواقِها التى تكتظ بالأموالِ فى أيدى النساء والرجال .

لذا كانت حضارةُ القوم تأخذُ بطَرَفٍ من حضاراتِ هذه البلادِ كلها .

وكان بالأندلس أيامَ العرب أَرْبَعُ جامعاتٍ للطب بقُرْطُبَةَ وإِشْبِيلِيَةَ ومُرْسِيَةَ وطُلَيْطِلَةَ ، ومئاتٌ من المدارس والمعاهد قد اكتظت بالطلبة من جهاتٍ مختلفةٍ .

وقد تَخَرَّجَ فى هذه المعاهد كثيرٌ من فحولِ العلماء فى كل فَنّ ؛ أمثال ابن رشدٍ فى الفلسفةِ ، وابن زهر فى الطب ، وابن فرناس فى

الرياضة ، وابن زَيْدُون وابن خَفَاجة فى الأدب ، وغير هؤلاء ممن يضيقُ المقامُ عن ذكرهم ، ولا زلنا نقرأ أسماءَ من انتسبَ منهم إلى مدينته : كالقُرطبي ، والإِشْبِيلى ، والمالَقِيّ ، والبَطَلْيَوْسِي ، والشاطبي .

وكانت جامعة قرطبة فى الغرب كمدرسة الإسكندرية فى الشرقِ إبَّانَ عَظَمتِها ، يَؤُمُّها الطلابُ من كل فج ، حتى من بلاد الرومانِ واليونانِ .

ويعترف المنصفون من مُؤَرخِي الإفرنج بما كان لِحَضَارةِ العَربِ من أثَرٍ فى مدنيَّة أوربا الحديثةِ .



٤٥ ـ وصْفُ الطائرةِ

للمرحـــومِ أحمدِ شـــوقى بك

جَلَّ شأن اللهِ هَادِى خَلْقِهِ   بِهُدَى العِلْمِ وَنُورِ العُلَمَاء
زَفَّ من آياتِهِ الكُبْرَى لنَاَ   طِلْبَةً طَاَل بها عَهْدُ الرَّجاء
مَرْكَبٌ لَوْ سَلَفَ الدَّهرُ به   كان إِحْدى مُعْجزاتِ القدماء
رائعٌ ـ مُرتفِعاً أو وَاقعاً ـ   أنفسَ الشُّجعان قبْلَ الْجُبنَاء
مُسْرَجٌ فى كل حِين مُلْجَمٌ   كَامِلُ العُدَّة مَرْمُوقُ الرُّواء
حمل الفولاذَ ريشاً وجَرَى   فى عِنَانين له : نَارٍ وماء
وجناحٍ غير ذِى قَادِمَة   كجَنَاحِ النَّحل مصقولٍ سواء
وذُنَابَى ، كلُّ ريح مَسَّها   مَسَّه صاعقـةٌ من كهْرَباء
يتراءَى كوكبا ذا ذَنَبٍ   فإِذا جَدَّ فسهماً ذا مضاء
فإِذا جاز الـثُّرَيّا لِلـثرَى   جرَّ كالطاووسِ ذَيْلَ الْخُيَلاء
يملأ الآذانَ صوتاً وصَدًى   كعزيفِ الجِنِّ فى الأَرض العرَاء
أَرْسَلَتْه الأرض عنها خبراً   طنَّ فى آذانِ سُكَّانِ السماء

٤٦ — بين ثعلبين

عاقبة الظلم

زعموا أن ثعلباً كان يُسَمَّى « ظالماً » ، وكان له جُحْرٌ يأوِي إليه ، وكان مُغْتَبِطاً به . فخرجَ يوماً يبتغى ما يأكله ، ثم رجعَ فوجَدَ فى جُحْرِه حَيَّةً ، فانتظر خروجَها فلم تخرجْ ، فعلم أنها استَوطَنَتْه ، ذلك أن الحَيَّةَ لا تتخذ جُحْرًا ، بل إذا أعْجَبها جُحْر اغتصبَتْه وطرَدَت مَن به من الحيوانِ ؛ ولذا قيل : « فلان أظْلَمُ من حَيَّة » فهذا ظُلمُها .

ولما رأى « ظالمٌ » أن الحيَّةَ قد استَوطنَت جُحْره ، ولم يُمكنه السكنى مَعَها ، ذهب يطلب لنفسه مأوًى ، فانتهى به السيرُ إلى جُحْر حَسَنِ الظَّاهِر حَصِين ، فى أرض منيعةٍ ذاتِ أشجارٍ مُلْتفَّة ، وماءٍ مَعِين . فأعجبه وسأل عنه ، فقالوا : « هذا الْجحر يملكه ثعلب اسمه « مُفَوِّض » ، وإنه وَرِثه عن أبيه . »

فناداه « ظالم » ، فخرج إليه ، ورحَّب به ، وأدخله إلى جُحْره . وسأله عن حالِه ، فقصَّ عليه خبرَه مع الحَيَّة . فرقَّ به « مُفَوِّض » ، وقال له : « الموتُ فى طلب الثأر ، خيرٌ من الحياة فى العار . والرأيُ عندى أن تنطَلِقَ مَعِى إلى مأواكَ الذى أُخِذَ منك غَصْباً حتى أنظرَ إليه : فلعلِّى أهْتَدِى إلى مكيدةٍ تُخَلِّص بها مأواكَ . »

فانطلقا معاً إلى ذلك الْجُحْر ، فتأمَّله « مُفَوِّض » وقال « لظالم » : « إذهب معى فبِت الليلةَ عِندى ؛ لأنظرَ ليلتِى هذه فيما يَسْنَح من الرأى والمكيدة . » ففعلا ذلك ، وبات « مُفوِّض » مُفكِّرًا ، وجعل « ظالمٌ » يتأمّل مسكنَ « مُفوِّض » ، فرأى من سَقْفه ، وطِيب هوائه ، وحَصانَته — ما اشتد به حِرْصُه عليه ، وطفِق يُدَبِّر حيلَة اغتصابه ، ونَفْى « مفوض » عنه .

فلما أصبحا قال « مُفوِّض لظالم » : « إنى رأيت ذلك الْجُحرَ بعيداً من الشجر والماء ، فاصرفْ نَفْسَك عنه ، وهَلُمَّ أُعِينك على احتفارِ جحْرٍ فى هذا المكان المشتهى . » فقال « ظالم » : « هذا غيرُ مُمكن ؛ لأن لى نَفْسًا تَهلِك لبعد الوَطَنِ حنيناً . » فلما سَمِع « مُفوِّض » مقالةَ « ظالمٍ » ، وما يتظاهَرُ به من الرغبةِ فى وَطنِه ، قال له : « إنى أرى أن نذهَبَ يوْمَنا ، فنَحْتَطِب حَطَبًا ونَرْبِط منه حُزْمتين ، فإذا جاء الليل انطلقنا إلى بعضِ هذه الخيامِ فأخذنا قبَس نار ، واحتملنا الْحَطَبَ والقبَس إلى مَسكَنِك ، فنجعلُ الْحُزْمَتَين فى بابه ، ونُضْرم النارَ . فإن خرجت الحيَّة احْترقَت ، وإن لزِمَت الْجُحر قتلها الدُّخَان . » فقال له ظالم : « هذا نِعم الرأىُ . »

فذهبا واحتطبا حُزمتين . ولما جاء الليلُ انطلق « مُفوِّض » إلى

ظاهِر تلك الخيامِ فأخذ قَبساً ، فعَمَد « ظالمٌ » إلى إحدى الْحُزْمتين فأزالها إلى موضعٍ غيَّبها فيه ، ثم جرَّ الأُخرى إلى باب مسكَن « مُفوِّض » ، ثم دخل وسدَّ الباب بالحطب سَدًّا محكماً ، وقدَّرَ فى نفسه أن « مُفوِّضاً » إذا أتى الْجُحر لم يمكنْه الدخولُ إليه لحصانته ، فإذا يئس منه ذهب فنَظَرَ لنفسه مأوًى . وكان « ظالم » قد رأى فى منزل « مُفوِّض » طعاماً ادَّخره لنفسه ، فعوَّل « ظالمٌ » على أن يقتات به — إن حاصَره « مُفوِّض » وهو من داخِل الْجُحر — وأذهله الشَّرَه والحرصُ عن فسادِ هذا الرأىِ .

ثم إن « مُفوِّضاً » جاء بالقَبَس ، فلم يجد « ظالماً » ، ولا وَجد الْحطَب ، فظن أن « ظالماً » قد حَمَل الْحُزْمتين تخفيفاً عنه ، وأنه سبقه إلى مَسكنِهِ الذى فيه الحَيَّةُ إشفاقاً عليه ، فشَقَّ ذلك عليه ، وظهرَ له من الرأى أن يبادرَ إليه ويَلْحقَه ؛ ليَحْمِلَ معه الحطبَ . فوضع القَبَس بالقربِ من الْحطَبِ ، ولم يَشْعرْ أن البابَ مسدودٌ به لشدة الظُّلْمَة . فما بَعُدَ عن الباب إلا وضَوْء النارِ وشدةُ الدخانِ قد لَحِقا به ، فعاد وتأمَّل البابَ . فرأى الحطبَ قد صارَ نارًا ، فعلِم مكيدةَ « ظالم » ، ورآه احترقَ فى داخِل الْجُحْرِ ، وحاق به مَكْرُه . فقال : « هذا الباحِثُ عن حَتْفِه بِظِلْفِه » .

ثم إنه صبَر حتى انطفأت النارُ . فدخل الْجُحْرَ ، فأخرج جُثَّةَ « ظالم » فألقاها ، واستوطن جُحْرَ

٤٧ ــ الدَّوْلَةُ العلويةُ بمصر

لما قامت الدولةُ العَبَّاسيةُ بالعِرَاقِ فى سنة ١٣٢ هـ ، كانَ أَبناءُ عمِّهم من ولَدِ على بن أبى طالب يَرَوْنَ أنهم أوْلَى بإقامةِ المُلك وأجدرُ بالخلافة . فتَفَرَّقوا فى أنحاء البلادِ الإسْلاَمِيَّةِ ، وأَسَّسُوا دولاً عَلَوِيَّةً كان من أوْسَعِها مُلْكاً ، وأرفَعِها شأناً ، وأعْظَمِها حَضَارَةً — الدولة الفاطميةُ بمصر ؛ فقد وَلِيت الأمْرَ بمصر من سنة ٣٦١ إلى ٥٦٧ هـ ، وكانت تُسَامِى الدولةَ العبَّاسِيَّةَ ببغداد ، وامتدَّ نفوذُها إلى حدودِ العراقِ ، وإليها يُشيرُ الشريفُ الرَّضِيّ العَلَوِىُّ وهو مُقيمٌ ببغدادَ — بقوله :

ما مُقَامِى عَلَى الهوَانِ وعِنْدِى ... مِقْوَلٌ قاطعٌ وأنْفٌ حَمِىُّ
أَحْمِلُ الضَّيمَ فى بلادِ الأعَادِى ... وبمصرَ الخليفةُ العَلَوِىُّ
من أبُوه أَبِى ومَوْلاَهُ مَوْلا ... ى إذا ضامَنِى البعيد القَصِىُّ
لَفَّ عِرْقِى بِعِرْقِهِ سيِّدا النا ... س جميعاً مُحَمَّدٌ وَعَلِىُّ

قال صاحب كتاب الفخرى فى شرح بدء هذه الدَّوْلَةِ :

« وَّلُ خُلَفائِها المهدىُّ بالله وكانَ من رجالِ بنى هاشمٍ فى عَصْرِه قيلَ : وُلِدَ ببغداد سنة ستين ومائتين ، ثم وَصلَ إلى مصرَ فى زىّ

التجارِ وأظهرَ أمْرَه بالمغربِ ، ودعَا النَّاس إلى نفسه ، فمالوا إليه وتَبِعَه خَلْقٌ كثير ، وسلَّموا عليه بالْخِلافة ، وقويت شَوْكَتُه ، وَعَظُمَ حَالُه . »

« ثم انْفَصَل إلى أرض القَيْرَوانِ ، وَبَنَى مَدِينةً . سَمَّاهَا (المَهْدِيَّةَ) ، واسْتَقَرَّ بها ، ومَلَكَ إفريقيةَ وبلادَ الْمَغْرب ، وتلك النواحِي جَميعاً ، ثم ملكَ الإسكندرية ، وجَبَى خَرَاجَها وخَراجَ بعضِ الصَّعِيدِ . وتُوُفِّيَ سنة اثْنَتَين وعِشْرِين وثَلَثمائة . »

« ثم ولِيَ الخلافَةَ بَنُوه بَعْده واحداً بَعْدَ واحِدٍ ، حتى انتهت النَّوْبَة إلى العَاضد آخِرِ خُلَفَائِهم . »

« بويع العاضِدُ فى سنة خَمْس وخمسين وخمسمائة — وهو طفلٌ ، فَقَام بأمْرِ دولته الأمراء والوزراء ، وأدى الاختلاف بين الوزراء إلى أن حضر من الشام أسدُ الدين شيركوهُ ، وصلاحُ الدين يوسفُ بن أيوبَ فى جيش عظيم من قبل نور الدين ملك الشام . وسار صلاحُ الدين مع عمه أسَدِ الدين شيركوه كارهاً ، فلم تطُل مدةُ أسدِ الدين شيركوه حتى مات ، فاستولى صلاحُ الدين على المملكة . واستوزَرَهُ العاضدُ ، وخَلع عليه الوِزَارَة فى سنة أرْبَع وستين وخمسمائة ، ولكن صلاح الدين تمكَّن من الدَّوْلَة ، وتفَرَّد بالحكم . »

« ومَرِضَ العاضِدُ ، وتطاولت أمراضه ، ثم مات سنة سَبْع وستين وخمسمائة ، واضطرب الناس فيمن يدْعَى لَهُ بالخلافةِ على المَنَابِر . »

« فلما كان يَوْمُ الجمعة صَعِد رَجُلٌ أعْجَمِيّ إلى المِنْـبَر ، وخطَب ، وذكر الخليفة المستضيء ، فلم ينْـكِرْ عليه أحدٌ . واستَمرَّت الحال فى مصر بالخُطبةِ للعباسيين ، وانقرضَتْ دولةُ الفَاطِميِّين منها ، واستَقَلَّ صلاحُ الدِّين يوسفُ بن أيوب بملكِ مصرَ من غير منازِع . »



٤٨ – العفو عند المقدرة

كان معاويةُ يُعرَفُ بالحلم ، وله فيه أخبارٌ مشهورةٌ ، وآثارٌ مذكورةٌ ، وكان يقولُ : « إنى لآنَف أن يكون فى الأرض جَهْلٌ لاَ يَسَعُهُ عَفْوِى ، وحَاجَةٌ لا يَسَعُها جُودى . »

حُكِى عنه أنه لما وَلِىَ الخلافةَ ، وانتظمت له الأمورُ ، استحضر ليلةً خواصَّ أصْحَابه ، وذاكرَهم وقائعَ أيامِ صِفِّين ، ومَنْ كَانَ يَتوَلَّى الكَيْدَ له ، فآل حَدِيثهُم إلى ذِكْر سيدة من أهل الكُوفة تسمى الزَّرْقاء بنتَ عَدِىّ ، كانت تَتعَمَّدُ الوقوفَ بين الصُّفُوفِ ، وترْفَع صَوْتَها صارخةً : « يا أصحابَ علِىٍّ ! » تُسْمِعهم كلاماً كالصَّوارِم ، مستَحِثَّةً لهُم بِقَول لَوْ سَمِعه الجُبانُ لقَاتَل ، والمُدْبرُ لأقْبَل ، والمُسَالِمُ لحارَب ، والفارُّ لَكَرَّ ، والمُتزَلْزِل لاسْتَقَرَّ .

فقال لهم معاويةُ : « أيُّكم يَحْفَظُ كلامَها ؟ » فقالوا : « كُلنَا نَحفَظُه . » قال : « فما تُشيرون عَلَىَّ فيها ؟ » قالوا : « نشِير بِقَتْلها ؛ فإنها أهْلٌ لذلك . » فقال : « بئسما أشَرْتم به ! وقُبْحًا لما قُلْتُم ! أيَحْسُن أن يَشْتهِرَ عنى أنى — بعد ما ظَفِرْتُ وقَدَرتُ — قتلت امرأةً قد وفَتْ لأميرها ؟ إنى إذاً لَئيمٌ ، لا ، واللهِ لا فَعلتُ ذلك أبداً . »

ثم دعا بِكاتبه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة : « أن أنفِذ إليَّ الزرقاءَ بنتَ عَدِيّ ، مع نفَرٍ من عَشِيرتها ، وفُرْسَانٍ من قَوْمِها ، ومَهِّدْ لها وِطاءً لَيِّناً ، ومَرْكَباً ذلولا . » فلما وردَ على الوالى الكتابُ بعث إليها ، وقرأه عليها ، فقالت — بعدَ قراءته — : « ما أنا بزائغةٍ عن الطاعةِ . » فحملها فى هَوْدَجٍ ، وجعل غشاءهُ خَزًّا مُبَطَّنا ، ثم أحْسنَ صُحْبَتَها .

فلما قَدِمت على معاويةَ قال لها : « مرحَباً وأهْلاً ! خير مَقْدَمٍ قَدِمَه وافدٌ ، كيف حالُك يا خالةُ ؟ وكيف رأيتِ سَيْرَك ؟ » قالت : « خيرَ مَسِير . » قال : « هل تَعْلَمِين لِمَ بَعَثْتُ إليك ؟ » قالت : « لا يَعْلَمَ الغيبَ إلا اللهُ سبحانه وتعالى . » قال : « ألستِ الرَّاكبةَ الجمل الأحمر يَوْمَ صِفِّين ، وأنت بَيْن الصُّفُوف تُوقِدين نارَ الحرب ، وتُحَرِّضين على القِتال ؟ » قالت : « بَلى » قال : « فما حَمَلكِ على ذلك ؟ » قالت يا أميرَ المؤمنين : « إنه قد ماتَ الرأسُ ، وبُتِر الذَّنَبْ ، والدَّهْر ذو غِيَر ، ومن تَفَكّر أبْصرَ ، والأمْر يحدث بعده الأمْرُ . » قال : « صدقت ، فهل تعرفين كلامَك ، وتحفظين ما قُلت ؟ » قالت : [illegible] لقد سَمِعْتُك تقولين : « أيها الناس : [illegible] إن الكواكِبَ لا تُضِيء

مع القمَرِ ، وإن البغلَ لا يَسْبِق الفرَسَ ، ولا يُقْطع الْحديدُ إلا بالْحديد . ألاَ من استَرْشَدنا أرْشَدْناه ، ومن سألَنا أخْبَرنَاه . إن الحق كَانَ يطلب ضالّةً فأصابَها ، فصبرًا يا معشَر المهاجرين والأنصار ! فكأنكم وقد التأم شَمْل الشّتَات ، وظَهرَت كَلِمةُ العدل ، وغلب الحقُّ باطلَه ، فإنه لا يستوى الْمُحِقُّ والمُبْطل ، أفمن كان مؤمِناً كمن كان فَاسِقاً ؟ لا يستوون ، فالنزالَ النزالَ ، والصبرَ الصبرَ . ألا وإن خضاب النّساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء . والصبرُ خير الأمور عاقبةً ، ائتوا الحرب غير ناكصين ، فهذا يَوْمٌ له ما بعده . »

« يا زرقاء ! أليس هذا قولك وتحريضك ؟ »

قالت : « لقد كانَ ذلك . » قال : « لقد شاركت عليًّا في كلِّ دَمٍ سفكه .

فقالت : « أحسن الله بِشَارتَك يا أمير المؤمنين ! وأدامَ سَلامَتك ! مثلك من يُبَشر بخير ، ويَسُر جَلِيسَه . » فقال معاويةُ : « أو قَدْ سَرّكَ ذَلك ؟ » قالت : « نَعم . والله لقد سرنى قولُكَ . فأنَّى بتحقيقه ؟ »

فقال لها معاويةُ : « والله لَوَفاؤكم لهُ بعد موته أعْجَبُ إلَيَّ من حُبّكم لَه في حياته . فاذكرى حَوائجَك تُقْض . » فقالت :

« يا أميرَ المؤمنين ! إنى آليتُ على نفسى ألا أسألَ أحداً بعد عَلِيٍّ حاجةً . » فقال : « لقد أشارَ علىَّ بعضُ من عرفك بقتلك . » فقالت : « لؤم من المُشِير ، ولو أطعْتَه لشارَكته . » فقال : « كلاّ ، بل لَنَعْفُوَنَّ عنـك ، ونُحسِنَنَّ إليك ، ونَرْعَينَّك . » فقالت : « يا أمير المؤمنين ! كرَمٌ منك ، ومِثْلك من قدر فعَفَا ، وتجاوز عَمَّن أساء ، وأعْطى من غير مَسْألةٍ . » فأعطاها كسْوةً ودراهمَ ، وأقطعَها ضَيْعةً تُغِلّ لها كُلَّ سنة عَشَرَةَ آلافِ درهم ، وأعادها إلى وطنها سَالمةً ، وكتب إلى والِى الكوفة بالوَصِيَّة بها وبِعَشِيرَتِها .



٤٩ — عـدد سكان مصر[١]

فى العصور المختلفة

روى لنا التاريخ أخباراً عن عدد المصريين فى بعض عصور الفراعنة والبطالسة والعصر الإسلامى . وهذه روايات قائمة على الحدس يستدل ببعضها على عدد السكان بمقدار الخراج ، أو الجيش ، أو ما تنتجه البلاد من الغلات .

وكان التعداد شائعاً عند المصريين القدماء لإحصاء ثروة الأسرة المالكة ، والكهنة ورجال الدين خاصة ، ولمسح الأرض عامة .

وكانوا يؤرخون بسنوات التعداد ، ولم ينته إلينا إحصاء السكان فى عصر من عصور الفراعنة ؛ ولكن بعض الباحثين يقدرهم حوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد بين ستة ملايين وثمانية .

وقد زار ديودور الصِّقِلِّىّ مصر بين سنتى ٦٠ ، ٥٧ ق . م ، وقدر أهلها بتسعة ملايين ، وروى المؤرخ اليهودى يوسيفوس — الذى عاش فى منتصف القرن الأول بعد الميلاد — أن سكان مصر فى عصره زهاء ٧,٨٠٠,٠٠٠

(١) من مقالة للدكتور محمد عوض فى كتاب سكان هذا الكوكب . وقد كتبت هذه بدون تشكيل

وهذه تقديرات يرضاها العقل ، وليست كما زعم بعض المؤرخين أن سكان مصر القدماء كانوا ثمانية وعشرين مليونا أو أربعين .

وأما فى العهد الإسلامى فقد روى أن الوليد بن رفاعة — أحد الولاة فى القرن الثانى الهجرى — طوّف فى أرجاء مصر تسعة أشهر ومعه الكتاب والحساب .

فأحصى القرى عشرة آلاف ، لا يقل مؤدو الجزية فى كل قرية عن خمسمائة . ومعنى هذا أن البالغين من غير المسلمين كانوا زُهاء خمسة ملايين . والمسلمون كانوا أقلَّ . فيمكن تقدير السكان جميعاً بين أربعة عشر وثمانية عشر ١٠٠

والظاهر أن العصور الإسلامية الأولى كانت عصور رخاء ، وأن عدد المصريين فيها قد بلغ عشرة ملايين أو زاد .

ولا ريب أن سكان مصر بعد القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) قد نقصوا كثيراً ؛ إذ تحولت عنها طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وزالت دولتها المستقلة ، وخضعت للدولة العثمانية .

وفى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) قدّر جومارد — أحدُ علماء الحملة الفرنسية — سكان مصر بمليونين ونصف مليون . وفى عهد محمد على سنة ١٨٢١ م دلَّ الإحصاء على

أن السكان مليونان ونصف مليون أيضاً ، ولكن إحصاء سنة ١٨٤٦ م جعلهم أربعة ملايين ونصفا ، وفى آخر عهد « إسماعيل باشا » كان المصريُّون زُهاء ستة ملايين .

وقد أُحصى سكان مصر ستّ مرات من سنة ١٨٨٢ م إلى سنة ١٩٣٤م فكانوا فى الإحصاء الأول ٦٠٠ ، ٨٢٩ ، ٦ وفى الأخير ٠٠٠ ، ٦٢٦ ، ١٥ فهم فى نُمُوّ مطرد ، ويرجى لهم الزيادة السريعة إذا قُدّر لهم عيش رغد ، وتوافرتْ لهم أسباب الصحة .



٥٠ – من أساطير العرب

لا يضيع جميل أينما وضع

حَكَى القاضِى يَحْيَى بنُ أَكْثَم قَالَ :

« دخلتُ يوماً على هرون الرشيد وهو مُطرِق مُفَكر ، فقالَ : « أتعرِفُ قائلَ هذا البيتِ يا يَحْيَى » :

الخير أبقى وإن طالَ الزمانُ به   والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ مِن زادِ »

فقال يا أميرَ المؤمنين : « إن لهذا البيت لقصةً عجيبةً يَرويها الرواةُ »

فقال : « أخبرنى عن هذه القصَّة . » قال : « يا أميرَ المؤمنين ! يزعمون أن أعرابيًّا قال : « كنت فى بعض السنين قاصداً مكة فى قافلةٍ عظيمة ، فلما توسطتُ الباديةَ فى يوم شديدِ الحر ، سَمِعت ضجَّةً عظيمةً فى القافلةِ ، ألحقت أوّلها بآخرها ، فسألت عن سبب الضّجة ، فأجابنى رجلٌ من القوم : « تقدَّم ترَمَا بالناسِ . فتقدمت إلى أولِ القافلةِ ، فإذا أنا بشجاعٍ أسودَ فاغرٍ فاهُ كالجِذع ، وهو يَخُور كما يَخورُ الثَّوْر ، ويَرْغو كرُغاء البعير . فهالنى أمره ، وبقيتُ لا أهتدى إلى ما أُصنع به ، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرَى ، فعارضنا ثانية . »

« فعلمتُ أنه لسببٍ ، ولم يَجْسُر أحدٌ من القوم أن يَقْرَبَه فقلت :

« افدِى هذا العالم بنفسى ، وأَتقَرَّب إلى الله بخلاص هذه القافلةِ من هذا . » وأخذْت قِرْبَةً من الماء فتقلدتُها ، وسَلَلت سَيْفى ، وتقدمتُ ، فلما رآنِى قَربتُ منه سَكَنَ ، وبَقيتُ متوقعاً منه وثبةً يبتلعنى فيها ، فلما رأى القِربةَ فَتح فاهُ ، فجعلت فَمَ القربة فى فيهِ ، وصببت الماء كما يُصَبّ فى الإناء ، فلما فرغت القربةُ تَسَيَّبَ فى الرمل ومضى ، فعجبتُ من تعرضه لنَا وانصرافه عنا من غير سُوءٍ لِحقنا منه ، ومضينا لقصدنا . »

« ثم عُدنا فى طريقنا ذلك ، وحَططنا فى منزلتنا تلك ، فى ليلة مظلمةٍ مُدْلهِمَّة ، فأخذت شيئاً من الماء ، وعَدَلتُ إلى ناحيةٍ من الطريق فقضَيتُ حاجَتِى ، ثم جلستُ بعيداً عن القومِ أذكر الله تعالى ، فأخذتنى عَيْنى فَنِمت مَكانى ، فلما استيقظتُ لم أَجِدْ للقافلةِ حِسًّا ، وقد ارتحلتْ ، ومكثتُ مُنْفرِداً لم أرَ أحداً ، ولم أهتدِ إلى ما أفعله ، وأخذتنى حَيْرة ، وجعلتُ أضْطرب ، وإذا بهاتفٍ — أسمعُ صوْتَه ، ولا أرى شخصه — يقول :

يأيها الرجلُ المُضِلُ مَرْكَبُه   ما عِنده من ذِى رَشَدٍ يَصْحبهْ
دُونك هذا البَكر مِنا تَركبه   وبكرُكَ الميمونُ حقّاً تَجْنُبُهُ
حتى إذا ما اللَّيلُ زالَ غَيْهبُهْ   عندَ الصباحِ فى الفلا تسَيَّبهُ

« فنظرت فإذا أنا بِبَكر قائِمٍ عندى ، وبكرى إلى جانبى ، فأنَخْتهُ وركبته ، وجَنَبْتُ بَكْرِى . فلما سرتُ قدر عشرةِ أميال لاحتْ لى القافلةُ ، وانفجر الفجر ، ووقَف البكر . فعلمت أنه قد حانَ نزُولى ، فتحولتُ إلى بكرى ، وقلت :

يأيها البكرُ قد أنجيتَ من كُرَبٍ ومن هموم تُضِل المُدْلِجَ الهادِى
ألَا تُخَبّرُنى بالله خالِقنـــا مَن ذا الّذى جاء بالمعروف فى الوادى
وارجِع حَميداً فقد أوليتنا مِنناً بُورِكت مِن ذِى سَنَام رائحٍ غادى

فالتفتَ البكرُ إلىَّ وهو يقول :

« أنا الشجاعُ الذى ألفيتَنى رَمِضاً والله يَكشف ضُرَّ الحائِر الصادى
فجُدتَ بالماء لما ضَنَّ حامِلُه تكرماً منك لم تَسْمح بإنكادى
فالخير أبقى وإن طالَ الزّمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد
هذا جزاؤكَ منى لا أضِنُّ به فاذهبْ حميداً رَعاك الخالق الهادى »

فعجب الرشيدُ ، وأمرَ بالقصّةِ والأبياتِ فكتبتْ ، وقال : « لا يضيع جميلٌ أينما وضع . »

٥١ — أعجوبة الأهرام

قالَ القَاضِى فَخْرُ الدّين عَبْدُ الوَهَّابِ المصرىُّ من شعراء القَرْن الثامِن الهجرى :

أَمَبَانِىَ الأهرامِ كَم مِنْ واعظٍ ... صَدعَ القلوبَ ولم يَفُهْ بلسانِهِ
أَذْكرتنى قولاً تقادمَ عَهْدُهُ ... أَينَ الّذى الهرَمانِ من بنيانِهِ
هَلْ عابدٌ . قد خَصَّهَا بعبادةٍ ... فكأنما الأهرامُ مِنْ أوثانِهِ ؟
أو قَائلٌ يَقْضِى برَجْعَة نَفْسِه ... مِنْ بَعْدِ فُرْقَتِها إلى جُثْمانِهِ
فاختارها لكُنُوزِه ولجسمِهِ ... قبراً ليأمَنَ مِن أَذى طُوفانِهِ ؟
أَو أَنَّهـا للسائراتِ مراصِدٌ ... يختارُ راصدُها أَعَزَّ مكانِهِ ؟
أَو أَنَّهم نَقَشوا على حِيطانِها ... عِلْماً يحَارُ الفِكْرُ فى تِبيانِهِ ؟
لو أَنَّ كسرى جالِسٌ فى سَفْحِها ... لأجَلَّ مَجْلِسَهُ على إِيوانِهِ
بَقِيَتْ عَلَى حَرِّ الزّمانِ وَبَرْده ... مُدَداً ولم تأسَفْ على حِدْثانِهِ

يسجل القاضى فخر الدين ما كان يجول فى خواطر الناس قديماً عن الأهرام من حيرة فى سبب بنائها والغرض الذى من أجله أقيمت .

وقد أزال الكشف الحديث شيئاً من هذه الحيرة وبين أنها بنيت لتكون مقابر لكبار الملوك وقد جمعت كثيراً من المآثر والمفاخر ، وأن نقوشها كتابات تقرأ وتترجم . على أن المتقدمين لمسوا الحقيقة وإن لم يبتوا بها .

٥٢ — باب الناسك والضيف

قال الفيلسوف :

« زَعموا أنه كان بأرضِ الكرخ ناسكٌ عابدٌ مجتهد ، فنزل به ضيفٌ ذات يوم ، فدعا الناسكُ لضيفه بتمر ليُطْرِفَه به ، فأكلا منه جميعاً . ثم قال الضيفُ : « ما أحلَى هذا التمْرَ وأطيبَهُ ! فليس هو في بلادِي التي أسكُنُها ، وليتَه كان فيها ! » ثم قال : « أرى أن تساعِدَني على أن آخذَ منه ما أغرِسه في أرْضنا ؛ فإني لستُ عارفاً بثمار أرضِكم هذه ولا بمواضِعها . » فقال له الناسك : « ليس لك في ذلك راحةٌ ؛ فإن ذلك يَثْقُل عليك ، ولعل ذلك لا يوافقُ أرْضَكم ، مع أن بلادَكم كثيرةُ الأثمارِ ، فما حاجتُها مع كثرةِ ثِمارها إلى التمْرِ مع وَخامَتِهِ ، وقلّةِ موافقته للجسد ؟ » ثم قال له الناسك : « إنه لا يُعَدُّ حكيماً من طلَبَ ما لا يجدُ ، وإنك سعيدُ الجَدِّ إذا قَنِعت بالذى تَجدُ ، وزهِدت فيما لا تَجِدُ . »

وكان هذا الناسكُ يتكلم بالعبرانية ، فاستحسنَ الضيفُ كلامَه وأعجبه ، فتكلف أن يتعلَّمَه ، وعالج في ذلك نفسَه أيّاماً . فقال الناسك لضيفه : « ما أخلقَكَ أن تقع مما تركت من كلامك ، وتكلَّفتَ من

كلام العِبرانية ، فى مثل ما وقَع فيه الغرابُ ! » قال الضيف : « وكيف كان ذلك ؟ »

قال الناسكُ : « زَعموا أن غُراباً رَأى حَجَلةً تدرُج وتَمشِى ، فأعجبَه مِشْيَتها ، وطَمِع أن يَتعلَّمها ، فراض على ذلك نَفْسَه ، فلم يَقْدِر على إحكامها . وأيس منها ، وأرادَ أن يعود إلى مِشيته التى كان عليها ، فإذا هو قد اختلَط وتخلّع فى مِشْيته ، وصار أقبحَ الطير مَشْياً . »

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رَأَيتُ من أنك تركتَ لسانك الذى طُبعت عليه ، وأقبلتَ على لسان العبرانية وهو لا يشاكِلُك ، وأخاف ألاّ تُدْرِكَه ، وتنسى لسانَك ، وتَرْجع إلى أهلك وأنت شرُّهم لساناً . فإنه قد قيل : « إنه يُعد جاهِلاً من تَكَلَّف من الأمور ما لا يشاكِله ، وليس من عمله ، ولم يؤدبْه عليه آباؤه وأجداده من قبلُ . »

٥٣ — البـــازِى

البازى من جَوارِح الطير ، قليلُ الصَّبْرِ على العَطش ، لا يَتَّخذ وَكْرًا إلا فى شجرةٍ لها شَوك . وإذا أراد أن يُفْرِخَ بنى لنفسه بيتاً يَقِيه من المَطر، ويَمْنَع عَنْهُ وَهَجَ الحَرِّ . وهو خفيفُ الجَناحِ ، سَرِيعُ الطَّيَرَان ، يَلْتَفُّ فى طيرانِه كالتِفَافِ الخَوافِتِ ، ويَسْهُل عليه أن يَزُجَّ بنفسه صاعِداً وَهَابطاً ، وَيَتَقلَّبَ على ظهره حتى يَلْقَفَ فَريستَه . والإناثُ منه أجرأ على عِظَام الطَّير من الذُّكورِ .

وقد اتخذه الأمراء من أدوات الصيد ؛ يعلَّم ، ويروَّض ، ثم يرسل وراء الطير فيَقْتَنِصه . ومن عاداته أنه إذا أخطأ صيدَه ، وفَاتَه ، وكان فى بَرِّيَّة لا شجَر فيها ، وَلَّى مُمْعِناً حتى يجد كهْفاً أو جِدَاراً يأوِى إليه ؛ ولهذا عُلِّق فى رقبته جرسٌ ليَدُلَّ على مكانه إذا خَفِيَ .

وصِفةُ الجيِّد منه المحمودِ فى فعله : أن يكون قليلَ الريش ، أحمَرَ العينين ، حادَّهما ، طويلَ العنق ، عريضَ الصدر ، بعيدَ ما بين المَنْكِبَين متفرِّق الأصابِع ، عارِيَ الأشَاجِع . وأفخرُ ألوانِه الأبيضُ ثم الأشهَبُ .

وقد أكثر الشعراء فى وصفه ، فمن ذلك قَوْلُ كُشاَجِم :

يَسْمُو فيَخْفَى فى الهواء ويَنْـكَفِى   عَجِلا فَيَنْقَضُّ انقضاضَ الطارِقِ
وكأن جُؤْجُؤَهُ وريش جَنَاحِه   خُضِبا بِنَقْش يَدِ الفتاة العاَتِق
وكأنما سكن الهَوَى أعْضاَءه   فأَعَارَهُن نحولَ جِسْمِ العاَشِق
ذا مُقْلةٍ ذَهَبيَّة فى هَامَـــةٍ   مَحْفُوفَةٍ من رِيشِها بِحَدَائِق
ومخالبٍ مثـلِ الأهِلَّةِ طَالَما   أدْمَين كَفَّ البَازِيَارِ الحْاذِقِ
وإذا انْبَرى نحو الطَّرِيدة خِلْتَه   كالرِّيح فى الأسْماع أو كالبَارِق
وإذا دعاه البـازيارُ رَأيْتَه   أدْنى وأطوعَ من مُحِبٍّ وامِق
وإذا القَطاةُ تَحَلَّقَتْ مِن خوفه   لم يَعْدُ أن يَهْوى بها فى حالق

وقول ابن المعتزّ :

وفتيانٍ غدَوْا والليـــلُ داجٍ   وضوءُ الصبحِ مُتَّهَمُ الطلوعِ
كأن بزاتهـــم أمراء جيشٍ   على أكتافها صدأ الدروعِ

٥٤ — مَعْنُ بن زائدة وأبو جعفرٍ المنصور

قال مرْوان بن أبي حفصة :

« كان المنصورُ قد طلب معن بن زائدة طلباً شديداً ، وجعل فيه مالاً . فحدَّثني معنٌ أنه اضطرُّ لشدةِ الطلب إلى أن أقامَ في الشمس حتى لوَّحتْ وجْهَه . وخَفَّفَتْ عارِضَيْه ولِحيته ، ولبس جُبَّةَ صوف غليظةً ، وركب جَملاً ليَمْضِيَ به إلى البادية فيُقيم فيها . وكان قد أبْلى في حرب يزيدَ بنِ هُبَيرةَ بلاءً حسناً غاظ المنصورَ وحمله على الجْدِّ في طلبه . »

قال معنٌ : « فلما خرجتُ من باب حرب ، تبعني أسودُ مُتقلداً سيْفاً ، حتى إذا غبتُ عن الحرس ، قبضَ عَلَى خِطام جملي فأناخه ، وقبضَ عَلَيَّ ، فقلتُ : مَالَكَ ؟ »

قال : « أنت طَلِبةُ أميرِ المؤمنين . » قلتُ : « ومن أنا حتى يطلُبَني أميرُ المؤمنين . » قال : « معنُ بن زائدة . » قلت : « يا هذا ! اتقِ الله ، وأينَ أنا من معن ؟ » قال : « دَعْ هذا عنك ؛ فأنا واللهِ أعرَفُ بك منك . » فقلت له : « فإن كانت القصَّة كما تقول ، فهذا جَوْهَرٌ حملتُه معي يفي بأضعافِ ما بذله المنصورُ لمن جاءه بِي ، فَخُذْه ولا تَسْفِكْ دمي . » قال : « هاتِه . »

« فأخرجتُه إليه ، فنظر إليه ساعةً وقال : « صدقتَ فى قيمتهِ ، ولستُ قابلَهُ حتى أسألك عن شىءٍ ، فإن صدقتَنى أطلقْتُك . » فقلتُ : « قُل . » قال : « إن الناسَ قد وصفوك بالجود ، فأَخْبِرْنى : هل وهبتَ قطُّ مالَكَ كلَّه ؟ » قلتُ : « لا . » قال : « فنصفَه ؟ » قلتُ : « لا . » قال : « فثلثه ؟ » قلت : « لا . » حتى بلغَ العُشر ؛ فاستحيت فقلتُ : « أظنّ أنى قد فعلتُ هذا . » فقال : « ما أراكَ فعلتَه . أنا واللهِ راجلٌ ، ورزقى من أبى جعفر عشرون دِرْهَما ، وهذا الجوهرُ قيمتُه آلافُ الدنانير ، وقد وهبتُه لك ، ووهبتُك لنفسك ولجودكَ المأثور عنك بين الناس ، ولتَعْلم أن فى الدنيا أجودَ منك ؛ فلا تُعجبك نَفْسُك . ولتَحْقِر بعد هذا كلّ شىءٍ تَفْعله ، ولا تَتوقّف عن مَكْرُمة . »

« ثم رَمى بالعِقد فى حِجرى ، وخَلى خِطام البعير ، وانصرف . فقلت : « يا هذا ! قد — واللهِ — فضحتنى ، ولَسفكُ دمى أهْوَنُ علىّ مما فعلتَ ! فخذ ما دفعتُه إليك ؛ فإنى فى غنًى عنه . » فضَحِك ، وقال : « أردتَ أن تُكَذِّبَنى فى مَقامى هذا ، والله لا آخذه . ولا آخذ بمعروف ثَمناً أبداً . » ومضى . فوالله لقد صبتُه بعد أن أَمِنْتُه ، وبذلت لمن جاءنى به ما شاء ؛ فما عرفت له خبر . [illegible] قد ابتلعتْهُ . »

« وما زال معنٌ مستترًا حتى كان يومُ الهاشمية ، فلما وثبَ القومُ على المنصورِ ، وكادوا يقتلونه ، وثبَ معنٌ وهو مُتَلثِّم ، فانتضَى سَيْفَه ، وقاتَل وذَبَّ القوْمَ عنه . »

« ثم تقدم والمنصورُ راكبٌ بغلةً ، ولجامُها بيد الرَّبيع ، فقال له : « تنَحَّ ؛ فإني أحقُّ باللجام منك فى هذا الوقت ، وأعظم فيه غَناء . » فقال له المنصورُ : « صدقَ ، ادفعه إليه . » فأخذه ولم يزل يقاتِل حتى انكشفتْ هذه الحالُ . فقال له المنصورُ : « من أنت . لِلهِ أبوك ؟ » قال : « طَلِبتُك يا أمير المؤمنين : معنُ بن زائدة . » قال : « قد أمَّنك اللهُ على نَفْسِك ومالك . ومثلُك يُصْطَنع . »

« ثم أخذه معه ، وخَلَعَ عليه ، وحَباه وزيَّنه ، ثم دعا به يوماً فقال له : « إني قد أمَّلتك لأمرٍ فكيف تكونُ فيه ؟ » قال : « كما يُحِبّ أميرُ المؤمنين . » قال : « قد ولَّيْتُك اليمنَ ، فابسُط السيفَ فيهم ؛ حتى يُنْقَضَ حِلْف ربيعةَ واليمن ، وابلغْ من ذلك ما يُحب أمير المؤمنين . » فولاه اليمنَ ، وتوجَّه إليها ، فبسط السيف فيهم حتى أسْرَف . »

قال مروانُ :

وقَدِم معنٌ بعد هذا فدخَل على المنصورِ فقال بعدَ كلام طويل :

« قد بلغَ أميرَ المؤمنين عنك شيءٌ لولا مكانُك عنده ، ورأيُه فيك — لغَضِبَ عليك . » قال : « وما ذاكَ يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « إعطاؤكَ مروانَ بنَ أبي حفصة ألفَ دينار لقولِهِ فيك :

معنُ بن زائدة الذى زِيدت به ... شرفًا على شرفٍ بنو شيبانِ
إن عُدّ أيّامُ الفَعالِ فإنّما ... يَوْماه يوْمُ ندًى ويومُ طِعانِ »

فقال : « واللّٰه يا أميرَ المؤمنين ، ما أعطيتُه ما بلغك لهذا الشعر ، وإنما أعطيتُه لقوله :

ما زِلتَ يومَ الهاشميّةِ مُعْلِنًا ... بالسَّيْفِ دون خليفةِ الرَّحْمنِ
فمنعتَ حَوْزَتَه وكنت وِقاءَه ... من وَقْعِ كلّ مُهنَّد وسِنان . »

« فاستحيا المنصورُ وقال : « أأعطيتَه ما أعطيتَه لهذا القولِ ؟ »
قال : « نعَمْ يا أمير المؤمنين ! واللّٰه لولا مخافةُ الشُّنْعة لأمكنتُه من مفاتيح بيوتِ الأموالِ ، وأبحتُه إيّاها . »

فقال له المنصورُ : « لِلّٰه درُّكَ من أعرابيّ . ما أهونَ عليك ما يَعزُّ على الرِّجالِ وأهلِ الْحَزْمِ . »

٥٥ — الساعة

للمرحوم إسماعيل صبرى :

كم ساعةٍ آلمنى مسُّها   وأزعجتنى يدُها القاسيه
فتّشتُ فيها جاهداً لم أجد   هُنَيْهَةً واحدةً صافيه
وكم سقتْنى المُرَّ أختٌ لها   فرُحتُ أشكوها إلى التّاليه
فأسامتنى هذه عَنْوةً   لساعةٍ أُخرَى وبى مابيَه
وَيْحَكَ يامسكينُ! هل تشتكى   جارحة الظُّفر إلى ضاريه ؟

*
* *

حاذرْ من السّاعات وَيلٌ لمنْ   يأمن تلك الفئة الطاغيه
وإن تجدْ من بينها ساعةً   جُعبتُها من غصَصٍ خاليه
فالْهُ بها لَهْوَ الحكيم الذى   لم يُنسِه حاضرُه ماضيه
وامرَح كما يمرح ذو نَشْوةٍ   فى قُلّةٍ من نخبها الحاويه
فهى وإن بشّت وإن داعبت   قتّالةٌ ختّالةٌ عاديه

*
* *

هذا هو الحقّ فقُل للّذى   تجرحه الساعة والثانيه
يا شاكيَ الساعات أَقْصِرْ عسى   تُنجيك منها السّاعة الآتيه

٥٦ — عثمان بن أبي العَلاء

الرجل الذى غزا الأَسبان ٧٣٢ غزوة

لم يبق للمسلمين فى الأندَلُسِ إلا مملكةُ غَرْناطة — هذه البقعةُ الصغيرةُ القريبةُ من البحر. وقد ألح العدوُّ عليها، وصَمّمَ على محوها، واستماتَ المسلمون فى الدفاع عنها؛ إذ كانت الملجأ الأخيرَ، والْوَزَر الذى ليس وراءه إلا الموتُ أو الاستعبادُ.

وكان بنو مَرِين — ملوكُ المغرب — يرسلون جيوشهم مَدَداً لبنى الأحمر ملوكِ غَرْناطة، وربما سارُوا بأنفسهم ليجاهدوا فى جانبِ إخوانهم وجيرانهم. وكان أُولو النجدةِ والقوّة يَفدون على الأندلسِ مجاهدين مرابطين؛ غَضبًا لدينهم، وحَمِيَّة لإخوانهم.

جاء إلى الأندلس عثمانُ بن أبي العلاء، أحدُ أمراء بنى مَرِين، فتولّى «مشيخة الغُزاة»، وحَسُنَ بلاؤه. وعَظُمَتْ مكانته. فكان شَجا فى حلوق الأسبان، ولم يكن عثمانُ ملكا، ولكنه كان من نفسه الكبيرة فى جيشٍ، ومن كبريائه فى سلطانٍ.

تولى زَعامة الغزاة ثلاثاً وعشرين سنةً فى وَسَنَ عَزْمُه، ولا فَلَّ حَدُّه، ولا أَغْمَد سَيْفَه، ولا حَطَّ سَرْجَه.

وما كان إلا النارَ فى كُلّ مَوْضِعٍ تُثير غبارًا فى مكانِ دخان

والنفس الكبيرةُ تستهين بالصّعاب، وتَطرُق على المنايا الأبواب. وما الجيوشُ الجرّارةُ، والحروبُ المستَعِرة — فى هِمَّة الرَّجُلِ العظيم إذا صَمَّم؟

فأثْبتَ فى مُستنْقَعِ الموتِ رِجلَه ... وقال لها: من تحتِ أَخْمَصِك الْحَشْرُ

حسبي من الإفاضةِ فى وصفِ عثمان، والإشادة بذكره أن أنقُلَ هنا بعض ما كتبه أصحابه الغزاةُ على قبره:

« هذا قبر شيخ الْحماةِ، وصدرِ الأبطال والكُماةِ، واحدِ الجلالة، ليث الإقدامِ والبسالة، علمِ الأعلامِ، حامِى ذمارِ الإسلام، صاحبِ الكتائبِ المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازى المسطورة، وإمامِ الصفوفِ، القائم ببابِ الجنة تحتَ ظلالِ السيوف، سيفِ الجهاد، وقاصِمِ الأعادِ، وأسَدِ الآسادِ، العالى الهمَمِ، الثابتِ القدم، الهُمَامِ الماجد الأرضَى، البطلِ الباسلِ الأمْضى، المقدسِ المرحومِ أبِى سعيد، عثمانَ بن الشيخ الجليلِ الهُمامِ، الكبيرِ الأصيلِ الشهير، المقدّسِ المرحومِ أبى العلاء إدريسَ بن عبد الله بن عبد الحقّ. وكان عمرهُ ثمانياً وثمانين ســـنة. أنفقه ما بينَ رَوْحَةٍ فى سبيل الله وغدْوةٍ. حتى استوفَى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غَزوةً.

توفى رحمه الله يومَ الأحد الثانِى لذى الحجة من ســنةِ ثلاثين وسبعمائة. رحمه الله!

٥٧ — الزلازل

أحصى الخبيرون جميع الزلازل التى حدثت فى مدى خمسين سنة ، وسجلت آلات المراصِد أن مائة وثلاثين ألفاً من الحوادثِ الزِّلزالية الأرضية قد تَمَخَّضَتْ عنها هذه السنون الخمسون . وكان منها العنيف ومنها الخفيف . وقد شاء الله ، وأسعف الحَظُّ أن تكون مصر فى مأمن من الزلازل : لا تَتَمثَّل فيها هذه الحوادث إلا قليلاً .

والبلاد التى تنتابها الزلازل بكثرة ، وتُرَوِّع أهلَها الهزَّات الأرضية هى : إيطاليا ، واليابان ، واليونان ، وبعض بلاد أمريكا الجنوبية والشمالية ، وجاوةُ ، وصِقِلِّيَةُ ، وبعض بقاع آسيا الصغرى . وتندر الزلازل فى إفريقية ، وأُستراليا ، وروسيا ، والسويد ، والنرويج .

وتحدث الزلازل حيث تكون طبقات الأرض مائلة متشققة ، تتاخم الجبال العالية الحديثة التكوين ؛ مثل جبال « هملايا » . وجبال « الألب » . وقد ذهب الباحثون إلى أن الأرض تحت تلك الجبال لم تستقر حتى الآن استقراراً كافياً .

وتحدث كل الزلازل تقريباً من شدة الضغط على قواعد الجبال ، حيث تكثر فى طبقات الأرض نسفى الشقوق والتجويف . وإذا

انشقت طبقة كبيرة من الصخور — بحكم ذلك الضغط — ارتجفت الأرض حولها ارتجافاً عظيماً ، ودل ذلك الارتجاف على أن تلك الطبقة من الصخر آخذة فى الاستقرار ؛ تنفيذاً لقانون التوازن الأرضى .

وقد يَزْلَق جانب كبير من الأرض ثم يستقر فى واد أو بحر ، فترتجف الأرض لذلك ارتجافاً .

وإن تقلص باطن الأرض يتبعه تشقق قشرتها وخَسْفُ بعضها . وإلى ذلك يعزون تكوين الوِديان ، ونتوء الجبال ، وحدوث الأخاديد ومجارى البحار .

وتحدث الزلازل أيضاً من انفجار البراكين ، ومحاولة الغازات الباطنية الأرضية الخروج من مكانها ؛ فراراً من الانحباس إلى الانطلاق .

وتكثر الزلازل حينما يكون القمر هلالاً وبدراً ؛ لأن لجذبه فعلا شديداً وقتئذ . كما تحدث حينما يشتد ضغط الهواء أو يقل عن المعتاد .

وكانت ضحايا الزلازل من الأنفس نحو أربعة عشر أَلف أَلف منذ الوقت الذى شرع الناس فيه يسجلون حوادث تلك الزلازل ، ويحصون أخطارها .

ومن الزلازل التى كانت شديدة الخطر زلزال « مَسِّينَة » ، الذى وقع فى إيطاليا سنة ١٩٠٨ م ، وقال فيه المرحوم حافظ إبراهيم ، يرثى مدينة

ما «لمسِّينَ» عوجلت فى صباها ودعاها من الردى داعيان
ومحت تلكم المحاسنَ منها حين تمت آياتها آيتان
خُسَفتْ ثم أُغرقت ثم بادت قُضِىَ الأمر كله فى ثوانى
وأتى أمرها فأضحت كأن لم تك بالأمس زينة البلدان

*
* *

بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقداً عليها فتنشقّ انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رَجْما وقَذفا بشُواظٍ من مارِجٍ ودخان
وتسوق البحارُ ردًّا عليها جيش موج نائى الجناحين دانى

*
* *

فهنا الموتُ أسودُ اللون جَوْنٌ وهنا الموت أحمر اللون قانى
جَنَّدَ الماء والثرى لهلاك الـ خلق ثم استعان بالنيران
ودعا السحبَ عاتياً فأمدتـــه بجيش من الصواعق ثانى
فاستحال النَّجاء واستحكم اليأ س وخارت عزائم الشجعان
وشفى الموت غِلَّهُ من نفوس لا تُبالِيه فى مجال طعان

٥٨ — الخَيْزُران ومُزْنَة بنت مروان بن محمد

(مثل من أمثلة المروءة)

رُوِىَ عن أبى موسى محمد بن الفضلِ بن يعقوبَ كاتبِ عيسى ابنِ جعفر ، قال :

« حدَّثنِى أبى قال : كنتُ أتردد إلى زينبَ بنتِ سليمانَ بنِ علىٍّ بن عبد الله بن عباس وأخدُمُها ، فتوجهتُ إلى خِدمتها يوماً فقالت : « اُقعُد حتى أُحَدِّثك حديثاً كان بالأمسِ يُكْتَبُ على الآماق : كنت بالأمس عند الخيزران (زوج المهدى) ، ومن عادتِى أن أجْلس بإزائها ، وفى الصَّدر مجلسٌ للمهدى يجلس فيه ، وهو يَقصِدُنا فى كل وقت فيجلس قليلاً ثم ينهضُ . فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جاريةٌ من جواريها فقالت : « أعزَّ الله السيدة ! بالباب امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وخِلْقةٍ حسنة ، وليس وراء ما هى عليه من سوء الحال غايةٌ — تستأذن عليك ، وقد سألناها عن اسمها فامتنعتْ من أن تخبرنا » . فالتفتتْ إلىَّ الخيزرانُ وقالت : « ما ترَيْنَ ؟ » فقلتُ :

[illegible]

[illegible] ، فوقفت

بجانب عِضَادةِ البابِ ، ثم سَلَّمتْ مُتَضَائلةً ثم قالت : « أنا مزنةُ بنتُ مروانَ بن محمد الأموى . » فقالت الخيزرانُ : « لا حيَّاكِ اللهُ ولا قرَّبكِ ! فالحمدُ للهِ الذى أزال نعمتَك ، وهتَك سِتْرَكِ ، وأذَلَّكِ ، أتذكُرِين — يا عدوةَ اللهِ — حينَ أتاكِ عجائزُ أهلِ بيتى يسألنكِ أن تكلمى صاحبَكِ فى الإذنِ فى دفن إبراهيم بن محمد ، فوثبْتِ عليهن ، وأسمعتِهن ما لا سَمِعن قبل ، وأمرتِ فأُخرجْن على تلك الحالةِ ؟ »

« فضحِكتْ مزنةُ ، فما أنسى حُسنَ ثغْرِها ، وعُلوَّ صوتِها بالقهقهةِ ، ثم قالت : « يا بِنْتَ العم ! أىُّ شىءٍ أعجبكِ من حُسْنِ صنيع اللهِ بِى على العقوقِ حتى أردتِ أن تتأسَّىْ بى فيه ؟ واللهِ إنى فعلت بنسائك ما فعلت ، فأسلمنى اللهُ لكِ ذليلةً جائعةً عُرْيانةً ، أوَكانَ ذلك الذى فعلتِ بى مقدار شكركِ للهِ تعالى على ما أولاكِ بى ؟ » [illegible] قالت : « السلامُ [illegible] . » وَوَلَّت مسرعة . [illegible] بها الخيزرانُ فرجعت . »

« قالت زينب : « فنهضت إليها الخيزران تعانقها . فقالت : [illegible] فى لذلك موضعٌ مع الحال التى [illegible] . [illegible] . وامرت جماعة من جواريها بالدخول معها [illegible] . فدخلت . و[illegible] ماشطة تصُب [illegible] على وجهها [illegible]

والطيبُ ، فأخذتْ من الثياب ما أرادتْ ، ثم تطيبت ، ثم خرجت إلينا ، فعانقتها الخيزرانُ ، وأجلستها فى الموضعِ الذى يجلس فيه أميرُ المؤمنين المهدى . »

« ثم قالت لها الخيزرانُ : « مَنْ وراءك ممن تعتنين به ؟ » قالت : « ما خارجَ هذه الدار مَنْ بينى وبينه نسبٌ . » فقالت : « إذا كان الأمر هكذا فقُومى حتى تختارى لنفسك مقصورةً من مقاصيرِنا ، وتُحَوِّلى لها جميع ما تحتاجين إليه ، ثم لا نَفْتَرِقُ إلى الموت . »

« فقامت ودارت بها فى المقاصير ، فاختارت أوسَعها وأنْزَهها ، ولم تَبْرَحْ حتى حولت إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكسوة . »

« قالت زينب : « ثم تركنَاها وخرجنا عنها ، فقالت الخيزران : « إن هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه . وقد مسَّها الضرُّ ، وقد يَغْسِن منهُ بما فى يديها . فاحملوا إليها خَمْسَمِائة ألفِ درهم . » فحُمِلَت إليها . »

« وفى أثناء ذلك وافَى المهدى ، فسأَلَ عن الخبر ، فحدثتهُ الخيزرانُ حديثَها وما لَقِيَتْ به . فوثب مُغْضَباً ، وقال للخيزرانِ : « أهذا مقدارُ شكرِكِ الله على أَنْعُمِه — وقد أمْكنك من هذه المرأةِ مع

الحالةِ التي هي عليهـــا ؟ ! فوالله لولا مَحَلُّك بقلبي لحلفت ألا أكلّمك أبداً . »

فقالت الخيزرانُ : « يا أمير المؤمنين ! قد اعتذرتُ إليها ، ورضيتْ ، وفعلتُ معها كذا وكذا . » فلما علم المهديُّ ذلك قال لخادم كان معه : « احمل إليها مائة بَدْرة ، وادخُل إليها ، وأبلغها مني السلام ، وقل لها : والله ما سُرِرت في عُمْرِي كسُروري اليومَ ، وقد وجبَ على أمير المؤمنين إكرامُك . ولولا احتشامُك لحضَر إليْك مُسلِّماً عليك ، وقاضِياً لحقك . »

« فمضى الخادمُ بالمالِ والرسالة ، فأقبلت مزنة على الفور فسلمت على المهدي بالخلافة ، وشكرت صُنْعَه ، وبالغت في الثناء على الخيزران عنده ، وقالت : « ما على أمير المؤمنين حِشْمَة ، أنا من عدد حَرَمه . » ثم قامت إلى منزلها معززة مكرمة ، تَتَصرَّفُ في المنازل وتجوزي كتصرف الخيزران »



٥٩ — الشعور بالواجب

يختلفُ الواجبُ باختلافِ الناسِ ؛ فواجبُ الغَنِيّ غيرُ واجبِ الفقيرِ ، وواجبُ النابِهِ غيرُ واجبِ الخاملِ ، وواجبُ القاضى غيرُ واجبِ المعلم ، وواجبُ الصانعِ غيرُ واجبِ الْجُنْدِيّ ، وواجبُ الزارعِ غير واجباتِ أولئك جميعاً . غير أن قيمةَ الواجبِ فى ذاته واحدةٌ ، ومن أجل ذلك كان مَنْ أدَّى واجبه المفروضَ على مثله مُستَحقّاً لأجزلِ الشكر ، وأطيبِ الثناء ، ولن يُقَلّلَ من شأنِه أن يكونَ الواجبُ الذى أداه صغيراً بالقياسِ إلى شتَّى الواجباتِ التى ينهضُ بها غيرُه ؛ فليست العبرةُ بقدرِ هذا الواجبِ فى صِغره وكِبره ، وإنما العبرةُ بتأدية كُلّ فرد واجبَه ، سواء أكان صغيراً أم كبيراً ؛ لذلك كان أداء الواجب أمراً محتوماً على كُلّ فرد مهما يكن شأنه ، ومهما تكن حاله .

[illegible] صورة [illegible] الواجبِ هى أن يؤديَه الفردُ طواعيةً واختياراً ، غيرَ محفوزٍ بمآربَ شخصيةٍ يبغى [illegible] الواجبِ ؛ فإنَّ آفةَ المجتمع [illegible] أخلاق [illegible] فرادِه فى تأديةِ الواجباتِ لذاتها على وجوهها الصحيحةِ ، [illegible] لا حَصْرَ لأدواتِه ، ولا منتهى لِعتَادِه .

[illegible] الموقتة حتى يعملَ عتادُه وأدواتُه العملَ

المفروضَ عليهما ؛ فإذا تعطَّلَ فى الدُّولابِ شىء ، وتوالَى التعطلُ يوماً بعد يوم لا يلبثُ أن تقف حركتُه ويَبْطُلَ عمله .

وما أدوات المجتمع وعتادهُ إلاَّ واجباتُ أفرادِهِ المتشعبةُ بتشعب أحوالهم وأسبابِ معايشهم ؛ فإذا سَرَتْ فى الأفرادِ عدوى التقصير فى أداءِ الواجبِ ، فقد سرت فى المجتمع ساريةُ الفساد ، وآذنت شمس حياتهِ بمغيب لا عَوْدَ معه .

ولا ريب أن أولَ واجبٍ على النشء هو محبتُهم لوالديهم ، وسماعُ نصحهم وإرشادهم ، وتوقيرُهم واحترامُهم ، والبرُّ بهم ، وأن يطيعُوهم طاعةً اختيارية عن عقل وإدراك ؛ حتى تكون أعمالُهم داعيةً إلى رضا والديهم ، ومبعثاً لسرورهم .

ويلى الواجبَ للوالدين فى المكانة وعظمِ الشأن : الواجبُ للمعلمين ؛ فهم الذينَ يتولوْن تربيةَ النشء بعد تربيةِ الأسرةِ ، وبيدهم سعادتُه ، وبين أيديهم مستقبلُ حياته ، وهم القائمون على تهذيبِ النفوسِ ، وتصفيتِها من النَّزَعاتِ السيئة ، وإمدادِ العقول بالعلوم النافعة ، والتجارِبِ المثمرةِ ، وتقويمِ الأخلاقِ ، وتوجيهها إلى مدارج الكمال ؛ ولذلك كانَ من الواجب الذى يَجْلِب النَّفْعَ العظيمَ شعورُ النشء بأَقْدارِ معلميهم وسُمُوِّ مكانتهم ، حتى يتسنى لهم الاستفادةُ منهم . والاقتداء بمحاسن

خِصالهم ، ومَرْضِيِّ شمائلهم فى الْجِدِّ والدَّأْبِ والاستقامةِ ، وأداءِ الأعمالِ فى أوقاتِهـا .

وعلى النشء ألا يَتَعَضُوا من معلميهم إذا رأوْا قسوةً منهم قَصْدَ إصلاحهم ، فهى فى حقيقة أمرها قسوةُ الرءوفِ بهم ، الحريصِ على مصلحتهم ، الساهرِ على مستقبلهم .

ومن الواجبات ذاتِ الشأن الكبير البالغ الأثر : الواجبُ للمدرسة ؛ فهى التى تتعهدُ النفوسَ والعقولَ منذُ نشأتها ، وتُمِدُّها بالعلوم والمعارِف ، وتغرس فيها الأخلاقَ الفاضلةَ . فيخرج منها النابغون الذين يرفعون أوطانَهم ، ويَخدُمون الإنسانية عامة ، فالواجب احترامُ قوانين المدرسة ، وإجلالُ نظمها طوعاً لا كرهاً ، ورغبةً لا رهبة ، لتسودها المودةُ وتظلِّلَها المحبةُ والوئامُ .

ولْيَعلم النشءُ أن هذه القوانينَ والنظمَ هى خلاصةُ تجاربَ لأُناسٍ كانوا تلاميذ مثلهم ، خَبَروا الحياةَ خِبرةً شاملةً ، فهدتهم خبرتُهم إلى أن هذه النظمَ والقوانين خيرُ سبيل إلى إعدادِ التلاميذ إعداداً يكفُل لهم الفلاحَ ويجعلهم خيرَ حُماةٍ لأوطانهم ، يرفعون شأنها ، ويُبَلِّغُونها

ومن الواجبات التى لها كبيرُ شأن فى حياةِ النشء : واج

التلاميذ بعضهم لبعض ؛ فلا شك أن بينهم صُحْبةً علميةً توجب عليهم أن يتعاونوا على تحصيلِ العلم ، ملتقيةً أهواؤهم فى طريق الجد ، مجتمعةً رغباتُهم على التَّحلى بمحاسنِ العاداتِ والشمائلِ ، فواجب المتقدِّم أن يساعدَ المتأخرَ على الدرس ، وواجب الغنى أن يتفقدَ رقيقَ الحالِ من إخوانه ، فإن اجتماعَهم على الدرس قد أنشأ بينهم أُخُوَّةً توجب على كلٍ منهم أن يعاشِرَ أخاه بالمعروف ، فيقابله بالبشاشة واللُّطف . ويناصرَه على دفع المضرة وجلبِ المنفعة ، ولا يغتابَه ، ولا يُسلِّطَ عليه منْ يؤذيه ، ولا يَسْخَرَ مما قد يَبْدُر منه ، ولا يتعاظَمَ عليهِ ، ولا يخاطبَه بما يكرهُ ؛ بل يجعل رائدَه إدخالَ السرورِ عليه ، وغَرْسَ المحبة فى قلبه ، وتوثيق عُرَا الأخوة العلمية التى هيأتها له المدرسةُ ، فهى صِنْو أُخُوَّةِ القرابةِ فى جليل أثرها ، وعظيم نفعها . ولطالما أصبحت تلك الأُخُوَّةُ العلميةُ فى مستأنَف الأيام صحبةً عملية فى مَيدان الحياةِ فأتَتْ بأبرك الثمرات .

والواجبُ الذى لا يُغْتَفر لأحد التقصيرُ فيه هو الواجبُ الوطنىُّ . وهو بالنسبة للنشء أن يُقبلوا على دروسهم ليُكَمِّلوا أنفسهم ، ويعدُّوها لِتحمُّلِ أعباء خدمةِ الوطن فى المستقبلِ . والاضطلاع بتبعاته ؛

فالوطن لا يعلو شأنه إلا على كواهلِ أبنائهِ ، الذين أتموا إعدادَ نفوسِهم للنهوضِ بمهامّه ، ووهبوها خالصةً لمصالحه .

ومن مظاهر تأديةِ الواجب الوطنى إكبارُ أعمالِ بنى الوطن ، والإِشادَةُ بمشروعاتهم النافعةِ ، وإيثارُ مصنوعاتهم على سواها ، وبذلك يشتركُ النشء فى تمهيدِ سبل المجد الوطنى : بتشجيع تجارته وصناعته .

ومن أظهر دلائل الواجب الوطنى : شُعور النشء بأقدارِ طبقاتِ أهلِ العملِ فى الأمةِ من زراع وصناع وتجار ومحترفين ؛ فيشعرون أنفسهم احترامَهم ، ويعتقدون أنهم دعائمُ الوطن ، وأركانُ مجده ، وأنّ رفع مستواهم يأخذ بيد الوطن إلى مستوى الأمم الراقية .

ولقد كان الشعورُ بالواجب فى مختلِفِ الأزمان آيةً من آيات الرُّقِىِّ والعظمةِ ، وقد سجَّل التاريخُ صُوَراً من هذا الشعورِ النبيلِ لينتفع بها الخَلَفُ الانتفاعَ المَرْجُوَّ .

وحسبُنَا أن نذكر نماذجَ منها ؛ ليتدبَّرَها الناشئُون الذين تَتَعلقُ بهم الامالُ .

أولا : كان خالدُ بنُ الوليد — الفاتحُ الإسلامى المشهورُ — القائدَ [illegible] فى فتح المسلمين الشام . وبينما كانت المعركة ناشبة بين المسلمين [illegible] — وهى عاصمةُ الخلافةِ وقتئذ — وفيه خَبَرُ

عزلِ خالد بن الوليد عن إمارةِ الجيش ، وتوليةِ أبِى عبيدة بن الجراح قائداً عامًّا مكانه ، فتَسلَّمَ خالدٌ الكتابَ ، وأسرّه إلى أبى عبيدةَ ، واتفقا على كتمانِ الخبر عن المسلمين ، وبقاء خالدٍ على إمارةِ الجيش خوفاً من اضطرابِ الْجُنْد ، وخَسارَةِ الموقعة ، ولما تمتْ بالنَّصر نزل خالدٌ فورًا عن منصِبه لأبِى عبيدة ، وبَايَعه على إمَارَةِ الجيش ، وأصبَحَ القائدُ السابق جنديًّا من الجنودِ ، مطيعاً لرئيسه الذى كان جُنْدِيًّا تحت إمرته ، كلُّ ذلك وهو راضِى النَّفس ، فضَرب بذلك مثلًا عالياً للحِرص على تأدية الواجب لذاته ، مع نُكرانِ الذات ، وإغفالِ المصلحةِ الشخصية ، والمجد الذاتى .

الثانى : شبَّت نار الحرب بين قبيلتين من قبائل العرب ، فأرسلت أعرابية ولديها الوحيدين ، للدفاع عن قبيلتها . فلما كان اليوم الثانى جاء رسول من محل الموقعة ، فسألته الأعرابية : « ما الذى تم ؟ » فأجاب : « قُتل ولداكِ . »

فعند ذلك أنبَتْه ، وقالت له : « تبًّا لك من جبان ! ما سألتكَ عن وَلَدَيَّ ! » فقـــال : « وقد انتصرنا . » فعند ذلك خرت ساجدة وشكرت الله على ذلك .

الثالث : أصيبت أسرة ثرية [illegible] في [illegible] ، [illegible]

المسالكُ على أفرادها ، فعجَزوا عن الخروج منه ، فشرع الناسُ يعالجون إطفاءَ النّار ، ولا يَجرُؤُ أحد على الدنوّ من البيت لإنقاذ ساكنيه ، فشعرَ أحدُ الأغنياء بواجبِ إنقاذ المعرَّضين للموت ، فتبرع بمائة جنيه لمن يُنْقذ هذه الأسرةَ البائسةَ من الحريق . فتقدم شابٌّ باسلٌ ، وخاطر بنفسه حتى أنقذَ المنكوبين ، فصفَّقَ له الناسُ إعجاباً بإقدامهِ ومروءته ، وشكرُوا له حُسْنَ صنيعه . ولمّا همّ ذلك الغَنِيُّ المحسنُ بنقد ذلك الشجاع مائةَ الجنيه . أبى الشاب أن يقبل شيئاً منها ، وقال : « كِلانا فعل الواجبَ ، أعط المائة الجنيه هؤلاء المنكوبين ؛ تخفيفاً لآلامِهم ، وعِوَضاً عن خَسارتهم فى أموالهم . » وهكذا شاعتْ خلائق هذا الشابِّ ألا يتقبَّل على الواجبِ ثمناً ؛ فلقد خَالط قلبَه من الفرح ما جعله يحتقر أىَّ ثمن يُفقِده شعورَه بتأدية الواجب لذاته .

الرابع : حل بلندن سنة ١٦٦٥ م أروعُ ما عُرف من أنواعِ الطاعونِ ؛ فقد انتشر هذا الوباء الخبيثُ انتشارًا مُرَوِّعاً ، وفشا فى جميع أنحاء المدينة ، ففتك بها فتكا ذريعاً . ولقد قام كثيرٌ من أهل البر والتقوى بأعمال جليلة لمقاومةِ هذا الوباء . وفيما يلى ترى ما كان من أمرِ إحدى القُرَى الصغيرة التى سرت إليها العدوى واسمها (إيام) فى مقاطعةِ (دَرْبشير) بإنجلترا

هذه القرية فى مكانٍ جميلٍ على مرتَفَع يَحْجُبه جبَل عال ، ومع جمالِ منظرها كانت فريسةً للأمراض ، لاحتباسِ الهواء عنها بذلك الجبلِ الشامخ .

وكان من أهمِّ أسبابِ انتشار ذلك المرضِ ازدحامُ القريةِ بالسكان الأجانبِ والأصليين ، الذين كانوا يَعملون فى مَدّ خطوطِ المواصلاتِ فى الجبلِ .

وكم كان رُعْبُ القومِ وفزَعُهم عند ما رأوا أن (خيَّاطاً) ذَهَب إلى لندن ومعه بعضُ الأمتعةِ ، ثم عادَ فظهرت عليه وعلى أهل بيته أعراضُ الطاعونِ ، وما لبِثوا أن فارقوا الحياةَ .

وما سمعت بذلك الخبر زوجة قسيس القرية حتى توسلت إلى زوجها أن يَرْحَل بها وبولديها الصغيرين إلى مكانٍ بعيدٍ ، غير أن القسيسَ أبى أن يتركَ أهلَ القرية فى ذلك الوقتِ العصيبِ . وأخذَ يُعِدُّ المُعَدَّاتِ لإرسالها مع طفليها إلى مكانٍ أَمين ، إلا أنها كفَّت عن طلبِها ، واتفقا على إبعاد الطفلين فقط .

وفى ذلك اليوم نفسه كتب القسيس إلى لندرة يطلب أنجعَ الأدوية وأنفع العقاقير . ثم أرسل كتاباً إلى إرْل أوف دِيفُونْشير يقولُ فيه : « إنه أوصى أهلَ القرية ألا يَتَعَدَّوْا حدودَها خوفاً من

انتشار الوباءِ فى البلاد المجاورةِ ، على أن يقومَ (الإرل) بإرسالِ ما تدعُو إليه الحال من مؤنٍ وأدْوِية وغير ذلك .

وقد وافق « الإرلُ » على ذلك ، وأخذ يُوفد رجالَه ، ومعهُم ما لا بُدَّ منه من الطعام والشرابِ والدواء إلى مكانٍ مُعَيَّن متفَقٍ عليه ، فيضَعُون ما معهم ويبتعدونَ ، فيأتى أهلُ (إيام) فيأخذونَها ، ويضعون ثَمنها ، حِرْصاً على عَدم انتشار الوَباء . وقد لبثوا على هذه الحالِ سبعةَ شهور كاملة لا يغادرون قريتَهم : لذلك لم تصل العَدوى إلى أىّ قريةٍ من القُرى المجاورةِ . والفضلُ فى ذلك إلى هذا القسيس الذى كافحَ ومنع الاجتماعَ بضروبه .

وقد كان هو وزوجته لا ينفكّان ليلاً ولا نهارًا عن مواساة المرضى ؛ غير أَنَّه لم يَمْض كثيرٌ من الزمن حتى اعتلت زوجته ، ونَحَل جسمُها ، وشِ.زمت اخباه .

ولقد حزِن عليها زوجُها المنكوبُ حزناً شديداً ، غير أن ما كان عليه من إيمان راسخٍ ويقينٍ ثابتٍ ، قوّاه على احتمالِ ما أَلَمَّ به . وقد أملى فؤاده الكليم ، وقلبهُ الحزين ، على قامه خطابين : أحدهما لولديه ، والثانى إلى أَسْقُفه « السير جورج ساقيل » الذى أصبح بعدئذ

« لورد هلفاكس » وفيهما آياتُ الإيمان الصادقِ ، والاغتباطِ العظيم بتأدية الواجب ، واحتمالِ ما يَصْحَبه من مشقة ونصب .

وقد عاش ذلك الرَّجلُ العظيمُ — الذى نهضَ بواجب الإنسانيةِ بما يستوجب الثناء المستطابَ ، والذكرى الجميلة — بضع سنين ، طُلِب إليه فى خلالها أن يَتولَى وظيفةً أرْقَى من وظيفته فأبى ؛ تَعففاً عن المناصبِ ، واكتفاءً بما ناله من راحة ضميرِه فى سبيل تأدية الواجب فى أحسن صوره .

فاشعروا بالواجب عليكم — أيها الناشئون المُهذبون ، واعمَلوا على تأديتهِ على الوجهِ الأكمل ، واللهُ فى عونكم .



٦٠ — جزاءِ سِنِمَّارٍ

هذا مَثلٌ عَرَبِيٌّ يُضْرَب لِسُوءِ المجازاةِ ؛ فإذا جوّد مُحْسِنٌ عَمله ، وتقدَّم بِهِ ينتظرُ عَلَيْه حُسْنَ الْمَثُوبَةِ ، فَلَقِىَ سُوءَ الْجَزاءِ ، قِيل : « جَزَاءِ سِنِمَّارٍ . »

وَيذكُر الرَّاوُون أن سِنِمَّارًا هذا كان مُهَنْدِساً بَارِعاً ، وبَنَّاءً ماهِرًا ، دعاهُ النعمان بن امرئ القيس — مَلِكُ الحيرة — لِيبْنِيَ لَهُ قَصْراً ، فأحسنَ الرَّسْمَ ، وجَوَّدَ البِناء ، وطالتْ مدةُ العَمل عِشْرِينَ عاماً ، حتى أَتَمَّهُ ، وأَعَدَّهُ أَحْسَنَ إعْدادٍ .

حَدَّدَ المَلِكُ يَوْماً للاحتفالِ بإتمام ذلك القَصْرِ ، ودَعَا الأمراءَ ورجالَ دَوْلَتِهِ ليشهدوا حَفْلَه ، وَحَانَ ميعادُ الاحتفالِ ، واجتمع الناسُ من كلِّ صوْبٍ ، وتَرَدَّدَتْ عبارَاتُ الإعجابِ بالقصرِ ، والثناء على بانيه . وأخَذَ سنمارٌ يَتِيهُ عُجْباً بِعَملِهِ ، وعَظُم أَمَلُهُ فى حُسْنِ جزائه ، وجليلِ مُكافَأتِهِ ، ولكنَّه فُوجئَ بما أَضَاعَ رُشْدَه ، وذَهَبَ بِعَقْلِه ؛ فقدْ أمرَ الملكُ بأن يُقْذَفَ به من شاهِق قَصْرِهِ . وسُرعَانَ ما نُفِّذَ أَمْرُه ، وذهَبَتْ حياةُ سِنِمَّارٍ فى يوم كان يَترقَّبُ فيه عَظِيم المكافأة

وجزيلَ العَطاءِ . وضُرِبَ به المثلُ في سوءِ الجَزَاءِ ، وردد ذلك المُتكلِّمونَ والشعراء . فقد قال شاعرٌ عربيٌّ :

جزاني — جزاهُ اللهُ — شرَّ جزائهِ   جزاءَ سِنِمَّارٍ . وما كانَ ذا ذَنْبِ
بَنَى ذلك البُنيانَ عِشْرينَ حِجَّةً   فلما بَدَا كالطَّوْدِ والبَاذِخِ الصَّعْبِ
رُمِي بِسِنِمَّارٍ على أُمِّ رأسِهِ   وذَاك — لعَمْرُ اللهِ — مِنْ أَعْظَمِ الخَطْبِ

والنفس تَتَطلَّعُ إلى مَعْرِفَةِ السَّببِ في هذا الجزاء ، ولِمَ نَكَبَ الملكُ عاملاً كان يَرْجُو حُسْنَ المَثُوبَةِ على عمل أَعْجَبَ الناسُ به وكَثُر الثناءُ عليه .

يُرْوَى أن البِنَاءَ قَامَ على سِرٍّ يَعْرِفُه سِنِمَّارٌ . والمَلِكُ يَحْرِصُ على إخفائِه ، فمن قائل : إن فيه لَبِنَةً إذا نُزِعَتْ تهدَّم القَصْرُ كُلُّه ، ومِنْ قائلٍ : إنَّ فيه باباً لمساربَ خفيةٍ يلجأ إليها الملكُ إذا اضْطُرَّ أن يَحْتَمِيَ مِنْ مَكْرُوه دُبِّرَ له . وقيل : إنما فعل النُّعمانُ ذلك لئلا يبني سنمار لغيره مثل قصره . وقيل غيرُ ذلك . وأيًّا كانَ السَّبَبُ فقد مَضى سِنِمَّارٌ بجَزَائِه ، وضُرِبَ المثلُ بِهِ .

٦١ — الوفاءُ والاعترافُ بالجميلِ

حكَى بعضُ خَدمِ أميرِ المؤمنين المأمونِ قال :

« طَلَبَنى أميرُ المؤمنين ليلة ، وقد مضى من الليل ثُلُثُه ، فقال لى : « خُذ معَك فلانًا وفلانًا وسمَّاهما ، واذهَب مُسْرِعًا لما أقولُ لك ، فإنه قد بَلَغَنى أن شَيخًا يَحضر ليلاً إلى دُورِ البرامِكَةِ ، ويُنشِد شِعْرًا ، ويذْكُرُهم ذِكرًا كثيرًا ، ويَندُبهم ، ويَبْكى عليهم ، ثم ينصرفُ . فامضِ الآنَ أنت وعلىٌّ ودينارٌ حتى تَرَوْا هـذه الخَرِباتِ ، فاستَتِرُوا فى بعضِ الْجُدْران ، فإذا رأيتم الشيخَ قد جاء وبكى ونَدَب وأنشدَ شيئًا فأْتُونى به . »

« فأخذتُهما ، ومضَينا حتى أتينا الخرِبَاتِ ، وإذا نحن بغلامٍ قد أَتَى ومعه بِساطٌ وكرْسِىٌّ جديدٌ . وإذا بشيخٍ وسيم له جَمَالٌ ، وعليه مَهابةٌ ووقارٌ ، قد أقبل فجلس على الكرْسىّ ، وجعل يَبكى وينتحب ويقولُ :

ولما رأيت السيفَ جَنْدَل جَعْفَرًا ونادى منادٍ للخليفة فى يَحيى

بَكَيْتُ على الدنيا وزاد تأسُّفِى عليهم ، وقلتُ : الآن لا تنفعُ الدنيا

مع أبياتٍ أطالَها وردَّدَها . فلما قَبَضْنا عليه وقلنا له : « أجِب أمرَ أميرِ المؤمنين . » فزِع فزعًا شديداً وقال : « دَعُونى حتى أُوصِىَ وَصِيَّةً ؛

فإنى لا أوقِنُ بعدَها بحياةٍ . » ثم تَقَدَّم إلى بعضِ الدكاكينِ ، فاستفتح وأخذ ورقةً ، وكتبَ بها وصيّةً ودفعها إلى غُلامه ، ثم سِرْنا به . »

« فلما مَثَل بين يدى أمير المؤمنين زجره ، وقال له : « من أنت؟ وبماذا استوجبت البرامكةُ منك ما تفعله فى خرائبِ دُورِهم ، وما تقوله فيهم ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ! إن للبرامكة عندى أيادىَ خطيرةً . أفتأذنُ أن أحدثك حديثى معهم ؟ » قال : « قل . » قال : « يا أميرَ المؤمنين ! أنا المنذرُ بنُ المغيرة من أولادِ الملوكِ ، وقد زَالتْ عنى نعمتى كما زالت عن الرجال ، فلما رَكِبَنى الدَّينُ ، واحتجْتُ إلى بيْع مَسْقَطِ رأسى ورءوسِ أهْلى ، أشاروا علىَّ بالخروج إلى البرامكةِ ، فخرجتُ عن دِمَشقَ ، ومعى نيِّفٌ وثلاثون امرأة وصبيًّا وصبيةً ، وليس معنا ما يُباعُ ولا ما يُوهَبُ ، حتى دخلنا بغدادَ ، ونزلنا فى بعض المساجدِ ، فدَعَوْتُ بثُوَيْبَاتٍ لى كنتُ قد أعْدَدتُها لأستَمْنِحَ بها الناسَ ، فلَبِسْتُها وخرجتُ ، وتركتُ عِيالى جياعًا لا شىء عندهم ، ودخلتُ شوارعَ بغدادَ سائلاً عن دُورِ البرامكةِ ، فإذ أنا بمسجدٍ مُزَخْرف ، وفيه مائةُ شيخ بأحسنِ زِىٍّ وزِينةٍ ، وعلى الباب خادمان ، فطمِعتُ فى القوم ، ووَلَجْتُ المسجدَ ، وجلسْتُ بين أيديهم ، وأنا أقدِّم رِجلاً وأؤخِّر أخرى ، والعرق يَسيلُ منى ؛ لأنها

لم تكن صِناعتى . وإذا بخادِم قد أقبل فدعا القَومَ فقامُوا ، وقمت أنا معهم ، فدخلوا دار يَحيي بْنِ خالد ، ودخلتُ معهم ، وإذا يحيي جالسٌ على « دَكَّةٍ » له فى وَسَطِ بُسْتَانٍ ، فَسَلَّمْنا وهو يَعُدُّنا مائة وواحداً ، وبين يديه عَشَرَةٌ من ولَدِه ، وإذا غُلامٌ أمردُ قد عَذَر خَدَّاهُ أقبلَ من بعضِ المقَاصير ، بين يَدَيْهِ مائةُ خادِمٍ مُمَنطَقُونَ ، فى وَسَطِ كلٍّ خادِمٍ مِجْمَرَةٌ من ذهبٍ ، فى كل مِجْمَرَةٍ قِطعةٌ من عُودٍ كهيئة الفهر ، قد قُرِن بها مثلها من العنبر السُلْطانى ، فوضعوها بين يدى الغلام إلى جنْبِ يحيي . ثم قال يحيي للقاضى : « تكلم وزوج بنتى من ابن عَمِّى هذا . » فخطب القاضى وزوَّجه ، وشهد أولئك الجماعةُ ، وأقبلوا علينا بالنُّثار ببنادقِ المِسك والعَنبرِ فالتَقَطْتُ — والله يا أميرَ المؤمنين — ملء كمى . ونظرت فإذا أنا والمشايخُ وولدُه والغلام مائةٌ واثنا عَشَر رجلاً ، فخرج إلينا مائة واثنا عَشَر خادمًا . مع كلٍّ خادم صينيةٌ من فِضَّةٍ عليها ألفُ دينار ، فوضعوا بين يدى كل منا صينيةً فرأيت القاضىَ والمشايخَ يَصُبُّون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانىَ تحت آباطِهم ، ويقوم الأولُ فالأول ، حتى بقيتُ وحْدى بين يدى يحيي ، لا أجسُر على أخذ الصينية ، فغمزنى الخادمُ فجسَرْت وأخذتها ، وجعلت الذهب فى كمِّى ، وأخذت الصينية فى

يدى وقمت ، وجعلت ألتفت ورائى مخافةَ أن أُمنعَ من الذّهابِ بها . »

« فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ، ويحيى يَلْحَظُنى ، إذ قال للخادم : « ائتنى بذلك الرجلِ . » فَرُدِدْت إليه ، فأمر بصبِّ الدنانير والصينية وما كان فى كمى ، ثم أمرنى بالجلوس فجلست ، فقال لى : « مِمَّنِ الرَّجلُ ؟ » فقَصَصْتُ قِصَّتِى ، فقال للخادمِ : « ائتنى بولَدِى موسى . » فأُتِىَ به ، فقال : « يا بُنَىَّ ! هذا رجل غريبٌ ، فخذه إليك ، واحْفَظْه بنَفْسِك وبِنِعمتك . » فقبض موسى على يَدى ، وأَدخلَنى إلى دار من دُورِه ، فأكرمَنى غاية الإِكرام ، وأَقمتُ عنده يومى وليلَتِى فى أَلَذِّ عَيش ، وأَتَمِّ سُرُور . »

« فلما أَصبح دعا بأخيه العباسِ وقال : « إن الوزيرَ قد أَمرنى بالعطفِ على هذا الرَّجلِ ، وقد علمتَ اشتغالى فى دار أَمير المؤمنين ، فقبِضْه إليك وأَكْرِمه . » ففعل ذلك ، وأَكرَمَنى غاية الإِكرام . فلما كان من الغَدِ تسلمنى أَخُوه . ثم لم أَزل فى يَدِ القَومِ يتداولُونَنى عشرةَ أَيام ، لا أَعرف خَبَرَ عِيَالى وصِبيانى أَفى الأمواتِ هم أَم فى الأَحياء . فلما كان اليومُ الحادِىَ عشر ، جاءنى خادمٌ ومعه جماعة من خدم ، فقالوا لى : « قم فاخرج إلى عِيالِك بسلامٍ . » فقلت : « وَاوَيلاه ! سُلِبْتُ الدنانيرَ والصينية ، وأَخرج إلى عيالى على هذه الحال ؟ إنا لله

وإنا إليه راجعون . » فرُفع السِّتْرُ الأولُ ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابعُ . فلما رَفَع الخادمُ السِّترَ الأخيرَ قال لى : « مهما يَكُنْ لك من الحوائج فارفعها إلىَّ ، فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمُر به . »

« ولما رفع السِّتر رأيت حجرةً كالشمس حُسْناً ونوراً ، واستقبلنى منها رائحة النَّد والعود ، ونفحاتُ المسك ، وإذا بصبيانى وعِيَالى يَتقلَّبُون فى الحرير والديباج ، وحُمِلَ إلىَّ ألفُ ألفِ درهم ، وعَشَرةُ آلافِ دينار ، ومنشوران بِضَيْعَتَين ، وتلك الصينيةُ التى كنتُ أخذتُها بما فِيهَا من الدَّنانيرِ والبنادقِ . »

« وأقمتُ — يا أمير المؤمنين — مع البرامكةِ فى دورهم ثلاثَ عَشْرةَ سنة لا يعلم الناسُ أَمِنَ البرامكةِ أنا أم رجُلٌ غريبٌ اصطنعونى . فلما جاءتهم البَلِيَّةُ ، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيدِ مَا نَزَلَ ، أَجْحَفَنى عَمْرُو بن مَسْعَدةَ ، وألزَمَنِى فى هاتين الضَّيْعتَين من الخراج ما لا يَفِى دَخْلُهُمَا به . فلما تحامَلَ علىَّ الدَّهْرُ كنتُ فى أواخِرِ اللَّيل أَقصِد خَرِباتِ القَوْمِ ، فأَنْدُبُهم ، وأذكر حُسْنَ صنيعهم بى ، وأشكرهم على إحسانهم .

فقال المأمون : « علىَّ بِعَمْرِو بنِ مَسْعَدة . » فلما أُتِىَ به قال له : « عَمْرُو ! تعرفُ هذا الرجلَ ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين ! هو

بعضُ صنائع البرامكة . » قال : « كم أَلْزَمتَه فى ضَيْعَتِه ؟ » قال : « كذا وكذا . » قال : « رُدَّ إليه كلَّ ما استأْدَيْتَهُ منه فى مُدته ، ووقِّعْ له بهما ، ليكونا له ولعَقِبهِ من بعده . »

« فعلا نحيبُ الرجل وبكاؤُه . فلما رأى المأمونُ كثرةَ بكائه قال : « يا هذا ! قد أَحسَنَّا إليك فلِمَ تَبْكى ؟ » قال : « يا أَمير المؤمنين وهذا أَيضاً من صنائعِ البَرَامِكَةِ ، إذ لَوْ لم آتِ خَرِبَاتِهم وأَنْدُبْهم حتى اتصلَ خَبَرى بأمير المؤمنين ، فَفَعَلَ بى مَا فَعَلَ ، فَمِنْ أَيْنَ كنتُ أَصلُ إلى أَميرِ المؤمنين ؟ »

قال إبراهيمُ بن مَيْمُون : « لقد رأيتُ المأمون ، وقد دَمَعت عيناه ، وظَهرَ عَليْهِ الحزنُ وقال : « هذا مِنْ صَنَائِعِ البرامكَةِ ، فَعلَيْهِم فابْكِ ، وإِيَّاهُمْ فاشكُرْ ، ولَهُمْ فأَوْفِ ، ولإِحسانِهم فاذكُر . »

٦٢ — اِرْتجالُ الشِّعر

في أوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الفَاطِميَّةِ بمصر، اجتمع بمجلِسِ أحد الأُمَرَاءِ جماعَةٌ من الأدباءِ والفقهاءِ، وجرى حديثُ الشِّعر، ومن يَرْتَجِلُهُ ارتجالاً، ويُرْسِلُه على البَدِيهَةِ إرْسَالاً. ورَوَوْا من ذلك أخْبارًا، وكان القاضي المهذَّبُ أبو الحسن عَلِيٌّ جالساً يُنْصِتُ إليهم، ولا يخوض معهم، فأقبل عليه الأميرُ وسألهُ ما عنده. وكان معروفاً عن القاضي أَنَّ له في ارتجالِ الشعر سجيةً مَطبوعةً، وملكةً مَذكورةً. فأجاب: «كنتُ في مبدأ عُمْري أمْلِي الشعرَ إملاءً — كالمحفوظِ — على مَن يَكْتُبُه، وربما سبَقْتُه بالإملاءِ ولا أتوقَّفُ.» فعجبَ الأميرُ من قوله عَجَباً بَدَا منه الاستبعادُ لمَا يقولهُ، فتحرَّكت حَمِيَّةُ الشيخ وأَنَفَتُه لنفسِهِ، وقال: «إن كان ذلك مَضَى فقد أبقَى اللهُ منه بَقِيَّةً. اقترِحوا شعرًا أُنْشِدْكُمْ على مِثَاله في وزْنِهِ ورَوِيِّه وموضُوعِه.» قال الأميرُ: «فأنشَدْتُهُ:

فإن يَحْجبُوها أو يَحلْ دونَ وصْلِها ... اتِّقَاءُ عَدُوٍّ أو وعيدُ أميرِ

فلَنْ يَمْنَعُوا عَيْنَيَّ من دائمِ البُكَا ... ولنْ يُظْهِروا ما قد أَجَنَّ ضميري»

فأنشَدَ القاضي مُبادِرًا كأَنَّهُ يحفَظُه:

صَبَرْتُ على جَوْرِ الزمانِ وصَرْفِهِ ... وإن كنتُ يوم البَيْنِ غيرَ صَبورِ

وإنَّ الذى يَبغِى اعتلاقاً بِوُدِّها لَمُستَمْسِكٌ منها بِحبْل غُرورِ
أرى الناسَ قد فكُّوا العُناةَ تحرُّجاً فهل لكِ يوماً فى فِكاكِ أسيرِ
ولم أَرَ فِيمَنْ أستعينُ به سِوى عَذُولٍ . فمَنْ لى فيكم بِعَذِيرِ
وما كنتُ ممن يُصْبِحُ الحبُّ قادِراً عليهِ ولكن ذاكَ فِعلُ قَدِيرِ

قال الأميرُ : « فزاد عجبى لقُوَّة ذكائِهِ ، وسُرعةِ بديهته ، وأظهرتُ فَرط استحسانى لما أتى به . » فقال . « أَنْشِدْنى غيرَ هذا لئلا تقولَ إنه محفوظ لى » فامْتنعتُ تحرُّجاً ، فأبى إلا أنْ أُنشِدَ . فأَنْشَدْتُهُ :

وما فَارَقْتُ لُبْنَى عن تَعَالٍ ولكن شِقوةٌ بلغتْ مَدَاها

فانطلق قائلا :

وَكُلُّ مُنى النفوس إلى انقطاعٍ إذا بلغت — لعمرُكَ — مُنتهاها
أُناديهـا وليس تُجيب قولى كأنى قد دعوتُ به سِواها
سأَلْقى دونهـا نَبْلَ الأعادِى وأرْمِى منهم مَنْ قد رَماها
وأَصْـبِرُ للتَّجنِّى كلَّ يومٍ وما أنا بالصَّبُور على قِلاها
سَلاها — حين مالَ القلبُ عنها ولم يَعلَق سِواها — هل سَلاها ؟
غدا الإعراضُ حَظَّ مُؤَمِّليها وأمسى اليأسُ غايةَ مَن رَجاها
أَوَدُّ ومُهجتِى فى رَاحَتَيهـا مَدَى الأيام لو جُعِلتْ فِداها

قال الأميرُ : « وحين انتهى إلى هذا رأيتُ شِدَّة تجمُّعِهِ ، وفرْطَ تحفُّزِه ، وما يعانيه فى إحضار ذِهنِه قَطَعتُهُ إشفاقاً عليه »

٦٣ — قرد وغيلم

وهو مثل من يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها

زَعَموا أن قرداً كان مَلِكَ القِرَدة ، وقد كَبِر وهَرِم ، فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة فتغلب عليه ، وأخذَ مكانه . فخرج هارباً على وجهه حتى انتهى إلى الساحلِ ، فوجد شجرةَ تينٍ ، فارْتَقى إليها واتخذها له مُقَاماً . فبينما هو — ذاتَ يومٍ — يأكل من ثمرها إذ سقطتْ من بين يديه تينةٌ فى الماء ، فسمع لها صوتاً وإيقاعاً . فجعل يأكل ويرمِى فى الماء فأطربه ذلكَ ، فأكثر من إلقاء التين فيه .

وكان ثَمَّ غَيْلمٌ كلما وقعت تينة أكلها . فلما كثر ذلك ظن أن القردَ إنما يفعل ذلك لأجله ، فرغِب فى مصادقته ، وأَنِسَ إليه وكلّمه . وأَلِفَ كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه وطالت غيبةُ الغيلمِ على زوجته ، فجزعَت عليه ، وشكَتْ ذلك إلى جارةٍ لها ، وقالت : « قد خِفتُ أن يكونَ عرضَ له عارضُ سوءٍ فاغتاله . » فقالت لها : « إن زوجَك بالساحلِ قد ألف قرداً وألِفه القردُ . فهو مُؤاكِلهُ ومُشاربهُ ومجالسهُ . »

ثم إن الغيلمَ انطلق بعد مُدَّةٍ إلى منزِله فوجدَ زوجتَه سيئةَ الحالِ مهمومةً . فقال لها : « مالى أراكِ هكذا ؟ » فأجابته جارتها : « إن

قرينتَك مريضةٌ مسكينةٌ ، وقد وصف لها الأطباء قلبَ قِرْدٍ ، وليس لها دواءٌ سواه . » فقال : « هذا أمرٌ عسير ، من أين لنا قلبُ قردٍ ونحن فى الماء ؟ ولكن سأشاورُ صَدِيقى . »

ثم انطلق إلى ساحل البحرِ . فقال له القردُ : « يا أخى ! ما حبسك عنى ؟ » قال الغيلمُ : « ما ثَبَّطنى عنك إلا حيائى . كيف أُجازيك على إحسانِك إلىَّ ؟ وإنما أريد الآن أن تُتِمَّ هذا الإحسان بزيارتك لِى فى منزلى ، فإنِى سَاكِنٌ فى جزيرةٍ طيبةِ الفاكهةِ ، كثيرةِ الثِّمار ، فاركبْ ظهرى لأسْبَحَ بك . » فرغبَ القردُ فى ذلك ، ونزلَ فامتطى مَطاَ الغَيْلَمِ ، حتى إذا سَبحَ به ما سَبحَ عرَض له قُبْحُ ما أضمر فى نفسه من الغَدْرِ فنَكَس رأسه . فقال له القردُ : « مالى أراك مُهْتَمًّا ؟ » فقال الغيلمُ : « إنما هَمِّى لأنى ذكرت أن قرينتى شديدةُ المرضِ ، وذلك يمنعنى عن كثيرٍ مما أُريد أنْ أُبلغَه من كَرامتك ومُلاطفتك . » قال القردُ : « إن الذى أعتقدُ من حرصك على كرامتى يكفيك مؤونةَ التَّكلُّف . » قال الغيلمُ : « أَجَلْ . »

ومضى بالقرد ساعةً ثم توقف به ثانية . فساء ظنُّ القرد ، وقال فى نفسه : « ما احتباسُ الغيلم وإبطاؤه إلا لأمرٍ . ولستُ آمناً أن يكونَ قلبهُ قد تغيَّر علىَّ ، وحال عن مودّتى فأراد بى سوءًا ، فإنه لا شىء أخفُّ

وأسرع تقلُّباً من القلب ، وقد يقال : ينبغي للعاقِل ألا يغْفُل عن التماس ما فى نفس أهله وَوَلَدِه وإخوانه وصديقه ، عند كل أمرٍ وفى كل لحظةٍ وكلمة ، وعندَ القِيام والقعود وعلى كل حالٍ . وقد قالت العلماء : إذا دخَل قلبَ الصديق مِنْ صديقه ريبةٌ فليأخذ بالحزِم فى التحفظ منه ، ويتفقدْ ذلك فى لحظاتِه وحالاتِه ، فإن كان ما يَظُنُّ حقًّا ظفِر بالسلامةِ . وإنَ كان باطلاً ظفِرَ بالحزمِ ولم يضرَّه . » ثم قال للغيلم : « ما الذى يَحْبِسك ؟ ومالى أراكَ مُهتمًّا كأَنك تُحَدِّث نفسَك مرة أخرى . » قال : « يَهمُّنى أنك تأتى منزِلى فلا تَلقَى أمرى كما أُحِبُّ ؛ لأن زوجتى مريضة . » قال القرد : « لا تَهْتَمَّ ؛ فإن الهمَّ لا يُغنى عنك شيئاً ، ولكن التمسْ ما يصْلح زَوْجَتَك من الأدويةِ والأغذيةِ ، فإنه يقال : « لِيَبْذُلْ ذو المال مَالَه فى أرْبَعة مواضع : فى الصدَقة ، وفى وقت الحاجةِ ، وعلى البنين ، وعلى الأزواج . »

قال الغيلم : « صدقْتَ ، وإنما قالت الأطباء : إنه لا دواء لها إلا قلبُ قرد . » فقال القرد فى نفسه : « واسَوْءَتاه ! لقد أدركَنى الِحرْص والشرَهُ على كِبَر سنى ، حتى وقعتُ فى شر وَرْطَةٍ ، ولقد صدَقَ الذى قال : يعيشُ القانِعُ الراضِى مستريحاً مطمئنًّا ، وذو الِحرْصِ والشره يعيشُ ما عاش — فى تعب ونَصَبٍ . وإنى قد احتجتُ الآنَ إلى عقلى فى

التماس المخرج مما وقعتُ فيه . » ثم قال للغيلم : « وما منعك أن تُعْلِمَنى حتى كنتُ أحمل قلبي معى ، وهذه سُنَّةٌ فينا معاشرَ القردة ؛ إذا خرج أحدُنا لزيارة صديقٍ له خلَّف قلبه عند أهله أو فى موضعه ؛ لننظرَ إذا نظرنا إلى حُرَم المَزُورِ وليس قلوبُنا معنا . » قال الغيلمُ : « وأين قلبك الآن ؟ » قال : « خلّفتهُ فى الشجرةِ ، فإن شئت فارجع بى إليها حتى آتيَك به . »

ففرِح الغيلمُ بذلك ، ورجَع بالقردِ إلى مكانه . فلما قاربَ الساحِلَ وثبَ القرْدُ عن ظهره ، فارتقى الشجرة ، فلما أبطأ على الغيلمِ ناداه ؛ « يا خليلى ! احمل قلبَك وانزِل ، فقد عُقْتنى . » فقال القردُ : « هيهاتَ ! ولكنك احتلتَ علىَّ وخدَعتنى ، فخَدَعْتُك بمثل خديعتك ، واستدركت فارطَ أمرى ، وقد قيل : الذى يُفْسِدُه الحِلْم لا يُصْلِحه إلا العِلمُ . » قال الغيلمُ : « صدقتَ ! إلاَّ أن الرجل الصالح يعترفُ بزَلَّتِهِ ، وإذا أذنبَ ذنباً لم يَسْتَحْيِ أن يؤدَّبَ . وإن وقع فى وَرْطةٍ أمكنه التخلُّص منها ؛ كالرجل الذى يعثر على الأرض وعلى الأرضِ ينهض ويعتمد . » فهذا مثل الرجل الذى يَطلب الحاجةَ فإذا ظفِر بها أضاعها .

(من كليلة ودمنة)



٦٤ — النبوغ المصرى (١)

منذ نحو مائة سنة والقطر المصرى ينهض نحو الترقى ويحتذى مثال الغرب فى نهوضه ، وكان من قبل — لولا جامعة الأزهر الدينية — أشبه بكثير من بلاد العرب فى قلة العلم والنور . وبالأزهر المعمور لم ينفك المصريون — على اختلاف أعصارهم وأدوارهم — أن يكون فيهم من إذا سئل سدد فى علوم الشريعة ، وما يلزمها من علوم اللسان .

ولقد خلد التاريخ اسم « محمد على الكبير » جدّ الأسرة المالكة بما أسداه لمصر من الأيادى البيضاء ، فأنعشها من سقطتها ، وأيقظها من طويل رقدتها .

ولو كتب له تحقيق جميع أمانيه الشريفة ، لكان العرب اليوم من أرقى الدول الكبرى فى العالم ؛ فإنه — رحمه الله — لم يترك باباً من أبواب النهوض المادى والعلمى إلا طرقه على أجمل صورة ، وعمل بجميع الأسباب لحياة مصر .

وإليه يرجع الفضل فى بث مبادئ العلوم التى يسمونها « خطأ » الحديثة ، إذ كان لأجدادنا فيها القدح المعلى ؛ فهم الذين نقلوها إلى أمم الغرب الحديثة ، مشفوعة بأبحاثهم وزياداتهم واختراعاتهم .

---

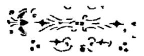
(١) من حديث للأستاذ محمد كرد على وزير المعارف ببلاد سوريا .

ولقد نبغ فى مصر فى العهد الحاضر رجال ليسوا مفخرا من مفاخرها فقط ، بل هم مفخر العرب والشرق عامة . ومنهم أفراد لا يقلون عن أرقى علماء الغرب فى ذكائهم ومضائهم وبحثهم ودرسهم .

لمصر ولرجال مصر أجمل الأثر فى الأمة العربية والإسلام . فإذا ذكرت مصر فإنما تذكر آخر دولة اعتراها الوهن من الدول العربية ، وأول دولة نهضت من بينها .

إننا بترداد اسم مصر نذكر أمة حفظت لنا تراث الأجداد ، وننوه بشعب كريم احتفظ بلساننا ومشخصاتنا .

ومن مصر سار أمس ، ويسير اليوم ، وسيسير غداً — شعاع من نور العلم النافع ، فيعم خيره الأصقاع العربية كافة .



٦٥ — رثاء هِـــرّ

كان لابْنِ العَلّاف هِرٌّ يأنَسُ به ، وكان يَدْخُل أبراجَ الحمامِ التى لجيرانه ويأْكل فِراخَها ، وكَثُر ذلك منه ، فاحتالَ أرْبابُها بحِبالة التفّتْ على عُنُقِه فقتلوه ، فرثاه بقصيدةٍ ، قال ابن خلِّكان هى من أحسَنِ الشِّعْرِ . ومنها قَوْلُه :

يا هـــرُّ فارقتَنا ولم تعُدِ ... وكُنْتَ فِينا بمَنْزِل الولدِ
فكيف نَنْفَكُّ عن هَواكَ وقد ... كُنْتَ لنا عُدَّةً من العُدَدِ
فَتُخْرِجُ الفأرَ من مَكامِنِها ... ومن مَخابِئِها إلى السُّدَدِ
يَلقاكَ فى البيت منهم مَدَدٌ ... وأنت تلقـــاهُمُ بلا مَدَدِ

*
* *

تدخل بُرْج الْحمام مُتَّئِداً ... وتَبلَعُ الفرخ غيرَ مُتَّئِد
كادوكَ دَهرًا فما وَقَعتَ وكَمْ ... أَفلَتَّ من كَيْدهم ولم تُكَدِ
صادوكَ غَيْظًا عليك وانتقموا ... مِنك وزادوا ومَن يَصِدِ يُصَد
ثم تَزَلْتَ بالحَمام مُرْتَصِداً ... حتى سُقيت الْحِمام بالرَّصَد
لم يرْحموا صوتك الضعيف كما ... لم تَرْثِ منها لِصَوْتها الغرِد

أُردت أن تأكل الفِراخ وَلا يأكلكَ الدهرُ أكلَ مضطهد

* * *

لا باركَ اللهُ فى الطَّعام إذا كان هَلاكُ النفوسِ فى المِعَد

كَمْ دَخلتْ لُقْمَةٌ حَشا شَرِهٍ فأَخْرَجَت رُوحه من الْجَسَد

قد كنْت فى نِعْمَةٍ وفى دَعَةٍ من العزيز المهيمن الصَّمد

تأكل من فأر بَيْتِنا رَغداً وأين بالشَّاكرين للرَّغَد

وكنْتَ بَدَّدْت شَمْلَهُم زَمناً فاجتمعوا بعد ذلك البَدَد

فلمْ يُبقُّوا لنا على سَبَدٍ فى جَوّ أبياتنا ولا لبد

وفَرَّغوا أرضها وما تركوا ما علّقته يَدٌ على وتَد

ومزَّقوا من ثِيابنا جُدُدًا فكلُّنا فى المَصَائب جُدُد

٦٦ – مسلمُو السودانِ الغربى

يحاولون كشْفَ أمريكا فى أوائِلِ القرْنِ الثامنِ الهجرى

عثرَ كريستوفُ كُلُمب على أمريكا على غيرِ قَصْدٍ إليها ، بل كان يَرْجو أن يبلغ الهندَ من الغربِ ، فأتيح له هذا الكشف العظيمُ .

وقد حاوَلَ مُسْلمو السودانِ الغربى فى أوائل القرنِ الثامنِ الهجرى أن يبلغوا الشاطِئَ الغرْبىّ من المحيطِ الأطلنطى عن بحث ، برأىٍ أسَدّ من رأى كلمب ، وفكرة أصَحّ من فكرته – قبل كَشْفِ أمريكا بنحْو قرْنَين .

كانت عُظْمى ممالك المسلمين فى السودان فى القرْنين السابع والثامن بعد الهجرة بلادُ « مالِى » ، وكانت تُعْرَف باسم بلاد « التكرور » ، والتكرور كان أحدَ أقاليمِ هذه المملكةِ الوَاسِعَةِ .

وكان ملكهم أيام الملِك الناصِر محمد بن قلاوُون « مَنْسى موسى » ، قال فى صُبْحِ الأعْشَى نقلًا عن العِبَر : « وكان رَجُلًا صالحاً ومَلِكاً عظيماً ، له أخبارٌ فى العدل تؤثَر عنه ، وعَظُمت المملكةُ فى أيّامه إلى الغاية ، وافتتح الكثيرَ من البلاد . »

قال فى مسالك الأبصارِ :

« حكى ابن أميرِ حاجبٍ والى مصرَ عنه ، أنه فتح بسيفه أرْبعاً وعشرين مدينةً من مُدُن السودان ذواتِ أعمالٍ وقُرًى وضياعٍ . »

وقد حج « مَنْسِى موسى » أيَّامَ الناصِر بن قلاوون سنةَ أربعٍ وعشرينَ وسَبْعمِائة .

قال فى صبح الأعشى نقلاً عن مَسالك الأبصار : « قال لى المهمندار : خرجتُ لِمُلتَقاه من جِهَـة السُّلطان ، فأكرَمنى إكراماً عظيماً ، وعاملنى بأجملِ الآدابِ . ولكنه كان لا يُحَدِّثنى إلا بتَرْجُمان مع إجادتهِ اللسانَ العربى . » قال :

« ولما قَدِم قدَّم للخِزانة السلطانية حِمْلاً من التِّبر ، ولم يترك أميرًا ولا رَبَّ وظيفة سُلطانية إلا بعَثَ إليه بالذهَب ، وكنت حادثه فى طلوع القَلْعَةِ للاجتماعِ بالسلطان بحسب الأوامرِ السلطانية ، فيأبى ، خَشْيَةَ تقبيلِ الأرْض للسُّلطانِ ، ويقول : « جئتُ لِلْحَجِّ لا لغيره . »

فلما صار إلى الحضْرَة السُّلْطانية قيل له : « قبل الأرْضَ . » فتوقَّف وأبى إباءً ظاهرًا ؛ وقال : « كيف يجوز هذا ؟ » فأسَرَّ إليه رجل كان فى جانبهِ كلاماً ، فقال : « أنا أسْجُد لله الذى خلقنى وفطَرَنى . »

ثم سَجد وتقدم إلى السلطانِ ، فقام له بعضَ القيام ؛ وأجْلسَه إلى جانبِهِ وتَحَدَّثا طويلاً . »

ومقْصِدُنا من هذا — الكلام في الرِّواية الآتية عن صُبْح الأعشى :

قال في مسالك الأبصار : « قال ابن أمير حاجبٍ : سألتُه عن سبب انتقالِ المُلك إليه ، فقال : إن الذى قَبْلى كان يظن أن البحرَ المحيطَ له غايةٌ تُدْرَك ، فجهز مائتى سفينةٍ ، وشَحنها بالرجال والأزْوادِ التى تَكفيهم سنينَ ، وأمرَ مَن فيها ألا يَرْجعوا حتى يَبْلغوا غايتَهُ ، أو تنفدَ أزوادُهم . وحَضرَ مُقَدَّمُها ، فسأله عن أمرِهم ، فقال : سارت السفن زَمناً طويلاً حتى عرَض لها في البحر في وسط اللُّجَّة وادٍ له جَرْيةٌ عظيمة ، فابتلع تلك المراكبَ ، وكنتُ آخر القَوْم ، فرجعتُ بسَفينتى . فلم يُصَدِّقه ، فجهزَ ألفَىْ سفينة ؛ ألفاً للرّجال ، وألفاً للأزْوادِ ، واسْتَخْلَفنِى ، وسافرَ بنفْسِه لِيعْلم حقيقةَ ذلك ، فكان آخرَ العهد به وبمن معه . »

وقد قرأنا في الصُّحُف أن بَعض الباحِثين صادَفَ في أمريكا الجنوبيةِ قبائلَ تُشْبهُ أن تكونَ عربيَّةً مُسْلِمة ، فهل بلغ ملكُ السودانِ الغَرْبىّ وأصحابُه أمرِيكا في القَرْن الثامِن الهجْرى ، وانقطعت الطريقُ بينهم وبين إفريقية ، فأقاموا هُناك ؟ أوْ ماذا ؟

٦٧ — الربيع ووادى النيـــل

من قصيدة للمرحوم أحمد شوقى بك :

مَلِكُ النباتِ ، فكلُّ أرضٍ دارُه   تلقـــاه بالأعراس والأفراح
منشـورةٌ أعلامهُ من أحمر   قانٍ وأبيضَ فى الرّبى لمّاح
لبستْ لمقْدَمه الخمائلُ وَشْيَها   ومَرحنَ فى كَنَفٍ له وجَناح
يغشى المنازلَ من لواحظِ نرجسٍ   آنا وآنا من ثغورِ أقاح
ورءوس « منثور » خفَضْن لعزّه   تيجانهـــن عواطرَ الأرواح

* * *

الوردُ فى سُرُر الغصونِ مُفتّحٌ   متقابلٌ يُثنى على الفتّاح
ضاحى المواكب فى الرياضِ مميّزٌ   دونَ الزّهور بشوكةٍ وسلاح
مرَّ النسيمُ بصفحتيه مقبّلا   مرَّ الشّفاه على خدود مِلاح
ويُعانِق « النسرين » فى أغصانها   كالدُّرِّ رُكِّب فى صدور رماح
و « الياسمينُ » لطيفُه ونقيُّه   كسريرة المتنزّه السمّاح

و « الجُلّنارُ » دمٌ على أوراقه   قانى الحروف كخاتم السفّاح
وكأنّ محزونَ « البنفسج » ثاكلٌ   يَلْقى القَضاءَ بخشيةٍ وصلاح

و«النخلُ» ممشوقُ القدود مُعصَّبٌ   متزينٌ بمناطقٍ ووِشــاح
كبنات فرعون شهدنَ مواكباً   تحتَ المراوح فى نهــارٍ ضاح

*
* *

وترى الفضاء كحائطٍ من مرمر   نُضِدَت عليه بدائِعُ الألواح
الغَيْمُ فيــه كالنَّعام ؛ بدينــةٌ   برَكَت ، وأخرى حلَّقتْ بجناح
والشمسُ أبهى من عروسٍ بُرْقِعت   يوم الزِّفاف بعسجَدٍ وضَّاح
والمــاء بالوادى يُخالُ مَسارِباً   من زِئبقٍ أو ملقَياتِ صِفاحِ
بعثتْ له شمسُ النهــارِ أشعةً   كانت حُلَى «النَّيْنوْفَر» السَّباح
يزهو على ورق الغُصُون نثيرُها   زَهْوَ الجواهِرِ فى بطون الرَّاح

*
* *

وجرت سواقٍ كالنوادب بالقُرى   رُعنَ الشجىَّ بأنَّةٍ ونُواح
الشاكياتُ وما عرفن صبابةً   الباكياتُ بدمعٍ سَحّاح
من كلِّ باديةِ الضلوع عليلة   والمــاء فى أحشائها مِلواح
هى فى السلاسل والغُلول وجارُها   أعمى ينــوء بنِيره الفــدّاح

*
*

لأذكر بالربيــع وحسنِه   عهدَ الشــباب وطرْفِه المِرْاح
ل كانَ إلا زهرةً كزهورِه   عَجِلَ الفنــاء لها بغــير جُناح

٦٨ — مناجم الفحم ومصباح الأمن

الفحم من أهم مصادرِ القوّةِ التى يعتمد عليها الإنسانُ فى الشئون المختلفة فى الحياةِ . ومن القوى التى يستعينُ بها أيضاً قوةُ البخارِ ، والقوةُ الكهربية وغيرها ، على أن القوتين الأخيرتين يمكن توليدُهما من الفحمِ أيضاً ، فقُطُر الطُّرق الحديدية تعتمدُ عليه فى تسخين المياهِ وتكوينِ البخار الذى هو مصدرُ قوتها . وكذلك الكهربا يمكن تكوينُها بالفحم ، فالمُوَلِّد الكهربى (الدينامو) لا بُدَّ أن يدور حتى يحدثَ التيارَ الكهربىّ ، وإدارتُه



منجم فحم ومصباح أمن

تحتاج إلى آلةٍ يمكن تشغيلها بالفحم . فالفحم إذنْ مصدرٌ من مصادرِ القُوَّةِ الأساسيةِ للإنسان ، هذا عدا أنه يُستعمَل فى البيوتِ وكثيرٍ من الصناعات .

وإذ كانت هذه مكانة الفحم سعى الإِنسان إلى استخراجِه من جوف الأرضِ ، مُتَعَرِّضاً فى ذلك لأهوالٍ وأخطار .

ومناجمُ الفحم منتشرةٌ فى بلادٍ كثيرة أهمها إنجلترا ؛ فإنها تستخرج سُدس ما يستخرجُه العالمُ بأسره . ومناجم الفحم تقع تحت سطح الأرضِ ، وتمتد فى جوفها إلى عمق بعيد ، ويشتغل فى استخراج الفحم عمالٌ كثيرون ، يضطرون إلى العمـلِ فى المناجمِ ما يقرب من ثمانى ساعات ، وقد يضطرون إلى العملِ فى موضع ضيق حَرِج .

ومن مناجم الفحم تنبعث غازاتٌ غير سامَّة ، ولكنها قابلةٌ للاستعمال ، فإذا أخطأ عامل وأشعل ثِقَاباً ، اشتعل الغازُ فى المنجم كُلِّه ، فيتهدَّم المنجم ، ويحترق العمالُ ، وقد تسد عليهم منافذُ النجاةِ ، فتتعاونُ عليهم عوامل الموت ؛ فمن احتراقٍ ، إلى اختناقٍ ، إلى غرقٍ ، إلى تهدُّمٍ وموت تحت الأثقال الكبار .

وقد عُنِيَت الحكوماتُ أشَدَّ العنايةِ بتخفيفِ ويلاتِ المناجم ، وإذ كان لابد للعاملِ فى هذه المناجم من الضوء ليهتدى به ، وكانت الإضاءة بالنارِ مخاطرةً قد تؤدى إلى كارثة — أعدت الحكومة الإنجليزية مكافأة قيِّمة لمن يخترعُ مصباحاً يضىء المناجمَ وهو مأمونُ الخطر ، وكانت هذه

المكافأة من نصيب السير (همفرى دافى) ذلك العالم الطبيعى الكبير (١٧٧٨ — ١٨٢٩) .


سير همفرى دافى

كان (دافى) فى المعهد الملكى بلنــــدن لما أعلنت الحكومةُ عن هذه الجائزةِ ، فاشتغل بالبحث فى هذا الموضوع ووفق فيه بعــد جُهدٍ عظيم ، واخترع مِصباحه الذى يضاء بالزيت ، وتجد لَهَبَه يُحاط بأسطوانة مُقفلة ، نِصْفُها الأعلى من شبكتين معدنيتين متجاورتين ، ونصفُها الأسفَلُ من الزجاج حتى لا يُحْجَبَ الضوء .

وأهميةُ الاختراع ترجع إلى خصائصِ الشباك المعدنيةِ فى جودة توصيلها الحرارة ، وإنها بذلك لا تسمح بارتفاعِ حرارة الغازِ حولها إلى درجةِ الاشتعال . فقبل اختراع هذا المصباح كان اللهبُ يتصل بغاز المنجم مباشرة ، فيرفع من حرارته إلى الدرجة التى يشتعل عندها هذا الغازُ ويسبب الأهوال . أما هذا المصباح ففيه بينَ اللهب وغازِ المنجم شبكةٌ معدنية بل شبكتان . ولجودة توصيلهما الحرارة — لا ترتفع درجة حرارتهما إلى درجة الاشتعال بسرعة ، وإذا نفذ الغاز

إلى داخل المصباحِ فإن لهبَه يزداد حَجْمهُ ، فيكون ذلك نذيراً ، فيتنبه ذَوُو الشأن إلى ملافاة الخطرِ .

وقد قلَّت حوادث الحرائق فى المنجم بفضل مصباح الأمن .

ولا يمكن استعمال الكهربا للإضاءة فى جوف المناجم التى تنبعثُ فيها الغازاتُ القابلةُ للاشتعال ؛ لأنه إذا حدثت شرارة كهربية سببت الاحتراقَ وكوارثه .

لذا كانت فائدةُ مصباح الأمن عظيمة جداً .

٦٩ – غـــلام عربى

رُوِىَ عن الفضلِ بن يزيد الكوفى أنه قال : « نَزَلَ علينا بَنُو تَغْلِبَ فى بعضِ السنين ، وكنت شَغُوفاً بأخبارِ العَربِ ، مُولَعاً بسماعها وجمعها . فبينما أنا أدورُ فى بعضِ أحيائهم أتسمَّع أحاديثَهم ، وأتلقَّفُ أخبارَهم ، إذا أنا بامرأةٍ واقفةٍ فى فناء خِبائها ، وهى آخذة بيد فَتًى قد حَسُن خَلْقُهُ ، تعاتبه بلسانٍ رَطب ، وكلام عَذْبٍ ؛ وأكثرُ ما أسْمَع منها : أىْ بُنَىّ ! وهُوَ يَبْتَسِم فى وَجْهِهَا لا يَرُدُّ جَواباً . قد غَلَبَ عليه الحياء ، وعلا وجْهَهُ الخجلُ . فدنَوْتُ منه وسلَّمت ، فردّ علىّ السلامَ بأحسنِ ما بدأْتُ ، ووقفت أنظرُ إليهما مُسْتَحْسِناً ما سَمِعْتُ ، مُعْجَباً بِمَا شَاهَدْتُ . فقالت : « يا حَضَرِىُّ ! ما حَاجَتُكَ . » قلت : « الاستكثار مما أسْمَع ، والوقوفُ على أمْرِ هذا الفَتَى . » فقالت : « إنْ شئتَ قصصتُ عليك من خَبرِه ما هو احسنُ من مَنظَرِه . » قلت : « قد شِئتُ ، يرْحَمُكِ الله ! » فقالت :

« حملته — والرزق عَسِر ، والعيشُ نَكِد — حَمْلاً خفيفاً ، حتى مضَت له تسعةُ أشْهُر ، وشاء اللهُ عز وجل أن أضَعَه ، فوضَعْتُهُ

خَلقاً سَوِيا ، فَوربِّك ما هُوَ إلا أن صارَ ثالثَ أبوَيْه حتى أَفْضَل الله عز وجل وأَعْطَى ، وآتى مِنَ الرِّزْق بما كَفَى وأغْنى ، ثم أَرْضَعْتُه حَوْلين كَامِلين ، فلما استتم الرَّضاعَ نقلتُه من خِرَق المَهْدِ إلى فِرَاشِ أبيه ، فَرُبِّيَ كأنه شِبْلُ أَسَد ، أَقيه بردَ الشتاء وحَرَّ الهجيرِ ، وأَحوطه بِرعايتِي ، وأَمنَحُه كاملَ عِنايتي . حتى إذا مضت له خَمْسُ سِنين أَسلمتُه إلى المؤدِّب ، فحفَّظَه القرآنَ فتلاه ، وعلَّمه الشعر فرَوَاه ، ورغِبَ فى مَفَاخِرِ قومِه وآبائِه وأَجدادِه . »

« فلما بلغَ مبلغَ الرِّجال ، وكَمُلَ خَلقُه ، حَمَلْتُه على عِتاق الخيلِ فتفرَّس وتَمرَّس ، ولَبِس السِّلاح ، ومَشَى بين بُيُوتَاتِ الحَيِّ الْخُيَلاءَ ، وأَخَذَ فى قِرَى الضَّيفِ وإطْعامِ الطعامِ ، وأنَا عليه وَجِلَةٌ أُشْفِق عليه من العُيونِ أن تُصيبَه . فاتفَق أن نَزَلْنا بَنهلٍ من المناهِل بين أَحياءِ العربِ ، فخرج فتيانُ الحي فى طلب ثأرٍ لهم ، وشاء الله تعالى أن أَصابته وَعْكة شغلته عن الخروجِ ، حتى إذا أمعنَ القومُ ولم يَبْقَ فى الحيّ غيرُه ، ونحن آمنونَ وادِعون ، فما هو إلا أن أَدْبرَ الليل وأسفرَ الصباحُ ، حتى أَحْرَزوا الأموالَ دونَ أهْلِها ، وهو يسألنِي عن الصَّوْت ، وأنا أَسْتُر عليه الخبر ؛ إشفاقاً عليه ، وضنًّا به . »

حتى إذا علت الأصوات ، وبرزت المُخَدَّرات — رَمَى دِثَاره ، وثارَ كما يثور الأسدُ ، وأمر بإسراج فَرَسِه ، ولَبس لأْمَةَ حَرْبِه ، وأخذ رُمْحَه بِيَدِه ، ولَحِق حُماةَ القَوْمِ ، فطعن أَدْنَاهم مِنْه ، ورمى به ، ولِحق أَبْعَدهم عَنْه فقَتَله . فانصرفت وجوهُ الفُرسَانِ إِلَيْه ، فرأوه صَبِيًّا صغيراً لا مَدَدَ وَرَاءه ، فحملوا عليه ، فأقبلَ يؤُم البيوتَ ، ونحنُ ندعو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بالسلامة ، حتى إذا مَدَّهم وراءه ، وامتدوا فى أثَرِه — عَطَفَ عليهم ، ففَرَّقَ شَمْلَهم ، وشَتَّتَ جمعهم ، وقَلَّلَ كَثْرَتَهم ، ومَزَّقَهُم كلَّ مُمَزَّق ، ومَرَق كما يَمْرُق السَّهم ، وناداهُم : خَلُّوا عن المالِ ، فوالله لا رجعتُ إلاَّ به ، أو لأهلِكَنَّ دونَه ، فانصرفتْ إليه الأقران ، وتمايلت نحوهُ الفُرسَانُ ، وتميزتْ له الفِتْيانُ ، وحَمَلُوا عليه ، وقد رَفَعوا إليه الأسِنَّة ، وعَضُّوا عليه بالأَعِنَّة ، فوثبَ عليهم ، وهو يَهْدِر كما يَهْدِر الفحلُ من الإبل ، وجعل لا يحمل على ناحيةٍ إلاّ حَطَمها ، ولا كتيبة إلاّ مَزَّقها ، حتى لم يَبْقَ مِنَ القومِ إلا من نجا بِهِ فَرَسُه . ثم ساقَ المالَ وأقبل به ، فكَبَّر القومُ عند رُؤْيَته . وفرِح حَىٌّ بِسلامته . فوالله ما رأيْنا قَطُّ يَوْماً كانَ أَسْمَحَ صَباحاً . وأحسنَ رَوَاحاً من ذَلك اليومِ ، ولقد سَمِعْتُه يَقُول فى وَجْهِ فَتَيَاتِ الحَىِّ هَذهِ الأبياتَ :

تأمَّلن فِعْلى هل رَأَيْتُنَّ مِثْلَهُ
إذا حَشْرَجَت نَفْسُ الْجَبَانِ من الْكَرْبِ

وضاقتْ عَلَيْه الارضُ حتَّى كأَنَّه
من الْخَوْف مسلوبُ العَزيمة والقَلبِ

أَلَمْ أعْطِ كلا حَقَّه ونَصِيبَه
من السَّمْهَرِىِّ اللَّدْن والمُرهَفِ العَضْب

أنا ابن أبى هِنْد بْنِ قَيْس بن مَالِك
سَلِيلُ المعالِى والمكارِم والسَّيْبِ

أبى لى أنْ أعطى الظُّلامَةَ مُرْهَفٌ
وطِرْفٌ قوىٌّ الظَّهْرِ والجَوْفِ والجَنْبِ

وعزمٌ صحيحٌ لو ضربت بِجَدِّه الـ
جبالَ الرَّوَاسِى لانْحَطَطْنَ إلى تُرْب

وعِرْضٌ نَقِىٌّ أتَّقى أن أعِيبَه
وبيتٌ شريفٌ فى ذرا تَغْلب الغُلْب

فإن لم أقاتِلْ دُونَكُنَّ وأحْتَمِى
لَكُنَّ وأحميكُنَّ بالطَّعْن والضَّرْب

فلا صَدَق اللاتِى مَشَيْنَ إلى أبى
يُهَنِّئْنَه بالفارِسِ البَطَل النَّدْب

٧٠ — الخدمة الاجتماعية[1]

لعل الكثيرين يتساءلون عن ماهية الخدمة الاجتماعية ، وأفضل تعريف اطلعت عليه هو : أنها مجموع الجهود التي يُقصد بها تقديم المعونة في النواحي المختلفة . وتلك تشمل : —

أولاً : تخفيف الآلام التي تنشأ عن البؤس . وهذه الناحية يمكن أن يطلق عليها ناحية « الخدمة الملطفة »

ثانياً : وضع الأشخاص والأسر في ظروف طيِّبَةٍ تلائمهم . وهذه الناحية هي ناحية « الخدمة الشافية » .

ثالثاً : منع وقوع الويلات الاجتماعية، وهذه ناحية « الخدمة الوقائية » .

رابعاً : تحسين حال المجتمع ، ورفع مستوى المعيشة . وهذه هي ناحية « الخدمة الإنشائية » .

فتلطيفُ أثر المصائب ، وشفاء الأشخاص مما ينتابهم من العلل . ووقايةُ المجتمع من الخطوب . وإنشاء النظم التي تحسن حالته ، وترفّه عنه — تلك هي أغراض الخدمة الاجتماعية .

(١) من خطبة للأستاذ محمد العشماوي بك . خطبها في الاحتفال بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة .

ولأضربْ لحضراتكم مثلا تظهر فيه هذه الأغراض ؛ تصوروا الفلاح — وهو عماد المجتمع المصرى — إذا أُصيب بمرض خطير يقعده عن كسب الرزق له ولعياله .

هنا تتدخل الخدمة الاجتماعية لتقدم لأسرته الطعام والشراب وما إليهما ، وهذه هى « الخدمة الملطفة » .

ثم يجب ألا يُهمل علاجه ، وأن يُوفر له ما يحتاج من دواء ؛ حتى يشفى ويستطيع أن يستأنف عمله ، وهذه هى « الخدمة الشافية » . ثم إذا شفى من مرضه وجب أن تُدبر له ولأولاده معيشة صحية ، تقيهم شر الوقوع فى الأمراض مرة أُخرى ؛ وهذه هى « الخدمة الوقائية . » ويجب أن يُهيأ لهذا الفلاح وأمثاله نظم معينة لضمان راحتهم وهنائهم ، وأن يُوفر لهم ما يحتاجون من ثقافة وتسلية ورياضة وما إلى ذلك : وهذه هى « الخدمة الإنشائية . »

وإذا تركنا الفلاحين ونظرنا إلى العمال أو المجرمين من أحداث وكبار ، أو إلى اللقطاء والمتشردين ، أو إلى الطبقات الفقيرة بصفة عامة — وجدناهم جميعاً فى حاجة كبيرة إلى من يلطف أدواءهم ثم يشفيهم منها ، ويقيهم شر الوقوع فيها مرة أخرى ، ثم ينشئ لهم نظاماً ثابتاً ، وحياة رغد هانئة .

وليس أفراد الشعب فقط هم الذين يحتاجون إلى الخدمة الاجتماعية ،

بل إن كثيراً من الهيئات والمرافق العامة كالمستشفيات والملاجئ والمدارس فى مسيس الحاجة إلى طائفة من الإخصائيين الاجتماعيين ؛ لينهضوا بمستواها ، ويحققوا لها الوصول إلى الغرض الذى أُنشئت من أجله . على أن هذا العمل لا يمكن أن يؤدى على وجهه الأكمل إلا إذا دُرست أساليبه الصحيحة دراسة علمية ، وهذه هى الدراسة التى من أجلها تنشأ مدارس الخدمة الاجتماعية فى الأمم المتمدينة .



— ٧١

سيدةٌ من بنى الخزرج من أهل يثربَ . ولم يكونوا إذ ذاك سُمّوا أنصاراً ، ولا كان الرسولُ هاجَر إليهم ، ولكن حديثَه كان يملأُ الجزيرةَ ، ودعوتَه تشغَلُ العربَ ، وقرْآنه يُبثُّ بينهم ، ويُتْلى كما كانت الأشعار تُنْشَدُ وتُرْوى .

وكان أهلُ المدينَة أشدَّ عنايةً بهذه الدّعوة ، وأحفى سُؤالاً عنها ؛ فهم أصهارُ قريش وشركاؤهم فى التجارة . وحفَظَةُ طريقهم إلى الشام ، وبينهم اليهود أهلُ الكتابِ ، ورُواةُ المأْثور ، وجامعو الأخْبار .

وجَلَسَتْ نَسيبةُ فى مساءٍ إلى زوجها وولدها يتحدثون فى أَمْرِ محمد وأنْباء دعْوَته ، وما حدث من قرآنه . وتَلَى بعضَه : « الر تِلْكَ آياتُ الكِتابِ الحكيم . أكان للنّاس عَجباً أنْ أوْحَيْنَا إلى رَجُلٍ منهم أنْ أنذِرِ الناس ، وبَشِّرِ الّذين آمنوا أنّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ عنْدَ رَبِّهِمْ ، قالَ الكافرونَ إنَّ هذا لساحر مبين . » وآياتٍ أُخرى من القرآن .

وعَجِبَتْ نسيبةُ للكافرين أن يُنكِروا على رجل منهم أُوحِيَ إليه أن يهديَهم ، وأن يُبشِّرَهم ويُنْذِرَهم ، وتساءلت بهذا السِّحر المبين أين يكونُ ، وإنما هِيَ الدعوةُ الصالحةُ ، والحقُّ الواضِح ، والبيانُ الجميلُ .

لَشَدَّ مَا ظَلَمَ الرسولَ قومُه ! وبئسما افتروْا عليه ! واشْتاق القومُ أن يَرَوْا محمدا ، وأَن يستمعوا إلى حديثه ، ويَسْتَزِيدوا من قرآنه .

وما جاء مِيقات الحج حتى كانت القافِلَة تسير من يَثْرِبَ إلى مكة في نحو خمسمائة حاج ، أَكثرُهم الرجال ، وقَلَّ فيهم النساء ، ومن بينهن نسيبة . وها قد أدرك الرَّكْبُ مكة ، وتَوَافَى إليها الحجيجُ من كلِّ فجٍّ ، واستَقَرَّت القبائل في منازلها ، والرسول يسعى إليهم ، يَعْرِضُ عليهم دينَه ، ويُبَيِّنُ رسالتَه ، ويَتْلو قرآنه ، بل يَعْرِضُ نفسه أيضاً . لقد ضاق به المقام في مكة ونبا ، وآذاه أهله في نفسه وفيمن آمن به ، وبالغوا في الإيذاء والتَّنكيل ، حتى عاد بينهم كالأسير أو أنكد .

وما يَبْغي الرسول ؟ إنما يريدُ من العرب قوماً يَسَعونه حتى يُؤَدِّيَ رسالته ، ويَحْمونَهُ حتى يُبَيِّنَ حُجَّتَه . ثم يَدْعُون من آمن لإيمانه ، ومن كفر لِكُفْرِه . وما من قبيلةٍ رضيت هذا أو انْشرحت له صَدْرًا إلَّا جماعةٌ من أهل يثرب . واعَدَهُم الرسولُ إذا انْحدروا من منًى أَنْ يُوافوه في الشِّعب الأيمن بأسفل العقبة ، وأمرهم ألَّا ينبِّهوا نائمًا . ولا ينتظروا غائباً ، وأَن يَسْتَخْفُوا من قريش . ويحْذَروا عيونهم وأَرْصادهم .

وما وافى المَوْعِدُ حتى كان بين يَدَى الرسول سبعون منهم ، بينهم نسيبة وسيدة أخرى ؛ عاهدهم وعاهَدُوه أَنْ يَسَعوه بينهم ، وأن يَحْمُوه

حِمَايتهم لأحَدِهم حتى يُبَيِّنَ حُجَّتَهُ ، ويُبَلِّغ رسالته . وراحوا بعهدهم يستخْفون من قريش ومن النـاس ، وعادت نسيبةُ إلى بلدها سعيدةً بإيمانها ، فخورةً بعهدها ، وقدَّرت ما يُكلِّفها هذا العهد من الجهاد ، وأعَدَّتْ لذلك ولديها حبيباً وعبد الله .

ودار الزّمنُ ، وهاجر الرسول من مكةَ ، وقصد إلى المدينة ، وتَلقَّاهُ الأنْصارُ بالنَّشِيدِ والتَّرْحيب ، ثم نَشِبت الحربُ بين الرسول وبين المشركين من قريش فى « أُحد » وشهدته نسيبة ، فى يمينها السِّقاء والضِّماد ، واستعرت الْحربُ وانتصَر المسلمون ، ثم نَاَتْهم هزيمة ، فما ارتاعت نسيبة إلا لجموع المشركين تَقْصِدُ إلى الرسول ، تُريد أن تُحيطَ به ، وتكاد أن تَبْلُغَه ، والمسلمون منهزمون عنه ، فألْقت السِّقاء والضِّماد ، وأخذت السيف ، وجالَدَت القوم حتى جُرِحَتْ وخارت ، وارتمت على الأرض مصروعةً .

وثبتَ الرسولُ ، وهُزِم عنه المشركون ، وانْجَلى من الغمْرَة ما انْجَلى ، وتساءلوا بنسيبةَ فإذا هى مُلْقاةٌ يَفور دمُهـا من جُرحٍ غائر بكتفيها . ضَمَّدوا الْجرحَ ، وسقَوْها الماء ، فما تَنبَّهت حتى سألت : وأين الرسول ؟ وما صنع المشركون معه ؟ إنه لناج ، وإنه منكِ لقريب . وجرحك الغائر ، ودمك السائل ، وقوتك الموهَنة ، وولداك الناشئان ، وبَعْلُك

الشيخ — كل أولئك منك دون محمد ! ؟ أجَلْ دونَ محمد ودونَ رسالة محمد ، لها خَرَجْنا ، ومن أَجْلِها قاتَلْنا ، ولها نَحْيا وفي سبيلها نموت .

وبَرِئَتْ نسيبةُ ، ونَسِيت الفخر إلا بهذا اليوم ، وبالأَثَر الباقي من ذلك الجرح . روى ابن هشام عن أمّ سعدٍ قالت : « دخَلْتُ على نسيبةَ أمّ عمارة فقلت لها : « يا خالة ! أَخْبريني » فقالت : « خرجت يوم أُحد ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهينا إلى رسول الله وهو في أصحابه ، والدَّولةُ والريح للمسلمين . فلما انْهزَمَ المسلمون انْحَزْتُ إلى رسول الله ، فكُنتُ أُباشِرُ القتال ، وأَذُبُّ عنه بالسّيف ، وأرمي عن القوس ، حتى خَلصت الجراحُ إليّ ، وأرَتْ على عاتقها جُرحاً أجوفَ له غور . »

وقد أحْسَنَت السيِّدة نسيبةُ تربيةَ ولديها حبيبٍ وعبد الله ، ومَلأَتْ قَلْبَهُما إيماناً ، وصَدْرهما شَجاعةً ، وسَواعدهما قُوّةً ، وعرف رسول الله فَضْلهما وقدْرهما ، وأحضرهما المشاهِدَ ، وجَعَلهما من سُفرائه ورُسُله إلى من شاء من رجال العرب ، ورءوس القبائل ؛ أرسلَ عبدَ الله إلى اليمن مع مُعاذ ، وأرسلَ حبيبا إلى مُسَيْلمةَ الجبّار البطّاش المتنبِّئ كَذِباً في قومه بني حنيفةَ ، وكانوا من أكْثر العرب عدداً وأوفرهم ثروة . وأقواهم بأساً .

أتدرى ما صنع الكذاب بحبيب ؟ لا يَمْلِكُ القلمُ أن يَقُصَّهُ عليك ، ولا يستطيع إلا بأشقّ الجهد أن يَرْوِيَهُ لك ؛ ففي الجزء الأول من

(أُسْدِ الغابة) فى ترجمة حبيب : « أن رسولَ الله أرسلَهُ إلى مُسَيْلمةَ الكذّاب الحنفىّ صاحب اليمامة ، فكان مسيلمةُ إذا قال له : « تشهدُ أن محمداً رسول » قال : « نعم » ، فإذا قال : « تَشْهَدُ أنّى رسول الله » قال : « لا أسمع . » فيَقْطَعُ منه عُضْواً ، ففعل ذلك مراراً ، وقطّعَهُ مسيلمة عُضواً عُضواً . »

ثم قُبِضَ المصطفى عليه الصلاةُ والسلام ، وزُلْزِل المسلمون لموته ، وارتدّت من العرب أحياءٌ وجموعٌ . وكان مسيلمةُ أَشَدَّ الخصوم لَدَداً وأقواهم كَيْداً ، وأكثرهم مالاً وعدداً ، كاثر بقومه بنى حنيفة ، واعتصم بحصونه فى « اليمامة » ، وصَمَد إليه خالد بن الوليد بجيش فيه السيِّدة نسيبة وولدها عبد الله ، واستعصى أمرُ مُسَيْلمة ، وكاد يُهزَمُ المسلمون . ثم تجمَّع نفَر من المُسْتَبْسِلين رمَوْا بأنفسهم مسَيْلمة ، لا يألون إلا أن يَبْلُغوا إليه ، وينالوا نَفْسه ، وفى هذا النّفر نسيبة وولدها عبد الله ، أما نسيبة فجالدت بالسيف حتى بُتِرِ ذِراعها ، وأما عبد الله فَصمَدَ ، وأَلَحَّ فى الهجوم على مُسَيْلمة مُسْتَقْتِلاً مستبسلا حتى أَدْركه ، وأَرداه بسيفه .

مات مسيلمةُ فماتت الفتْنَة بموته ، وتمّ أمر بنى حنيفة مع ابن الوليد صلحاً ، وعادت نسيبة إلى بلدها بساعدٍ ، وولد واحد ، وهى بما مضى

أَسْعَدُ منها بما بقى . كلٌّ إلى فنَاء ، وإنما الفوز والمجد أن يكون فى سبيل الحقّ ذَهَابُ ما ذَهبَ منك .

ونَسِىَ التاريخ نسيبةَ ، وأَغْمض العينَ عن بَقِيَّة أيامها ، وضَنَّ أن يحدِّثَنا بما نحِبُّ من خِتامِ جهادِها ، ومواطنِ مثواها . أَلَا إن مَثْواها الجنةُ ، وإنّ ذكرَها فى الطَّيِّبات لخالدٌ .



٧٢ – المصورات الجغرافية

المصورات الجغرافية ينتفع بها المسافرون فى البر والبحر ، ويهتدى بها الطائرون فى الجو — وقد كانت منذ القدم عون المسافرين ودليلهم فى أسفارهم ، وبقى لنا إلى الآن من آثار السابقين مصورات جغرافية تبين أن المتقدمين كانوا يتصورون الأرض جسماً مستديرًا منبسطًا ، يحيط به البحر من كل ناحية .

وأقدم مصور وصل إلينا من الأقدمين هو مصور مصرى قديم رسم — على ما يظن — فى عهد « رمسيس » الثانى ، وهو الآن بمتحف تورين بإيطاليا ، وبه رسم لوادى الأيكة ببلاد النوبة ، حيث كانت مناجم الذهب ، وقد وضحت عليه مواقع الشعاب والصخور والآبار والمبانى ، والطرق الممتدة إلى البحر ، والمرافق المنشأة قرب المناجم . وبينت مواقع الجبال بالمداد الأحمر .

وقد عثر على مصور بابلى وضع — على ما يقال — فى القرن السابع قبل الميلاد ، رسمت به مدينة « سوسه » ، وأسوارها وحصونها ، وقصر الملك بها ، وما إلى ذلك من أماكن المدينة الشهيرة .

ولحظ أن المصورات المصرية والبابلية كانت خاصة ؛ لا تشتمل غير ما فى بابل ومصر .

والمعروف الآن أن اليونان أسبق الأمم إلى صنع مصور جغرافى عام يشمل المعمورة كلها ، ويعزى إلى « أَنَكْسِمَنْدَر » أنه أول من وضع هذا المصور .

وفى عهد الإسكندر نشأ رجل يسمى « أراتوسثانس » ، وكان أميناً لمكتبة الإسكندرية ، فاطلع على جميع ما كتبه السابقون فى الجغرافية ، وألف كتاباً قيماً ، ووضع مصورًا للأرض كان أكمل ما وضع حتى ذلك الحين .

وحوالى سنة ١٥٠ بعد الميلاد ظهر « كلُودْيُوس بطليموس » المصرى ، فنهض على يديه علما الجغرافية والفلك نهضة لم يعرف لها نظير من قبل .

نشأ هذا البحاثة بمدينة الإسكندرية ، واطلع على ما ألفه أسلافه فى الجغرافية والفلك . واسترشد بما كتبه هؤلاء ، وبتجاربه الخاصة ، فى تأليف

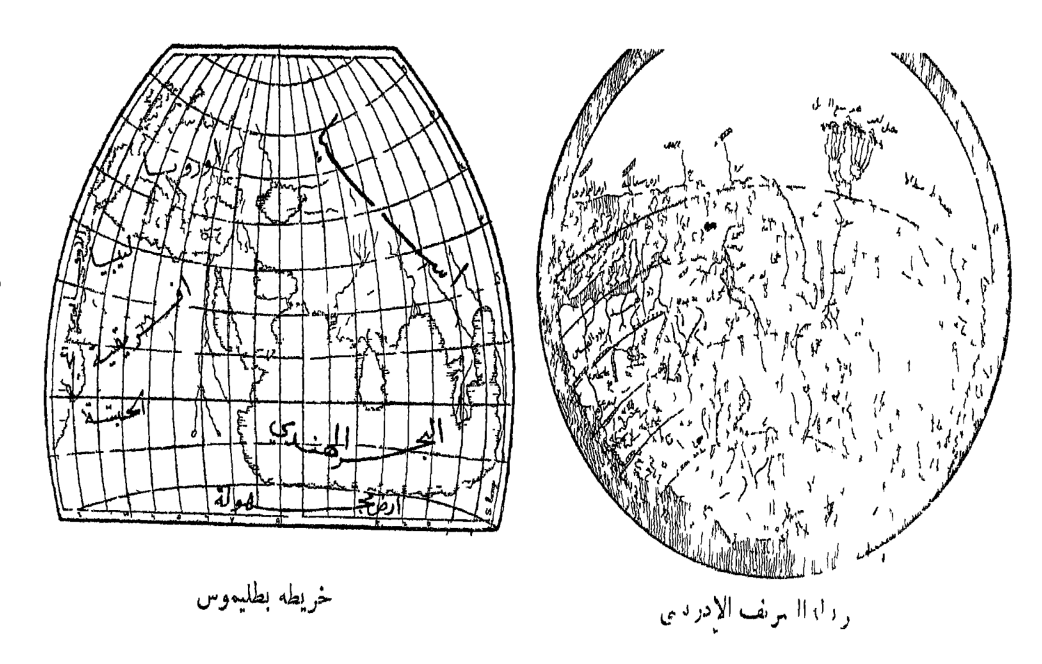
كتابين هامين كانت لهما آثار خالدة فى عالمى الجغرافية والفلك؛ هما: كتاب «الجغرافية» وكتاب «المِجَسْطِى» فى الفلك.

وقد ذكر فى كتاب الجغرافية — المؤلف من ثمانية أجزاء — جميع الأماكن التى مر بها، ووصفها وصفاً موجزاً، وحدد مواقعها بالضبط فى مصوره المشهور المنسوب إليه

وقد ظل الناس يعتمدون على ما كتبه «بطليموس»، ومن سبقه إلى أن ظهر العرب وقويت شوكتهم. وترجمت كتب اليونان الجغرافية وغيرها إلى العربية، فكان علم الجغرافية من العلوم التى عنى العرب بدراستها والتأليف فيها.

وقد نسجوا فى مؤلفاتهم الجغرافية على منوال «بطليموس»، وأضافوا إلى معارف السابقين ما عرفوه هم فى أثناء أسفارهم ورحلاتهم المتعددة، فى آسيا وإفريقية والمحيط الهندى.

وكان من أشهر جغرافييهم أبو إسحق الإصْطَخرِى، والمسعودى، وابن حَوْقَل، وقد نبغوا فى القرن العاشر الميلادى. ثم البِيرُونى والشريف الإدريسى، وياقوت الحموى فى القرن الثالث عشر، وابن بطوطة الرحالة المعروف الذى نبغ فى القرن الرابع عشر بعد الميلاد، والمقريزى المتوفى سنة ١٤٤٣ م.



خريطة بطليموس

خريطة الشريف الإدريسي

وكان جغرافيو العرب يوضحون ما يكتبون بالمصورات متبعين فى رسمها ما كان يفعل جغرافيو الرومان من الاكتفاء برسم المدن والطرق الممتدة بين بعضها وبعض ، وظلوا يفعلون ذلك حتى ظهر الشريف محمد بن محمد الإدريسى الصِّقِلِّى ، فوضع مصوراً جغرافيًّا كاملا معروفًا باسمه ، وألف كتابه : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » شرح فيه كرة أرضية صنعت من الفضة ، كما وضح به مصوره الذى رسمه طبقًا لهذه الكرة . وجعل الشمال فيه إلى أسفل ، والجنوب إلى أعلى ، على خلاف ما هو متبع الآن فى المصورات الجغرافية . وتم كون كتاب الإدريسى أكمل ما كتب فى الجغرافية إلى ذلك الحين

وفى أواخر القرن الثالث عشر جوَّل « مَارْكو بُولُو » البندقى فى ممالك آسيا مع أبيه وعمه ، وكانا من كبار التجار ، وبلغ بلاد الصين ، وأقام بها طويلاً ، ثم عاد إلى بلاده ، ووصف ما رأى من الممالك وصفاً مسهباً : فغزرت بذلك المعارف الجغرافية ، ووضع مصور جغرافى جديد للعالم ، اعتمد فى وضعه على وصف « ماركو بولو » .

وفى أواخر القرن الخامس عشر بعد الميلاد كشفت أمريكا ، ورجح عند الباحثين القول بكروية الأرض ، وأضيفت أمريكا إلى المعمور من الأرض ، وعمل لها مصور أُضيف إلى مصور الأرض

العام ، ثم ثبتت كروية الأرض بدليل حسى لما طاف « ما جلان » حولها سنة ١٥٢١ م ، وكثر بعده من طاف حول الأرض مسافراً أو طائراً . وفى سنة (١٩٣٨ م) طاف حولها طيار أميركى فى أقل من أربعة أيام .

ولم تزل المعارف الجغرافيـة تنمو وتنقح ، ولم تنفك المصورات الجغرافية تصحح — تبعاً لنمو المعارف الجغرافية وتنقيحها عاماً بعد عام ؛ حتى اتسع نطاق علم الجغرافية ، وتفرع فروعاً كثيرة ، وألفت فيه الكتب الضخمة ، ووضعت المصورات الكبيرة التى تراها وتدرس بعضها الآن .

٧٣ — حَفرُ زَمزَم

كان عَبْدُ المطلب سَمْحَ الطَّبْع ، رَضِيَّ النَّفْس ، سَخِيَّ الْيَـد ، حُلْوَ العِشْرة ، عَذْبَ الحديث . وكان أيضاً قويَّ الإيمان ، تَمْلكُ قلبه وتُسَيْطرُ على نَفْسه نَزْعَةٌ دينيَّةٌ حادَّةٌ عنيفَةٌ ولكنها غامِضَةٌ ، يُحِسُّها ويَخْضَعُ لها ، ولكنه لا يَتَبيَّنُها ، ولا يستطيعُ لها فَهْماً ولا تفسيراً . أبوه من مكة حيث التِّجارةُ والثَّروةُ ، وحيث المَكْرُ والدَّهاء ، وحيثُ الوثَنيَّةُ السَّهلة التي لا تَحَرُّجَ فيها ولاَ مَشَقَّة . وأُمُّه من يَثْربَ حيث الزراعة والصِّناعة اليسيرةُ ، وحيث اليَهودِيَّة تجاورُ الوَثَنيَّـةَ فتُضْعِفها ، وتَنْقُص من ظِلِّها وتـكاد تَمْحوها ، وحيثُ الأَخْلاق اللَّيِّنَةُ والشَّمائل الْحُلوَةُ ، وحيث الظَّرف ونُعُومَة الحياةِ .

وُلِد فى يثرب ، وماتَ عنه أبوه فَلَمْ يَنقُلْه إلى مكة ، فَنَشأَ بين أَخْواله ، وتأَثَّرَ بحياتهم ، وتَخَلَّق بأَخْلاقهم ، وسار سيرَتَهُم ، حتى بَلَغَ الشَّباب أو كادَ . ثم أَقْبل عمُّه فانْتَزَعه من إقليمه السَّهل الهَيِّن إلى إقليم آخر صَعْبٍ عسير ، تَجْدُب فيه الأرض ، ولا تَبْتَسم له السَّماء إلا قليلا . يَرْحَلُ أَهْـلُه إلى الآفاق ، ويَفِدُ إلى أهْـله النَّاس من جميع الآفاق . فَهُمْ يأْخُـذون من النـاسِ ويُعطونَهم ، ويبادِلونَهم الأَخْلاق والشَّمائِل كما يُبادِلونهم المنَافع وعروض التِّجـارة . ولَعَلَّ

أخلاق يَثرب ، وخِصال مكة قد اختَصَمَتْ فى نَفْس هذا الغلام ، ولَعَلَّ اختصامَها قد طال ، ولَعَلَّ اختصامَها قد قصر ، ولكنها على كل حالٍ قد انْتَهَتْ إلى شىء من الاعْتِدال آخرَ الأَمر ، فلم يَكتَمل الفَتى شبابَهُ حتّى كان فتًى من قريش ، ولكنَّه يمتازُ من بَقِيَّة فِتيان قريش : فيه ذَكاؤهم وفِطْنَتُهم ، وفيه إباؤهم وعزَّتُهم ، ولكنْ فيه دَعَةٌ لم تكن مَأْلُوفة عندهم ، وفيه شِدَّةٌ فى الدِّين قلَّما كانوا يَرْضَوْنها أو يَيْسِمون لها . على أن خَصْلَةً أُخرى مَيَّزَتْه منهم أشَدَّ التَّمييز ؛ فلم يكن يصدُر فى حياته — كما كانوا يَصْدُرون — عن الرَّوية والتفكير وطول التَّدَبُّر ، وإنما كانَت تَدْفَعُه إلى العمل والاضْطراب فى الحياة قوةٌ خفية يُحِسُّها ويأبى عليها ويَغْلو فى الإباء ، ولكنه يُضْطر إلى أن يُذْعِنَ لها ، ويَصْدَعَ بأَمْرها . وكانت هذه القُوَّةُ تَصْدِرُ إليه أمْرها فى أشكال مُخْتَلِفة : تَدْفَعه إلى العمل حِينًا وكأنَّها إرادَتُه الخاصَّة قد مَلَكَتْ عليه حِسَّهُ وشُعورَهُ ، فهو لا يَسْتطيعُ عنها انْصرافًا ، ولا يَمْلكُ لها خِلافًا . وتَتَمَثَّلُ له حيناً آخر شَخْصاً واضح المَخايلِ ، بيِّن الصُّورة ، يُلِمُّ به إذا شَمَله النوم . فيَأْمره أنْ يَأْتِى كذا وكذا من الأمْر . وتنتهى إليه مرة ثالثة صَوْتًا رفيقًا ، ولكنه مُلِحٌّ يملأ أُذُنَيْه يقظانَ ، ويملأ أذنَيْه نائمًا ، يحثُّه على أن يأْتِىَ كذا

وكذا من الأمْر . وكان فى هذا الصوت غُموضٌ ، وكان فى هذا الصوت إبْهامٌ ، وكان فى هذا الصَّوت جلالٌ مَصْدَرُه هذا الغُموض والإبهام . وكان الفَتى يُنْكِرُه ويَرْتَاعُ له ، وكان الصوت يَغْمُره ويُلحُّ عليه . وكان الفتى يَخافُ هذا الصَّوت ويهواه ، وكان الصوت يتجنَّبُ الفتى حتى يُؤْيِسَه من نفسه ، ويلم به فيُكْثِر الإلمام . ولم يكن هذا الصَّوت يقع فى أُذُن الفتى بألفاظ كالَّتى تَقَعُ فى آذان النَّاس ، إنَّما كان يَصْطَنِعُ ألفاظاً خاصَّةً غَرِيبةَ الْجَرْسِ غَريبةَ المعْنى .

كانت إليه رِفادَةُ الحاجِّ وسِقايتُهُ بعد عمه المطلب ، فكان يُطْعِم النَّاس إذا حَجُّوا البيت ويَسْقيهم ؛ يَجْمع لهم الماء فى أَحْواض من الأَدَم . وكان يَجدُ فى جمع هذا الماء لِسقاية الحجيج جُهداً وعُسْرًا . فبينا هو نائم ذاتَ يوم أو ذات لَيْلة ، أتاهُ آتٍ رأى شَخْصهُ ولم يَتَبيَّنْ له سِمَةً ولا شَكْلا ، وقال له فى صوت رَفيقٍ غريب ، فيه أُنْسٌ وفيه وَحْشَةٌ : « اِحفِر طِيبَة . » قال : « وما طِيبَة ؟ » فانْصرف الشَّخْصُ ، وانقَطَع الصَّوت ، وأفاق الفَتى وفى نَفسه ذُعْرٌ وعَجَب وأَمَلٌ . وحاوَلَ أن يَعودَ إلى النَّوم لَعلَّه يرى هذا الشخص ، أو يَسْمَعُ هذا الصَّوت ، أو يَتَبيَّنَ هذا الحديث ، ولكن النوم كان قد خاصَمَ عَيْنَيْهِ ، وانصرَف عنه مع هذا الشَّخص الغريب .

ففكر وأطال التّفكير ، وقدَّرَ وأطال التَّقْدير ، وتقلَّبَ فى مَضْجَعه وأكْثَر التَّقلُّب ، حتى ضَاقَ بالنَّوم واليقظة ، وسَئِمَ مَضْجَعَه ، فَجَلَس يَرْقَى ببصَره الحائر إلى السَّماء ، لَعَل شمسَ النَّهار أو نجومَ الليل تُفَسِّر له هذه الرُّؤيا ، ويَخْفِض بَصَرَه إلى الأرض لَعَلَّه يَجد فى إطْراقِهِ تَفْسير هذه الرُّؤيا ، ويَمُدُّ بصره نحو الكَعْبة ، لَعلَّ صنَماً من هذه الأَصْنام المَنْصوبَة يُوحى إليه تَعْبيرَ هذه الرُّؤيا . ولكن السماء صامِتَةٌ ، والأرض ساكِنَة ، وعلى أَصْنام الكَعْبة شيء كأَنه الوُجُوم ، فيَرْتَدُّ الفتى إلى بَصَره مُتْعَباً مَكدودًا ، وتَهوى نفسه إلى قَرارة ضَميره لَعلَّها تجد لهذا الرَّمز تَاويلا فلا تَجدُ شيْئاً ، فَيَشْتَدُّ بها الذعر ، ويَزْدادُ فيها العَجب ، ويَبْقَى لها الأمل . ويَنْهَض الفتى فَيَضْطَرب مع الناس فيما يَضْطربون فيه من أمور الحياة . ثم يُقبلُ اللَّيل ويأْوى الفَتى إلى مَضْجَعِهِ ، وقد أَنْسِيَ كل شيء ، إلَّا أنّه قد مشى كثيراً . وأَجْهَد نفسه كثيراً ، وأنّه أشَدّ ما يكون حاجةً إلى أَن يبسُطَ عليه النَّوم جَنَاحَيْه . ها هو ذا مُغْرِق فى نَوم هادِئ مُطْمَئنٍ ، قد هَدَأَ مِنْ حوله كلُّ شيء ، وإطْمأَنَّ فى نَفْسه وجِسمه كلُّ شيء . ولكن ما هذا الشَّخْص الغَريب يُقْبلُ إليه ساعياً إليه فى أَنَاةٍ ، حتى إذا دَنا مِنْه ، قال له فى صَوْت رفيق غَريبٍ ، فيه أُنْسٌ وفيه وَحْشَةٌ : « اِحفِر بَرَّةَ » وجسم الفتى هَادِئ مطمئن ،

ولكن نفسه ثائِرة مُضْطَرِبة ، ولسانه يَتَحَرَّك فى ثِقَل ، وصوته يَنْبَعِثُ من بين شَفَتيْه خَفيفاً رقيقاً بهذه الكلمة « وما برَّة ؟ » فينصرِف الشّخص ، ويَنْقَطِع الصَّوت .

ويُفيق النَّائم وَجِلًا مَذْعورًا ، مُعْجباً آملًا ، ويُفكر ويُقَدِّر ويَتقَلَّب . ثم يَنْهَضُ فيسأل السَّماء ولكنها صامِتَةٌ ! ويسأل الأرْض ولكنها ساكِنَة ! ويَسْأَل أَصْنام الكَعْبَة ، ولكنها مُغْرِقَةٌ فى البَله والوُجُوم ! ويَضيقُ الفتى بنَفْسه وبالسّماء والأرض والأصْنام فَيَهِيمُ على وَجْهِهِ يَلْتَمِسُ فى الحركة والاضْطراب نِسيانَ هذا الطّائف الذى يُفْزِعهُ ويُغْريه . ثم يَعْمَلُ الناسُ فى أمور الحياة ويَنْقَضى النَّهار بخَيْره وشَرّه ، وحُلْوه ومُرّه ، ويُقْبل اللَّيل شيئاً فشيئاً ، فيبسط أَرْدِيَته السّود على ما يُحيطُ بمكّة من جِبالٍ وآكامٍ ، وما يزال يمتد فى هذه الأرْدية حتى يَغْمُرَ كلَّ شيء ، ويَسْتُرَ كلَّ شيء ، لولا هذه المصابيح الضَّئيلة التى تُشَبُّ فى الأرض ، وهذه النُّجوم القليلة التى تَضْطَرِب فى السماء .

وقد سَمَر الفتى مع السَّامرين ، فَسَمع أحاديث التُّجار عن غرائب الأقْطار ؛ هذا يُحَدِّث عن صورِ بُصرى وعَظَمتها ، وهذا يُحَدِّثُ عن الخَوَرْنَق والسَّدير ، وهذا يَصِفُ أَخْلاق اليمانين ومَكْرهم بالتّجار ، وهذا يَتحَدَّثُ عن سذاجَة أهل الشام وانْخِداعهم لِغِرْبان العرب ، وهذا

يذكر ما أفادَ من رِبحٍ حينَ باع الأدَمِ فى الحبشة ، وهذا يذكر للقوْم ما حمل لهم من خمْرِ بَيْسَان . وهم فى أثناء هذا كلّه يَتَنَدَّرون على العجم والأعراب ، ويَتفكّهون بأحاديث أولئك وهؤلاء ، ويَسْخَرون من أولئك وهؤلاء ، حتى إذا تقدَّم اللّيل ، واطْمأَنَّ كلُّ شىء — تفرَّقوا ، ونهض الفتى ثقيلاً ، فمَشى إلى بَيته مُتباطِئاً يوَدُّ لو فرّ من النوم ، ويَوَدُّ مع ذلك لو نامَ فألَمَّ به هذا الطَّيف .

انظر إليه ! إنه ليَتردَّدُ : أيَقْذِفُ بنفسه فى أمْواج النَّوْم هذه التى تَتمثَّلُ أمام عيْنَيْه ؟ أم يَبْقَى على الشَّاطِئ يَقْظانَ يُداعبهُ النَّوْم ولا ينام . ليتردَدْ ما استطاع ؛ ليمتنع على النوم ما وَسِعه الامتناعُ ، فإن هذه الأمْواجَ المصْطَخِبة أمامه تَسْتطيع أن تَطْغى على الشاطئ فتغْمُرَه ، وتَغْمُرَ معه كلَّ شىء . وكيف يَسْتطيع هذا الفتى أن يَمْتَنع عنها . وما استطاعَتْ أن تَمْتنع عليها جبالُ مكة هذه التى تحيطُ به من كلِّ ناحية : انظر ! أترى حركة ؟ اِسمع : أتُحسُّ نبْأة ؟ كلُّ شىء هادئ ! كلُّ شىء مطمئنٌ ! فما نُبُوُّك وما امْتناعُك ! هلم إلى النوْم ، لا تَخَفْ شيئاً ؛ إن هذه الأمواجَ تُريحُ ولا تُغرق . أقبل إلى هاتين الذراعين اللّتين تمتدَّان إليك ، فتنسَى بينهما كل شىء . ومن يَدْرى ؟ لعلّك تَجِدُ بينهما شِفاء لنفسك الحائرة . وأطبق الفتى جفنيه ، واندفع أمامه ،

فاشتملت عليه أَمْواج النَّوْم كما اشْتملت على غيره من الناس والأشياء ، ولكن ماذا ؟ هذا شَخْصٌ يَتَقَدَّمُ ساعياً هادِئًا ، كأَنه يَمشى على الهواء ، حتى إذا دَنا يَمْشى من الفتى قال فى صوْت رفيق غريبٍ ، فيه أُنْسٌ وفيه وَحْشَة : « اِحفِر المضْنونة » .

جِسمُ الفتى هادِئٌ ، ولكن صورةً من الحَيْرَة قد ارْتَسَمَتْ على جَبْهته ، وهذا صوت خَفيفٌ رقيقٌ يَنْبَعث بين شَفتيه ، وهو يقول : « ما المضنونة ؟ » فينْصرف الشَّخص ، ويُفيقُ الفتى مَذْعورًا مأْخوذاً ، قد أَظْلم فى نفسه كلُّ شىء ، وأحاطَ اليَأْسُ بعقلِه وقلْبه وضميرِه ، لا يرتفِعُ بصره إلى السماء ، ولا يَنْخَفضُ إلى الأرْض ، ولا يَمْتَدُّ إلى أصنام الكعبة ، ولكنه يدور حائرًا . ويَنْهضُ الفتى وهو يقول : « ما أَدْرِى إلا أَنِّى سأُجَنُّ ! لئِنْ أصْبَحْتُ لآتِيَنَّ الكاهن ، فلعَلِّى أَجِدُ عنده من هذا العارِضِ شِفاءً . »

أَقْبِلْ أَيها الصُّبح ! أَسْرِع فى الخَطْو ! أُرفق بهذه النَّفس الحائرة ! هلم إلى سوطك المُشرق المُضىء ، فبَدِّدْ به هذه الأشْخاصَ الماثلة ، فرق به هذه الظِّلالَ المُضْطَربة من حَوْلى .

ويَقْضى الفتى لَيْلاً طويلاً ثقيلاً . حتى إذا كَسَت الشمس بِضَوئها النَّقىّ ظواهرَ مكة وبِطاحَها ، أسرعَ الفَتى إلى المسجِد ، يريد أن يَقُصَّ

أمره على الكاهن . ولكنه لا يكاد يَبْلغ مجالس قُرَيش فى فِناء المَسْجد حتى تَذْهبَ عنه حَيْرتُه ، ويُفارقه وُجومُه ، ويَمْتلئَ قلبُه اطمئنانًا وثباتًا . ماذا ؟ أأَزْعُم للكاهن أنى مجنون ؛ وتَشِيعُ فىَّ هذه المقالةُ ، ويَضْحكُ منى حَرْب بن أمية ولِدَاته ، ويَتَندَّرُ علىَّ فتيانُ مَخْزوم ؟ كلا ! ما أكثرَ هذه الخيالات التى تسكن إلى نفسها فى قبورِ الموتى ! وتَخْتَبئ فى الكهوف والأغْوار ما أضاءت الشمس ، واسْتَيْقَظَت الطبيعة ، فإذا أظلمَ الليل ، ونام الكون ، انْتَشرت هذه الخيالات فى الجوِّ ؛ فمنها ما يَصْعَد فى السماء يَرْعى النجوم ، ومنها ما يهبِط إلى الأَرْض يَرُوعُ النَّاس .

وما أرى أن هذا الطَّائفَ الذى يُؤَرِّقنى مُنذ ثلاثٍ إلا خيالاً من هذه الخيالاتِ . لعلهُ ظلُّ ميِّت من موتى قريش قد نَسِيَهُ قومُه ، فهم لا يزورونهُ ولا يقرِّبون إليه ، لعله شيطانٌ من هذه الشَّياطين التى تُلِحُّ على الإِنس فتتقاضاهم الطَّاعة ، وتُخْضِعهم لسلطانها كرهاً . لَعلَّه نذير من أحد الآلهة يُطالب بالضحية والقربان . لقد مَضت أيام ولم تُقدَّم إلى الآلهة شاةٌ ، ولم يُنْحَرْ لهم جَزُور ، ولم تَصْطَبغ أرْضُ المسجد بهذا الدَّم الحارّ القانِى الذى تحب الآلهة لونه ورائحتَهُ .

إيه يا عبد المطلب ! تَقَرَّبْ إلى الالهة بِضَحِيَّة تَرْضيهم لعلهم يرضون ، ولَعَلَّهم يَكُفُّون عنك هذا الشَّر !

وأَقْبل الفتى على مَجْلس من مجالس قريش ، فَتَحَدَّثَ وسمع ، ولكنه كان شارِدَ النَّفس ، فلم يُطِلِ الحديث ولا الاستماع ، ونهَضَ مُوَلِّياً . فلما انْصرف عن القَوْم ، قال حَرْبُ بنُ أُمَيَّةَ لمن حوْله : « أرَأَيْتُم إلى سَرِيِّ بنى هاشم ؟ إنى لَأَراه مَحْزوناً ، وإنى لَأَعْرِفُ فى وجهه الْهَمَّ ، لم يحدثْنا اليوم عن مَآثِرِ أبيه ومَفاخِرِ عَمِّه . »

ومضى الفتى إلى أَهْلِه ، فلمَّا دخل على امْرأته أنكرَتْ عَوْدته إليها من الضُّحا ، فاستقبلته دَهِشَةً وهى تقول : « إيه ياشَيْبَةُ ؟ ما خَطْبُك ؟ إنى لأُنْكِرُكَ مُنْذ أيام ، أراكَ مُؤَرَّقَ اللَّيل ، قَلِقَ النهار ، قليلَ الحديث ، طويلَ التفكير . ولقد هَمَمْت أن أَسْأَلك مَرَّ ولكن خَشيتُ رَدَّكَ علىَّ وانْتهارَكَ لى ، فإنى لأعلم فيكم معشَرَ قريش رقةً للنِّساء ، ودُعابَةً مَعَهُنّ ، ولكن لا أَجِدُ عندكَ ما أجِدُ عند قوْمك ؛ فأنْتَ صامت إذا خَلَوْتَ إلى أهْلِك . وأَنْتَ مُقَطَّبُ الجبين إن أَظَلَّك معهم سَقْف . تحدَّث ! ما يَحْزُنك ؟ اُخْرجْ عن هذا الصَّمت الذى لَزِمْتَه ، كن رَجلا من قريش ، أَشْرِكْ أهْلك فيما يَعْنيك . لقد أَذْكر يوم أَنْبَأَنى أَبى أَنَّك خَطَبْتنى

إليه ، لَقَد فَرِحتُ بهذا النَّبأ ، لقد كنْتُ أتحدَّث إلى أترابى فى البَادِيَة بأَنى سأُصْبِح امْرَأَةً من قريش ، أجِدُ من نعمة الحيـاة ولينها ، ومن ظرْف الزَّوْج ورِقَّتِه ما لا يَجِدْن تحت خيام بنى عامر ابن صَعْصَعَة ، ولـكن وَجَدْتُ نعمةً وليناً ، ووجَدْت حُبًّا وعَطْفاً ، ووجدت عِناية لا تعدِلها عِنَاية ، ولم أَجِدْ أحبَّ ما كنت أطْمَح إليـه ، لم أَجِدْ منك ابتسام الثَّغر ، ولا انْبِساط الجبين ، ولا انْطلاق اللِّسان . »

قالت ذلك وانْتَظَرت هُنَيْهَـةً ، فأجابها زَوْجها بصَوْت هادئ حَزِين : « عزيزٌ عَلَيَّ يا سَمْراء ما تَجِدين من حزن ، وما تُحسِّين من خَيْبَةِ أمل ، إنِّى لأحبُّك كما يُحِبُّ الظمآن ما يَنْقَع غُلَّته من الماء العذب . إنى لآنَس إليك أُنْسًا يُزيل عن نفْسى كُلَّ همّ ، ويُحبِّبُ إلَيَّ الحياة ، ويُرَغِّبُنى فيها . إنى لأشْتاق إلى التَّحدث إليك . ولاسْتماع لك ، والأنْس بك ، ولو خُيِّرتُ لما عَدَلت بمجلسك مَجْلس قريش ، ولا بِبَيْتِك فِناءَ المسْجد ودارَ النَّدوة ، ولـكنَّ قوةً خفية عاتية طاغية تملِكُ علىَّ نفسى ، وتأخُذُ علىَّ كلَّ سَبِيلٍ . وتدفعنى إلى حَيْثُ لا أَدْرى ولا أُريد . إيه يا سَمْراء . . ! إنى مؤرَّق اللَّيل ، قَلق النهار ، مُفرَّق النفس مُنْذ حين ، وإنِّى لأخْشى على نَفْسى شرًّا . هذا ضعف

يُلِمُّ بي إذا أغْرَقْتُ في النَّوم ، فَيأمُرُني بصوتٍ رفيق غريب ، فيه أُنسٌ وفيه وَحْشَةٌ ، أن أحفِر شيئاً يُسَميه طِيبة ، ويُسميه بَرَّة ، ويسميه المضْنُونَة ، فإذا سَألتُهُ عمَّا يريدُ انْصرفَ إلى شَخصه ، وانْقَطَعَ صَوْته ، وأفَقْتُ حائرًا مذعورًا . »

« لقد هَمَمْتُ — يا سمراء أن أقُصَّ رُؤياي هذه على الكاهن ، وأن أصِفَ له ما أرى وما أجِد ، ولكنْ أشْفَقْتُ أن يَتَحَدَّثَ الناس عني أني مجنون ، وأن يَتَنَدَّرَ بِي فتيان قريش فيقولوا : إن له رَئِيًّا من الجن . أشيري ! ماذا تُريدين ؟ »

قالت سمراء : « هوِّن عليك ، ولا تَغْلُ في الخوف ، ولا تُسْرِف في الإشْفَاق . ما أكثر ما يُلِمُّ أمْثال هذا الطَّيف بالنَّاس عِندنا في البادِية ، فلا يَحْفِلون ولا يأبَهون ، ومع ذلك فما يَمْنَعك أن تَتَقَرَّبَ أنْت إلى الآلهة في غير توسُّط للكاهن ، ولا توَسُّلٍ به ! قُمْ فَضَحِّ لهم ، وقَرِّبْ إليهم ، فَسَيَرْضَوْن ، وسَيَرْضَى الْفقراء والجائعون . وسَيَغيظ ذلك قوماً من قريش »

وما هي إلا ساعات حتى كان فِناء المسجد يَموج بالنَّاس ، فيهم الْفُقراء وقد أقْبلوا من البِطاح والظَّواهر ، وفيهم الأغْنياء وقد أقبلوا يُقَدِّمون الضَّحايا بين أيديهم . هؤلاء يَتَنافَسون أيهم يُغْلي الضحايا

ويُكثر منها، وأولئك ينتظرون ويمنُّون أنفُسهم بقديد اللحم وجَيِّده، لَقَدْ سمعوا أنّ عبد المطلب يُريد أن يُضَحِّيَ ، وأن بنى هاشم قد حفَلت لذلك ، فكَرِهَتْ أمَيَّةُ ألا تَفْعلَ فعلهم ، وكَرِهَتْ مَخزومٌ أن تَسْبِقَها عبد مناف . فأقبل أشْراف قُريش يَسْتَبقون فى التَّضْحية، ويَتنافَسون فى القُربان : تَنَافسوا ! تنَافسوا أيُّها الأشراف ! اسبِقوا أيها الأغنياء ! إن فى ذلك شِبَعَ الفُقراء ، وسَعادةَ الأشقياء .

وقضَتْ مكة يَوْمًا دامياً سَميناً ، كَثُر فيه الطَّعام ، وكَثرَ فيه الشَّراب ، ورضِيَت فيه الأصنام ، وسَعِدَ الفتى بما رأى ، ونَسِيَ الفتى ما كان يُهِمُّه ويُنَغِّصُه . وقدَّر الفتى أن قد صُرِفَ عنه الشَّر ، ورُدَّ عنه المَكْروه ، ورضِيَتْ سَمْراء فتَحَدَّثَت كثيراً ، وسَمِعَتْ كثيراً ، وأضْحَكَت زَوْجَها وابنهـا الحارث بمُلَح الأعراب ، ونوادِر البادِية . وقالت لزوجها — وهى تَمْسَحُ رأسه — : « أحْبِبْ إلىَّ بهذا الطائف الذى أرَّقك وأضْناك ، فقد حَقق أملى ، وأرانى ما كنت أطمَحُ إليه ، ورسم فى قلبى صورتك جميلة خَلَّابة ، فلن أراكَ مُنذُ اليوم — مهما تكن الخطوب — إلا باسِمَ الثَّغر ، مُنبَسِطَ الجبين ، مُنْطَلق اللِّسان . وهل السَّعادة إلا لَحَظاتٌ قصارٌ تصيبنا ولم نَنْتَظِرْها ، ولم نُقَدِّرْها حسابًا . فما سعد

القلبَ الذى يَحْتَفِظُ بهذه اللّحَظات حين تمرُّ ، ويتخذها ذُخرًا للأيَّام وما يعرض فيها من الخطوب . »

قال عبد المطلب : « إِذَنْ فأَنتِ راضِيةٌ يا سمراء . إن رضاك ليقع من نفسى المحزونةِ مَوْقع الماء من الأرض الجدْبَةِ . اِنْعَمى بما أنت فيه ، وانْتَظرى أن يُقدر الله لك خيراً منه ، فلو قد صُرِفَتْ عنِّى هذه القُوَّةُ العاتِية الطاغِية لأَرَيْتُكِ — يا سمراء — كيف تَطيبُ الحياة ، وكيفَ تَرِقُّ حواشى العَيش . »

وأوَى الفتى إلى مَضْجَعه راضِياً مسرُوراً ، واسْتَقْبَل النوم مُبْتَهجاً له ، راغِباً فيه . ولكن هذا الشَّخص يَقْدَم عليه ساعِياً فى هدوءٍ ، كأَنَّما يَمشى فى الهواء ، حتى إِذا دَنَا منه انْحَنَى عليه ، ووضَعَ على جَبْهته يداً باردة خفيفة . وقال فى صوت رفيق غريب فيه أُنْسٌ وفيه وحْشَةٌ : « اِحفِر زَمْزَمَ . » واضْطَرب جسمُ الفتى كله ، واضْطَربت نَفْسُ الفتى كلها ، وانْفَتَحت شَفتاهُ عن هذه الكلمة : وما زَمْزَم ؟ قال الطَّيف بصوت رفيق مُؤْنِس ، قد فارَقَتْه الغرابة والوَحْشة ، ومازَجَتْهُ سُخْرِيةٌ ورحمة : « لا تُنْزَح ولا تُذَمّ ، تَسْقى الحجيج الأعْظم ، وهى بَيْنَ الفَرْثِ والدَّم ، عند نَقْرة الغُراب الأعْصَم . »

قال الفتى : « الآن قد وَعيت . » فتولَّى عنه الطَّيف باسِماً وهو يقول : « لله أنتمْ أيها الناس ! لا يَكْفيكم الوَحْى ، ولا تَفْقَهون إلا سَجْع الكُهَّان . رويداً ! عمَّا قريبٍ سَيُضِىء الصُّبح . » ونهَضَ الفَتى مبتهجًا مَسْرورًا

فلما أَصْبَح دخل على سمراء مُشْرِقَ الوَجه ، مُضىء الأسارير ، فقالت وهى تَسْعى إليه : « أيُّهمَا أَحَبُّ إلى نَفْسِى ؛ إشْراقُ وَجْهك أم إشراقُ الشَّمس ؟ ما أرَى إلا أنك قَضَيْتَ ليلاً هَادِئاً . »

قال : « اِنْعَمِى صباحاً يا سَمْراء ! لقد طَابت الحياةُ مُنذُ اليوم ، إن هذا الطَّائفَ — الَّذى يُلِم بِى مُنذ ليال — طائفُ خيرٍ يَأْتى بالنِّعمة والْغَيث ؛ إنه يَأمُرُنى أن أحْتَفر فى فِناءِ المسْجدِ بئراً ، فلأفعَلَنَّ مُنْذُ اليوم ، ولئن ظَفِرْتُ بها لَيشْرَبَنَّ الحجيجُ فى غيرِ جُهْدٍ ولا عُسر . هلم يا حا. خذ مِعْوَلاً ، ومِكْتلاً ، ومِسْحاةً ، واتْبَعْ أباك . »

❦

معجم الكلمات الصعبة

وهو مرتب بحسب ترتيب الدروس

الدرس	الكلمة	معناها
١	ضياء	ذات ضياء
	نورًا	ذا نور
	منازل	ذا منازل
	يفصل الآيات	يبين الأدلة على قدرته
	لا يرجون لقاءنا	لا تتوق أنفسهم للقائنا ولا يعملون حسابًا ليوم الحساب
	اطمأنوا بها	سكنت أنفسهم إلى الدنيا وفرحوا بها
	مأواهم	مسكنهم ومقرهم
	بما كانوا يكسبون	جزاء على ما كانوا يرتكبون من السيئات
	دعواهم	دعاؤهم
	سبحانك اللهم	أى ننزهك إلهنا عن مشابهة المخلوق
	العالمين	المخلوقات العلوية والسفلية
٢	غنى عن كانوا عامة الشرف	كثر فيه من كانت لهم فى الشرف المنزلة العليا
	الأمر	المراد منه الدعوة إلى سبيل الله
	أهلك فيه	أموت بسببه أو فى الدفاع عنه
	الرجل الفذ	الذى لا نظير له
	لا تزعزعه	لا تضعفه
	دائب	مستمر
	هُيام	شغف وحب شديد
	ترفع عن سفاسفها	تجنب لدنىء الأعمال وحقير الصفات
	قبضه الله إليه	توفّاه

سطر	الكلمة	معناها	سطر	الكلمة	معناها
	الأعراض الزائلة	ما يملكه الإنسان من أموال		الغياض	الغابات والأجمات ، مفرده غَيْضَة
	المبادئ	المثل العليا يحتذيها الإنسان ويعمل بمقتضاها	٣	لا تسامى إليها أمة	لا ينبغى أن تأمُل الوصول إليها
	خالدة على الدهر	باقية بقاء الأجيال والقرون		ملاذ	مُلْتَجأ ، من لاذ به يلوذ
	لا يمالئ	لا يحابى ولا يداجى		آثره بالشيء	خصه دون غيره به
	سيم خطة ضيم	حمله غيره على أن يعيش ذليلا		أمَّها	قصدها
	بملء فيه	بصراحة وجُرأة		المنارة	المكان المرتفع يوضع فوقه السراج يهتدى به الناس وتستعمل فى المدينة
	الرّماية	فن الرمى بالنبال		ذخائر الكتب	الكتب النفيسة أى القيمة النافعة
	روّؤهم	ألقوا عليهم وحفظوهم		دالت دولته	مضى عهده وذهب سلطانه
	الرِّشا	جمع رِشوة		ازدان	ازدهر وتزين
	الهوى	ميل النفس إلى الشىء		الحفدة	حفدة الرجل أولاد أولاده
	أخذه عند الغضب	أسرع فى إيذائه أو الحكم عليه متأثراً بالغضب		اللواء	العَلَم
	يسوسون	يحكمون ويدبرون شئون الناس	٤	تأهب	استعد
	لا تجمروهم	لا تحبسوهم فى أرض العدو			

ص	الكلمة	معناها
	النفحة	نفح الطيب فاح، وله نفحة طيبة أى رائحة، والمراد هنا الخصلة الحميدة، ويقال نفحة من عذاب أى قطعة منه
	قيم البستان	القائم بشئونه وهو البستانى
	وقاه يقيه	حفظه وحماه
	يوم الهول	يوم الفزع والخوف وهو يوم القيامة
	لا ينصف	لا يعدل والمعنى هنا لا يسوى بينه وبين إخوانه
	القادة	الزعماء ـ مفرده : قائد
	العناء	المشقة
	طريقة عقيمة	خاطئة لا تفيد
	نكص على عقبيه	رجع
	قيضت له	هيأت له
	مناهل العلم	مواردها، من نَهل أى شرب الشرب الأَول
	النَّهِم	الشديد الرغبة فى الطعام

ص	الكلمة	معناها
	نبه اسمه	ذاع صيته
	اقتبس من علمه	أخذ عنه علماً
	التحرير	الكتابة
	حرر اللغة من قيودها	أطلق سراحها وجعلها سلسة الأسلوب
	تواترت الأخبار	كثرت ونقلها الخلف عن السلف
	الوفرة	الكثرة
	الإذعان	الخضوع والمراد هنا قبول الآراء والعقائد
	تفانى القوم فى الأمر	أهلك بعضهم بعضاً فى سبيله
	حرص على الشىء	حافظ عليه حبًّا له
	المناوأة	المعارضة والمعاندة
	شمخ بأنفه عن الشىء	تجنبه أنفة منه وتكبرًا
	انهالوا عليه	تجمعوا ضده
	سفه أحلامهم	حقر عقولهم وبين ما فى تفكيرهم من أخطاء

الدرس	الكلمة	معناها
	تحدیت فلانا	أى باريْتُه فى فعلٍ من الأفعال
	أفحمته	أى أسكتُه بالدليل القاطع
	اللَّجاج	التمادى فى الخصومة والعناد
٦	اتسعت رقعتها	زادت مساحتها
	الآبار الارتوازية	الآبار ينبع فيها الماء
	فوهة الأبورة	فتحتها
	الماء الكدر	الماء العكر
	استوثق	تأكد
	أمهات المدن	المدن الكبيرة
	الويلات	المصائب
	الكوارث	الدواهى ، مفرده كارثة
	الرَّخاء	اليُسر والسعادة
	البأساء	الشدة والضيق
٧	العَلاء	الرفعة والشرف
	المَفرِق	وسط الرأس

الدرس	الكلمة	معناها
	الفرائد	الجواهر التى لا نظير لها الواحدة : فريدة
	دُرّات	المراد بها ممالك الشرق التى كان لمصر الزعامة عليها
	ملء العيون	أى تعجبك مناظرهم
	المرد	مفرده أمرد، وهو الشاب نبت شاربه ولم تنبت لحيته
	الظُّبا	جمع ظُبَة ، وهى حد السيف والسنان ونحوهما
	الثواء	طول المكث . من ثوَى يثوى أى أقام
	الصيقل	شحذ السيوف وجلاؤها
	فريتم	خريتم
	الطوق	الطاقة والجهد
	المتحدى	المعارض الذى ينازعك الغلبة والفخر
	البَردىّ	خفف لضرورة شعرية وهو النبات المعروف الذى كان يصنع منه الورق قديماً

البيت	الكلمة	معناها
	بنتاءور	أقدم شاعر عرفه التاريخ وهو مصرى
	فرقن	شققن
	البند	العلم الكبير
	الجرد	الخيل ، ويراد بها الجيوش البرية
	الظل الوارف	الواسع الممتد
	يجدى	ينفع
	السهد	السهاد أى عدم النوم
	الجُنة	ما وقاك فى الحرب
	الرث	البالى
	العرا	المراد الصلات والروابط مفرده : عُرْوَةٌ
	الهنات	مفرده : هَنَةٌ وهى اليسير المحتمل من الزلات
	هفا	أخطأ ، واسم الفاعل منه هافٍ
	تردى	تهلك

البيت	الكلمة	معناها
	الحرب العوان	التى قوتل فيها مرة بعد أخرى
	بعد لأى	بعد إبطاء ومشقة
	قصد السبيل	الطريق المستقيم
٨	المروج	مراعى الدواب ، مفرده مَرْج
	جداول المياه	مجاريها الصغيرة
	طليقا	الهواء الطليق والطلق : الهواء المتجدد النقى
	عاد المريض	زاره
	شيع الميت	مشى فى جنازته
	لا جرم	لا بد ، أو لا محالة
	العشيرة	القبيلة . والمراد هنا الأقارب
	المداهنة	التملق والمداجاة
٩	رثت لحاله	عطفت عليه
	فثأته عنه	أزاله عنه أو خففت من حدته

الصفحة	الكلمة	معناها
	البِطنة	الامتلاء الشديد من الطعام
	مغاليا بها	شديد الحب لها
	اختلس	اغتصب خُفية
	ضنّت	شحّت — بَخِلت
	روَى الشيءَ يرويه	جمعه وقبضه
	احتضن الشيءَ	جذبه إلى نفسه
	نام ملء جفنيه	نام نوماً هادئاً عميقاً
	الوثير	المُمَهَّد
	اللحم القديد	اللحم المقدَّد أى المقطع قطعاً مستطيلة
	يسرُد	يقُص
	فصلا صحيحاً	فارقاً واضحاً حقيقيًّا
	الشَّرِه	الحريص الشديد الرغبة فى جمع المال وغيره
	الكلبى	أحد الكلبيين وهم طائفة من الفلاسفة ظهرت فى القرن الرابع قبل الميلاد

الصفحة	الكلمة	معناها
١٠	يتماوج مع الهواء	يهتز معه ويتحرك
	يمتع العين	يملؤها حسناً وإعجاباً
	الشذى	شدة ذكاء الرائحة وطيبها
	العَرْف	الريح الطيبة والخبيثة وغلب استعماله فى الطيبة
١١	خشعت النفس	هدأت وسكنت
	رهبة الكون	ما يبعثه فى النفس من خوف مشوب بإجلال
	النبرات	جمع نبرة وهى الارتفاع من كل شىء وفى الصوت [illegible]
	البحر الخضم	الواسع المتلاطم الأمواج
	الإبريز	الذهب الخالص
	الأجاج	الماء الملح المرّ
	كفهر وجه السماء	تغير وامتلأ بالغيوم
	ترقص الموت	[illegible]

ص	الكلمة	معناها
	من كل صوب وحدب	الصوب مكان المجيء من علو، والحدب الارتفاع وهذا بيان لسرعة المجيء
	الأيدى راجفة والقلوب واجفة	بمعنى مهتزة ومضطربة
	بانَ الدنيا	فارقها
١٢	امتطى	ركب : مأخوذ من المطا وهو الظهر
	فكرة طريفة	جديدة
	لم تعْدُ	لم تجاوز، من عدا يعدو
	نَشَرات	مفرده نشرة وهى بيان موجز يذاع فى الناس
	مزوَّدة	مجهزة
	جمة	كثيرة
	هم بكذا	قصده وشرع فيه
	متلاف	مسرف كثير الإنفاق
	مشعوذ	الشعوذة خفة فى اليد ترى الشىء على غير ما هو عليه والمشعوذ المأخوذ كالمسحور

ص	الكلمة	معناها
١٣	أرصد	أعد
	ذرع إيوانها	مساحته
	لم تنقض	لم تنهدم
	الجوى	الحرْقة والألم من شدة الاشتياق
١٤	واسوْه وآسوْه	بمعنى أعطوه جزءا من أموالهم مجاملة ومساواة لهم
	يقتاتون	يأكلون
	هدأة من الليل	جزء من أوله
	كبِّل فى الحديد	قيد به
	أضناه القيد	أتعبه وأهزله
	آلى عليه ألا يفعل	حلف وأقسم
	بارح عنى	مفارق لى
	أبرّ الدوابّ	أكرمها وأسرعها
١٦	أساهرك	أسهر معك
	أنت معافى	سليم من الأمراض
	وأنا مبتلى	مصاب بها

البيت	الكلمة	معناها
	العُوَّاد	جمع عائد وهو زائر المريض
١٧	الوغى	الصوت والجلبة ، والمراد به الحرب
	سمر القنا	أى القنا السمر من إضافة الصفة إلى الموصوف والمراد بها الرماح
	الجَدُّ	بالفتح الحظ
	لم تعطفه	لم تثنه وترده عن عزمه ،
	قارعة العذل	وقارعة العذل كلمات اللوم لشدة تأثيرها
	شتى صروفها	حوادثها المختلفة
	المهتضم	هضم جاره : نقصه حقه
	ضغينات النفوس	أحقادها
	على دَخْل	على حقد
	مهنَّدى	سيفى
١٨	يحتذون نعالهم	يلبسون أحذيتهم
	وهج الشمس	شدة حرارتها

البيت	الكلمة	معناها
	يقيل فى الهودج	يقضى وقت القيلولة (وهى وقت الظهر) فى مركب خاص يوضع على ظهر البعير
	تضرم النار	توقد مع شدة
	حفنة من الشاى	ما يملأ الكفين منه
	نضوب المياه	نضب الماء غار فى الأرض
	رزح	ضعف وهزل
	قوضت خياما	انهدمت
	تَسْفِى الرمالَ	تذريها وتنثرها
	وعثاء السفر	مشاقه وشدة متاعبه
	القهقرى	إلى الوراء
	سراديب	مفرده سِرْداب وهو البناء تحت الأرض
	مطرَّزة	مزينة بالأشكال والرسوم الحسنة المنظر
	الأبراج	مفرده برج وهو ركن الحصن والمراد هنا جزء من البناء مرتفع كالحصن

الصفحة	الكلمة	معناها
	حنيذ	مشوى
	سميـد	نظيف أو جيـد
	مطيَّبة	أضيف إليها ما يحسِّن طعمها ورائحتها
	رُوح الزهر	خلاصته على شكل سائل
١٩	السحق	البعـد
	أدرك الفرخ	كبر
	توعَّد	خوَّف وأنذر بالشر
	يَرْقَى	يصـعد
	كاسفة اللون	متغيرة اللون
	دُهيت به	اصِـبْت
	غَرَّر بنفسه	ألقى بنفسه فى مواطن الخطر جهلًا منه
	يتهيأ	يتيسَّر ويسهل
	همزه	لطمه وضربه
	أجهز عليه	قضى عليه وقتله
٢٠	أَثِرَ عنه	أُخذ عنه

الصفحة	الكلمة	معناها
	الحسب	شرف النسب
	سَخْطةً له	كرهاً وبغضاً
	الحرب السجال	التى يؤذى فيها كل من الفـريقين المتحاربين ولا ينتصر على خصمه انتصاراً نهـائيًّا
	ائتم	اقتدى
	أخلص إليه	أصل إليه
	توليت	أدبرت ورفضت
	الإِثم	الذنب والجرم
	الأريسيين	الأتباع والرعية
	اللغَط	الصوت والجَلَبـة من لَغَطَ يلغَطُ
	أَمِر أمْرُه	عظُم شأنه
٢١	الفِراء	مفرده فَرْوٌ وهو الجلد عليه الصوف أو الوبر
	أبيض ناصع	شديد البياض

الدرس	الكلمة	معناها
	القارس	قرَس الماء جمد والمراد هنا الشديد البرودة
	الرّوعة	الفزع والخوف الشديد
	الفاجعة	الحادثة الأليمة
	جُلّ الركاب	معظمهم
	تَتضاءل	تصغر جدًّا
	لا غرو	لا عجب
	استساغه	قَبِله ورضى به
٢٢	الرُّقعة	ما كتب عليه
	الجزع	الأسف والحزن
	الغى	الضــــلال
	عجم عوده	اختبره وامتحنه
	الحباب	المراد : الخَمر
	وا حربا	وا أسفــا
	المغمز	الضعف
	الوِزر	الإثم وهو فى الأصل الحِمل
	الضــير	الضرر
	قَــدَّر	تروَّ وفكِّر

الدرس	الكلمة	معناها
	التقتير	التضييق فى النفقة
٢٣	البارّ بهــا	المؤدى لحقوقها كاملة
	المحتــد	الأصل والطبع
	يشين	يعيب ويدنس
	السمو والإباء	علو النفس
	أكْبروا	عظّموا وأجلّوا
	من فوره	بسرعة
	المُقْعد	الضعيف الذى أقعده ضعفه عن طلب الرزق
	ضرير	مكفوف البصر
	النباهة	الذكاء واليقظة
	العبقرية	النبوغ الفائق
	ارتجل خطبة	خطب على البديهة بدون تحضير
	وكل الأمر إلى الله سبحانه	أى فوّض إليه أمره وتركه إلى تدبيره وإرادته
	حرّر بلاده	خلصها من الاسترقاق والاستعباد

الدرس	الكلمة	معناها
	غرة الشهر	أوله ، وأصلها النقط البيضاء في جبين الفرس مثلا
	تتنازع	تقتسم
	صدى الصوت	رنينه الذي يرده الجبل أو نحوه
٢٤		هذه آيات من القرآن الكريم من سورة الشعراء ٢٣–٤٥
	موقنين	مؤمنين إيمانًا يقينيًا لا ريب فيه
	مبين	واضح ظاهر
	نزع يده	أخرجها من جيبه
	بيضاء	تسطع نوراً يغشى الأبصار
	أرجه	أجله وأخره
	حاشرين	رسلاً يجمعون الناس
	الميقات	الموعد
	العزة	السلطان والعظمة
	تلقف	تبتلع
	ما يأفكون	ما يزورون ويخدعون به أعين الناس
٢٥	الالتماس	الطلب
	العلاج	المعالجة أي الإعداد
	المواعين	الآنية أو كل ما يستعان به في عمل الأشياء. مفرده: ماعون
	مهيأة	مُعَدَّة صالحة
	الجوارح	الحواس وما إليها
٢٦	أوهن	أضعف
	ناشداه	طلبا منه بإلحاح
	نشداه كتاب الله	طلبا منه باسم كتاب الله
	باغي الماء	طالبه
	السراب	بقعة بيضاء يظن من يراها من بعد أنها ماء
	استعداه على فلان	لجأ إليه ليجيره منه
	الفاروق	المراد عمر بن الخطاب
	الأخلاف	حلمات الضَّرع
	يتهادى	يتمايل في مشيه
	برَّح به الشوق	جَهَدَه وآلمه
٢٧	الفحص عن المرض	تحديده ومعرفته

البيت	الكلمة	معناها
	الحساسية	القــدرة على الإحساس والتأثر بالجو
	شُغف بالشىء	ولع به وأحبه حباً شديداً
	انصهار	ذوبان
٢٨	تجوس خلال البحار	تتخللها وتطلب ما فيها
	الباسل	الشجاع البطل وفعله كظرف
	ذاد عنه يذود	دافع
	الرعب	الخوف الشديد
	رابط الجيش	لازم ثغر العدو أى الحد الفاصل بين الفريقين
	قلاع	الحصون على الجبــال مفرده قَلْعة
	نوّه به	رفع شأنه ومثله نوّهه
	حافل	جامع لعدد عظيم
٢٩	قيعان	جمع قاع وهو : مستوى من الأرض
	آية	علامة

البيت	الكلمة	معناها
	الكير	كير الحداد : مِنْفَخُه
	أحذاه يحذيه	منحه يمنحه
	عذبت فى هرة	أى بسبب قطة
	الخِشاش	بكسر الخاء وقــد يفتح الحشرات
٣٠	الفؤاد	القلب
	الهوَى	الحب
	تستعر	تضطرم وتتقد
	الثكالى	مفرده ثَكْلَى وهى المرأة التى فقدت ولدها
	النَّفْح	نفح الطيب نفحاً فاح أى فاحت منه رائحة طيبة
	أكمام زهر	مفرده كِمّ وهو وعاء الطلع وغطاء النور ومثله الكِمّة
٣١	أنيق	حسن مُعْجِب
	الوشى	التزيين بالألوان المختلفة
	البرود	مفرده بُرْد : نوع من الثياب
	المقلة	العين

البيت	الكلمة	معناها
	سراة القوم	عليتهم مفرده : سَرِىٌّ أى سخىٌّ ذو مروءة ، وفعله سرا أو سرِى أو سرُوَ
	الشقائق	شقائق النعمان زهر محمر اللون
	القَباء	ثوب يشبه العباءة، جمعه أقبية
	الصَّبا	ريح تهب من مطلع الشمس عند استواء الليل والنهار
	الصَّبْوة	الفتوة
	النفحات	جمع نَفْحَة ، والمراد بها النسيم الطيب الرائحة
	الغَضَّة	الطرية وكل ناضر فهو غض
	الرحيق	صفوة الخمر ويطلق على صفوة كل شراب لذيذ
	الهجعة	النومة الخفيفة، وفعله هجع
	الظهيرة	وقت الهاجرة أى نصف النهار عند اشتداد الحر
	الذوائب	مفرده ذؤابة وهى أعلى كل شىء

البيت	الكلمة	معناها
	الغدير	قطعة من الأرض يغادرها السيل فيبقى فيها ماء
	المَسْرَى	السير ليلاً
	الأدواح	مفرده دوح وهو مجموعة من الأشجار العظيمة
	العذارى	جمع عذراء وهى المرأة البكر
	الإضمار	الإخفاء
	يميع	يجرى على وجه الأرض منبسطا فى هينة ولين
٣٢	الجيد	العنق
	الويل	الهلاك
	بادرت	أسرعت
٣٣	المُزْمِع	العازم المصمم، فعله أزْمَعَ
	المَنازع	المشارب والمقاصد
	بعد لأى	بعد صعوبة وشدة
	التجلِّى	الظهور ، والمراد تجلى الله تعالى على موسى
	آنس	علم

رقم	الكلمة	معناها
	الغِـيَر	تغير الزمان أو تقلباته
	سرّح طرفه	أرسل بصره ينظر حيثما شاء وهو حر طليق
	ترسم الطريق	تتبعه وسار عليه
	روّض نفسه	ذلّلها وعوّدها
	شُقور	أمورٌ مُبِمّة
	الدُّكنة	لون يضرب إلى السواد
	سَفح الجبل	أسفله
	تَعَمَّج الوادى	تعرّج والتوى
	المباءة	المكان المختار للإقامة
	أدجى الليل	أظلم وستر كل شيء
	أَعْجَلَنا	حَمَلنا على السرعة
	الحضيض	القرار من الأرض عند منقطع الجبل
	مُنْجِدة	مرتفعة صاعدة إلى النجد
	غائرة	منخفضة نازلة إلى الغور
	مدوية	محدثة صوتاً حصا كدوىّ الريح
	الغـور	المطمئن من الأرض أى المنخفض، وغور كل شيء قاعه
	شبم	شَبِمَ الماء برد، فعله كطرب
	تهـدِر	الهدير صوت الحمام، وصوت البعير يردده فى حنجرته
	القَطِم	شهوة الضِّراب
	الحَباب	حباب الماء معظمه أو نفاخاته التى تعلوه
	البُلق	مفرده أبلق وهو الجواد به سواد وبياض
	الوَغى	الحرب، وأصله الجلبة والأصوات
	حدت الروضَ	أمطرت الحدائق
	الدِّيم	مفرده ديمة وهى مطر ليس فيه رعد ولا برق
	الخُبر	العلم بعد الاختبار
	التعليل	التلهية، وعد ... شيء ... خدعه كما يعلل الصبى بشيء من طعام يجتزئ به عن اللبن
٣٤	الطِّرف	الفرس الكريم

ص	الكلمة	معناها
	الدأماء	البحر
	حُطم	الراعى الظلوم الماشية يهشم بعضها ببعض ومثله الحُطمة
	يألو	يقصر
	فثأ الماء	خفض غليانه بإضافة الماء إليه
	البين	البعد ، وفعله : بان
	الطلائع	طلائع الجيش من يرسل منه ليطلع على حركات العدو
	وطن نفسه على الشىء	أى أعدها وهيأها له
	أَضَلّ	أضاع
	زُهاء	قدر
	الثغْر	موضع الخطر من حدود البلدان
	أدنى	قرّب
	الركض	ركض الفرسَ برجله استحثه ليعدو وركض الفرسُ عدا أى جرى
	أسفّ	دنا من الأرض
	الأراقم	جمع أرقم . وهى الحية التى فيها سواد وبياض

ص	الكلمة	معناها
	انبهر	بَهَرَه فانبهر أى غلبه فغُلب
	أذواد	جمع ذَوْد ، وهو من الإبل مابين الثلاث إلى العشرين
	السِّرب	القطيع أى الجماعة من الظباء والوحش والخيل ونحوها
	يمم المكان	قصده
	مفعم	ممتلئ
٣٥	أزرى به عمله	حط من كرامته
	مُحْرَجين	واقفين موقفاً حرجاً أى فيه ضيق وخطر
	علم الثورة	عميدها ورئيسها
	فترت الحركة	ضعفت
	هبّ للدفاع	استيقظ وتنبه
	الكتيبة	الجيش أو جماعة الخيل من المائة إلى الألف
	الاستشهاد	الموت فى سبيل الله
	دَهِمَ	هجم على حين غفلة
	المنهمر	سائل بقوة

الدرس	الكلمة	معناها
	تجلت	ظهرت جلية
٣٦	الإداوة	المَطْهَرَة أى الوعاء يوضع فيه الماء الذى يتطهر به
	المزود	وعاء الزاد
	الطهور	الماء يتطهر به
	أهل الذمة	الأجانب الذى أعطوا عهد الأمان
	صاغرون	أذلاء
	أنشدك الله	أسألك بالله
	الوَسق	مقدار حمل بعير
٣٧	الهجوع	النوم ليلا
	البز	القهر والغلبة
	ذات الطوق	الحمامة فى عنقها من الريش ما يشبه الطوق
	المهجع	مكان النوم
	صاح	هتف وأشرف على الهلاك
	الوغى	الحرب

الدرس	الكلمة	معناها
	ريح زعزع	شديدة تزعزع ما تلقاه
	طاف	دار
	الرّدى	الهلاك
	اخترم	أهلك
	عنوة	قهرا
	المرهف	السيف المرقق القاطع
	الصواعق	جمع صاعقة وهى نار تسقط فى الجو فتصعق ما يصادفها
	الصولة	البطش والسطوة
	الألغام	جمع لغم وهو ما يتخذ فى أوعية من مواد مدمرة تنفجر عند التماس
	الأفلاك	الكواكب
	تُصْدع	تتشقق
	الهوة	الحفرة العميقة
	طغى	كثر وجاوز الحد
	مَهيع	الطريق البين
	الخلة	الخصلة
	الأسبع	مفرده : سبع وهو المفترس من حيوان

الصفحة	الكلمة	معناها
	أوشك	قرب
	السنا	الضوء
	الهدى	الهداية والإرشاد
٣٨	عيون القصائد	خيرها
	الضروب	الأنواع
	الجُلى	الأمر الهام المستفحل
	تُسْتَنْفَر	تُسْتَحَثُّ للنهوض
	الجمهرة	جمهرة الناس معظمهم
	العظائم	الأمور الهامة
	الهم	الاهتمام
	الصَّبابة	رقة الشوق
	النوَى	الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد
	الارتياض	ارتاض المهرُ خضع وذلّ
	الصد والجفاء	الهجر
	دَبْر الآذان	وراء الآذان أي لا نعنى به
	الخدور	جمع خِدْر وهو السِّتر

الصفحة	الكلمة	معناها
	البِنى	جمع بنية
	أمضى حكمه	أنفذه
٣٩	النِّطع	بساط من الأديم أي الجلد
	الجنان	القلب
	السُّلالة	ما انسل من الشيء وتطلق على الولد
	مهين	حقير قليل القيمة
	جبر	أصلح
	الصدع	الكسر والشق
	لأم	ضم
	الشَّعث	انتشار الأمر وتفرقه
	الشهاب	شعلة نار ساطعة
	الجريرة	الجنـــاية
	مصلت	أصلت سيفه جرده أي أخرجه من غمده فهو مصلت
	أُنعي إليهم	يخبرون بموتي
	خَمش وجهه	خدشه وجرحه

البيت	الكلمة	معناها
	جَـذلان	مسرور
	العَذْل	اللوم
٤١	يرتمى	يشتد فى هبوبه
	توالى	تتوالى
	محنقات	غاضبات
	تثور	تهيج
	أزبدت	قذفت بالزَّبَد وهو الرغوة التى تعلو الماء عند فورانه
	جرجرت	صوتت
	أوفى عليه	أشرف
	تخور	تضعف
	طارت نفسه شعاعا	ذهبت متفرقة من خوف أو نحوه
	ندف القطن	ضربه بالمِندف ليرقّ وشبه الشاعر زبد البحر بالقطن المندوف
	تقِل	تحمل
	استكان	سكن وخضع

البيت	الكلمة	معناها
	العُباب	الموج
	حصير	مستوِى السطح كالحصير
	الحول	القوة
	الإِناء	المراد به الكون
٤٢	ماتنوء به الجبال	ما تعجز عن حمله الجبال
	قل حديه	ثلمهما
	الوهن	نحو من نصف الليل
	صب النيل	عاشـــقه ويريد به مصطفى كامل باشا
	لا تنى	لا تضعف ولا تفتر
	الغبطة	حسن الحال
	آثر النيل	فضله
	الرَّغد	الطيب الوسع
	اللُّهْوة	ما يلقى فى فم الرحى لتطحن
	الحُوَّل	حاذق بصير بتحويل الأمـــور
٤٣	الرِّتاج	الباب العظيم أو المغلق

صحيفة	الكلمة	معناها
٤٤	تعبيد الطرق	تذليلها وتمهيدها
	غاصة	ممتلئة
	تأخذ بطرف	تتصل
	اكتظت	امتلأت
	إبَّانَ	وقت
٤٥	الرُّواء	حسن المنظر
	القادمة	واحدة القوادم وهى عشر ريشات كبار فى مقدم الجناح
	الذنابى	الذنب
	الثريا	المراد الطبقات العالية من الجو
	الثرى	الأرض
	الخيلاء	الكِبر والعُجْب
	عزيف الحس	صوتها
	العَراء	الخالية
	طَنَّ	الطنين صوت الذباب والطست والبطة
٤٦	ماء معين	ماء جارٍ
	سنَح	عرض وظهر
	طفِق	استمر
	القَبَس	شعلة من نار
	يبادر	يسرع
	المكيدة	الحيلة المبنية على المكر والخداع
	الحتف	الموت
٤٧	تُسامى	تبارى فى الرفعة والشرف
	مقامى	صبرى
	الهوان	الذل
	مقول	لسان فصيح القول
	الضيم	الذل وانتقاص الحقوق
	لفَّ	وصل وصلا متيناً
	جبى	جمع
	الخراج	الأموال التى تجبيها الحكومة من الرعية طبقا لما تقرره الشريعة
	اضطرب الناس	اختلفوا

الدرس	الكلمة	معناها
٤٨	آنف	أنِفَ يأنَف : أظهر أنفة وإباء ونفورًا وبغضاً
	الكيد	الخداع والمكر
	الصوارم	جمع صارم وهو السيف القاطع
	كَرَّ	أقدم وهجم
	المتزلزل	المضطرب المتردد
	أنفِذ	أرسل
	الوِطاء	الفراش الوطىء الممهد
	ذلولا	سلس القيادة
	زائغة	خارجة مخالفة
	بُتر	قطع
	الضّالّة	كل ما ضاع منك فهو ضالة
	ناكصين	راجعين مُحْجمين
	آليت على نفسى	حلفت وأخذت عهداً على نفسى
	مسألة	سؤال أو طلب
٤٩	الحَدْس	التخمين أو الظن المؤكد
	الغلّات	المحاصيل الزراعية
	مسح الأرض	إيجاد مساحتها
	زُهاء	قدر
	رخاء	يُسْر
	مُطرِد	مستمر ليس فيه شذوذ
٥٠	أساطير	جمع أُسطورة وهى القصة الخيالية
	مُطرِق	أطرق سكت وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض
	فاغر	أى فاتح : من فغر يفغَر أى فتح
	يخور	يحدث خُوارًا وهو صوت البقر

الصفحة	الكلمة	معناها
	تقلد قربة	فى الأصل تعليق القلادة فى العنق والمراد هنا حملها معلقة
	البَكر	الفَتِيُّ من الإبل
	جَنبَ الدابة يجنبها	قادها من غير أن يركبها
	الغيهب	الظلام الشامل
	المُدْلج	من أدلج أى سار الليل كله
	الرَّمِض	الذى اشتد حرجوفه
	الصادى	العطشان
	المِنَن	جمع مِنّة وهى النعمة
	ضَنّ	بخل
٥١	صَدَع	كسر وشق والمراد: أثر تأثيراً عظيماً
	للسائرات	الكواكب السيارة
	مراصد	جمع مَرْصد وهو مكان نرصد منه الكواكب أى نترقب ونبحث عنها
	التبيان	البيان والإيضاح
	سفح الجبل	أسفله
	الإيوان	الصُّفّة العظيمة
	الحِدْثان	نوائب الزمن
٥٢	أطرفه	قدم إليه طرفة أى طعاماً أو شيئاً طريفاً مستحدثاً
	الوخامة	وخامة الطعام عدم موافقته
	الجَد	الحظ
	عالج نفسه	مرّنها ودونها
	ما أخلقك	ما أجدرك وأحقك
	الحْجلة	طائر من الطيور يحجُل فى مشيه
	راض نفسه	ذللها لتتعود أمراً من الأمور
	أيس	يئس وانقطع رجاؤه
٥٣	البازى	نوع من الصقور
	الوَهَج	اتقاد النار
	زج بنفسه	دفعها
	مُمْعِناً	مستمراً موغلاً فى السير

ص	الكلمة	معناها	ص	الكلمة	معناها
	الأشاجع	جمع أَشْجَع وهو أصل الأصبع المتصل بعصب ظاهر الكف		أبلى بلاء حسنا	أظهر بأسه حتى بلاه الناس وخبروه
	الجؤجؤ	صدر الطائر ونحوه		الطَّلِبة	الشيء المطلوب
	العانق	الفتاة الشابة قبل أن تتزوج		المأثور	الذي ينقله الخلف عن السلف
	الهوى	العشق		خلى	ترك وأطلق
	المقلة	العين		تنحَّ	ابتعدْ
	الهامة	الرأس		يُصْطنع	يُخَص بالتربية والتخريج وعمل المعروف
	الأهِلَّة	جمع هلال			
	البازيار	مدرب البزاة		الحِلف	المحالفة والمعاهدة
	الطريدة	الفريسة المطاردة		أسرف	جاوز الحد
	الوامق	الشديد الحب		الفَعال	الكرم والفعل الحسن و يكون فى الخير والشر
	القطاة	طائر من فصيلة العصفير			
	الحالق	الجبل المرتفع		الندى	الكرم
	داج	مظلم		الطعان	التطاعن والتقاتل
٥٤	جعل فيه مالا	جعل لمن يأتى به جائزة مالية		الحوزة	الناحية والمراد الحمى
	لوّحته الشمس	غيرته وسفعت وجهه أى جعلته أسمر اللون		المُهنَّد	السيف المصنوع من حديد الهند

الصفحة	الكلمة	معناها
	الشُّنعة	الشـــناعة
٥٥	أسلمه	خذله وسلمه
	عَنوةً	قهرًا وجبرًا
	جارحة الظفر	الطيور الجارحة
	الضارية	الوحوش التي اعتادت الصيد
	الفئـة	الطائفـــة
	الجعبة	الوعاء توضع فيها السهام ونحوها
	الغُصص	جمع غُصَّة وهي الشَّجا أي ما يكون في الحلق من عظم ونحوه
	إمْرَح	اِطرَب وافرَح
	النشوة	نشوة الفرح هِزّته
	القلة	قُلّة الجبل قمتـه
	الهاوية	اسم من أسماء النـار
	ختالة	غدارة غرَّارة
٥٦	ألح عليها	حاول فتحها مرارًا
	الوَزَر	الملجأ
	بنو مرين	أسرة حكمت بلاد مراكش

الصفحة	الكلمة	معناها
	حسن بلاؤه	اختبر فظهر بأسه
	الشجا	ما يعـترض في الحلق من عظم ونحوه
	ما فُلَّ حدُّه	ما كسِرَ سـيفه
	الأخمص	ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض
	أشاد بذكره	رفع شأنه بذكره ذكراً حسناً
	الكُماة	جمع كمى وهو الشجاع المكمى في سلاحه أي المتغطي
	الذمار	ما يلزمك حفظه وحمايته
	الأرضى	أشد الناس رضاً
	الأمضى	أقوى الناس مضاء أي عزيمة
٥٧	تمخضت عنه	أي نشأ عنهـا
	تنتابها	تصيبها مرة بعد أخرى
	تتاخم	تجـاور
	التجاويف	جمع تجويف أي فضاء
	ارتجفت	اهتزت اهتزازًا عنيفاً
	التقلص	الانكماش

الصفحة	الكلمة	معناها
	الخسف	خَسف المكان ذهب في الأرض
	نتوء	بروز
	الأخاديد	جمع أُخدود وهو الشّق فى الأرض
	الآيتان	هما زلزال الأرض وفيضان البحر
	بغى عليه	ظلمه
	تلاك	يريد (الأرض)
	الشواظ	لهب لادخان فيه
	المارج	الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد
	نائى الجناحين	بعيد ما بين الجانبين
	الدانى	القريب
	الجون	الشديد السواد
	القانى	الشديد الحمرة
	عاتياً	معتدياً ظالماً
	خارت	ضعفت

الصفحة	الكلمة	معناها
	الغِل	الحقد
٥٨	مروان بن محمد	آخر خلفاء بنى أمية
	الآماق	جمع مُؤْق وهو طرف العين مما يلى الأنف
	المهدى	ثالث خلفاء الدولة العباسية
	لا تتوارى	لا تحتجب
	عضادة الباب	إحدى ناحيتيه
	متضائلة	متصاغرة
	وثبت عليهن	ثرت عليهن
	الثغر	الفم
	العقوق	الجحود ونكران الجميل
	تأسى به	أقتدى به
	أولاك بى	جعلك وصية على [illegible]
	الماشطة	التى تمشط الشعر [illegible] الخدمة
	وفى	حضر
	البدرة	كيس به عشرة آلاف درهم
	الاحتشام	التحجب

الدرس	الكلمة	معناها
٥٩	النابه	الظاهر العظيم الشأن
	الخامل	المجهول الساقط
	شتى الواجبات	الواجبات الكثيرة
	مآرب	جمع مأرب وهو الغرض
	العتاد	العُدَّة
	آذنت الشمس بالمغيب	قاربت الغروب
	الأقْدار	جمع قدْر وهو المقدرة أو الطاقة
	سمو المكانة	علو المنزلة
	تسنى له	تيسَّر وسهل
	امتعض	غضب وتألم
	يكفل	يضمن
	يدُر	يحدث
	صنو	إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل واحدة منهن صنو
	التبعات	المسئوليات
	الكواهل	العواتق والأكتاف مفرده كاهل

الدرس	الكلمة	معناها
	العَلم	الجبل والمراد هنا المعروف الذى لا يجهله أحد
	نكران الذات	نسيان النفس فى سبيل مصلحة غيرها
	المسالك	المنافذ
	فتك بها فتكا ذريعا	أهلكه هلاكا شاملاً
	الوباء	المرض العام ينتشر بين الناس
	الكليم	المجروح
٦٠	يتيه عجباً	يأخذه الكبر والإعجاب بالنفس
	أضاع رشده	أفقده عقله
	شاهق قصره	قصره المرتفع
	الطود	الجبل
	الباذخ	العظيم المرتفع
	نَكبه	أصابه بنكبة أى مصيبة خيبت آماله
	اللَّبِنة	جمعه لبن وهو ما يبنى به

صفحة	الكلمة	معناها
	المسارب	المسالك أو البيوت تحت الأرض
٦١	ندب الميت	بكى عليه وعد محاسنه
	جندله	صرعه
	استفتح	طلب أن يفتح له
	الأيادى	النعم
	مسقط الرأس	الدار التى ولد بها
	النيِّف	ما زاد على العقد من واحد إلى تسعة
	استمنح الناس	سألهم أن يتصدقوا عليه
	أمرد	نظيف الوجه لا شعر فيه
	عذر خداه	نبت عليهما شعر
	ممنطَق	حول وسطه مِنطَقة
	المِجْمَرَة	ما يوضع فيه الجمر للدخنة أى النار المتقدة وفيه البخور من عود أو نحوه
	الفهر	الحجر قدر ما يدق به الجوز أو يملأ الكف

صفحة	الكلمة	معناها
	النُّثار	ما ينثر من الذهب أو الفضة
	بنادق المسك	قطع من المسك كل منها بحجم البندقة
	النَّد	نوع من الطيب
	اصطنعه	اتخذه صنيعة له فاختصه بالتخريج أى التربية والتهذيب
٦٢	ارتجال الشعر	تأليفه على البديهة
	أجنَّ	ستر
	صرف الزمان	تقلبه وغيره
	البين	الفرق
	عتلاقاً	تعلقاً
	العناة	جمع عان وهو خاضع ذليل
	العذول	الذى يعذلك ويلومك
	العذير	الذى يعذرك ويلتمس لأمتك الأعذار

الصحيفة	الكلمة	معناها
	التعالى	الترفع والتكبر
	المنى	جمع مُنْيَة وهو ما يتمناه الإنسان
	التجنى	تجنَّى عليه ادعى عليه ذنباً لم يفعله
	القلى	البغض
	سلا	سلاه وسلا عنه سلوًّا نسيه
٦٣	الغيلم	الذكر من السلاحف
	ثَمَّ	هنـــاك
	اغتاله	قتله غيلةً أى خداعاً
	ألِف	ألف الشىء أحبه وتعوده
	ما حبسك	ما منعك
	المطا	الظهر
	مهتما	مغتما = كئيباً
	الريبة	الشك
	الوَرطة	الهلاك

الصحيفة	الكلمة	معناها
	عُقتنى	عاقه عن كذا حبسه وصرفه
٦٤	يحتذى مثاله	يقتدى به
	سدَّد سهمه	صوبه ووجهه نحو المرمى توجيهاً موفقاً
	القِدح	السهم قبل أن يثبت له ريش أو نصل
	المعلى	السهم المعلى سابع سهام الميسر
	المضاء	العزيمة القوية
	التراث	الميراث
٦٥	السُّدد	جمع سُدَّة وهى باب الدار
	ارتصد	ترقَّب
	الحِمام	الموت
	الغَرِد	الحسن الصوت
	الحشا	ما انضمت عليه الضلوع
	الدعة	خفض العيش ورغده

ص	الكلمة	معناها
	البَدَد	التفرق
	السَّبَد	القليل من الشعر
	اللبَدَ	الصوف
	لم يبق له سبد ولا لبد	أى قليل ولا كثير
	الجدد	مفرده جديد
٦٦	التِّبر	ما كان من الذهب غير مضروب
	الأزواد	جمع زاد
	اللُّجة	لجة الماء معظمه
	استخلفنى الملك	جعلنى خليفة له
٦٧	لمَّاح	الشديد اللمعان
	الخمائل	جمع خميلة — وهى الشجر المجتمع الكثيف
	الكَنَف	الجانب

ص	الكلمة	معناها
	الأقاحى	جمع أُقْحُوان وهو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر
	ضاحى	ظاهر واضح
	ثاكل	حزين لفقد ولده
	ممشوق القد	حسن القوام
	نضِد	وُضع بعضه على بعض
	بدينة	ضخمة الجسم
	ملقيات صفاح	الصفاح الملقاة وصَفْح السيف عرضه جمعه : صِفاح
	الرَّاح	مفرده راحة وهى باطن اليد
	السحَّاح	الذى يصب أو يسيل بكثرة
	المِلْواح	المرة السريعة الهُزال
	النِّير	الخشبة التى توضع على عنق الثورين عند الحرث ونحوه

الفقرة	الكلمة	معناها
	المراح	الشديد الفرح والمرح
٦٩	الخِبْاء	السِّتر
	الشبل	ولد الأسد
	عِتاق الخيل	كرائمها
	تفرَّس	تعود الفراسة
	تمرس	تعود الممارسَة والمعالجة
	لأمة الحرب	الدرع المحكمة الملتئمة ، جمعها : لأُم
	حشرجة النفس	الغرغرة عند الموت
	السَّمْهَرِىُّ	الرمح الصُّلب
	اللَّدْن	رمح لدن أى لين
	المرهف	السيف المرقق
	العضْب	سيف عضب أى حديد متين
	السَّيْبُ	العطاء والعرف
	النَّدب	الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب

الفقرة	الكلمة	معناها
٧١	أحْفى سؤالا	أشد إلحاحاً فى السؤال
	التنكيل	نكل به تنكيلا عذبه حتى جعله عبرة لغيره
	أنكد	عيش أنكد أى شؤم عسر
	الشِّعب	الطريق فى الجبل
	العيون والارصاد	[illegible]
	السّقاء	إناء يُسق منه
	الضماد	العصابات تربط بها الجروح
	خارت	ضعفت
	مصروعة	ملقاة على الأرض فى حالة ضعف
	الغمرة	الشدة
	الدولة والريح	القوة والغلبة
	له غور	له عمق
	اللدَد	شدة الخصومة

الصفحة	الكلمة	معناها
	صَمَد	استمات فى القتال واستمر فيه
	أرداه	أوقعه صريعاً
	ضنّ	بخل
	المثوى	المقر والمأوى
٧٣	الدهاء	جودة الرأى
	الشمائل	جمع شِمال وهو الخلق
	[illegible]	[illegible]
	اختصمت	اختلفت وانقسمت على نفسها
	دَعة	رقة ولين
	يأبى عليها	يعصى أمرها
	يدعن	يخضع
	يصدع بالأمر	يفعل كما يؤمر
	المخايل	جمع مَخِيلَة وهى أعلامه والصفة
	يُلم به	ينزل به

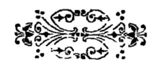
الصفحة	الكلمة	معناها
	ينكره	يستنكره ويتضرر منه
	يرتاع له	يخافه خوفاً شديداً
	الجرس	الصوت
	الرفادة	الضيافة والإعانة
	السقاية	السّقى
	الأدَم	مفرده أديم وهو الجلد
	السمة	الصفة والعلامة
	قدّر	تروّى وفكّر
	الوجوم	شدة الحزن يصحبه سكوت
	البله	ضعف العقل والغباوة
	يهيم على وجهه	يسير على غير هدى
	الطائف	العسس والمراد [illegible]
	[illegible]	[illegible]
	[illegible]	[illegible]

البيت	الكلمة	معناها
	سَمَر	تحدث ليلاً
	المصطخبة	المضطربة التى احتلطت فيها الأصوات بعضها بعض
	النَّبأ	الصوت الخفى
	النبوُّ	التباعد
	الكاهن	القسيس
	العارض	الحادث الفجائى
	بدَّد	فرَّق
	الماثلة	القائمة الظاهرة
	البطاح	جمع أبْطَح أو بطحاء وهى مسيل واسع فيه دقاق الحصى
	اللدات	الأتراب المتقاربون فى السن
	يتَنَدَّرون عليه	يتفكهون بحكاية نوادر عنه
	الأغوار	جمع غار أو غور وهى الكهوف

البيت	الكلمة	معناها
	الجزور	الناقة التى استحقت الجزر أى الذبح
	ما خطبك	ما شأنك أو خبرك
	متطب الجبين	فى جبينه ثنيات أى حزين
	الأتراب	اللدات
	لا تعدلها	لا تساويها
	ينقع الغُلة	يزيل الظمأ
	دار الندوة	مكان المشاورة
	عاتية	جبارة قوية
	مُؤرَّق الليل	ساهر الليل من الأرق
	الرَّئِيُّ	مَسٌّ من الجن أو هو جِنِّى يرى فيُحب
	يُغْلِي	يغالى ويبالغ
	يُمنون أنفسهم	يسلون أنفسهم بالأمانى والآمال
	قديد اللحم	اللحم المقدد أى المقطع قطعاً مستطيلة

الربع	الكلمة	معناها
	يستبقون	يتسابقون ويتنافسون
	أضنى	أضعف
	الفرث	السِّرجين
	الأعصم	الأحمر الرجلين والمنقار أوما فى جناحيه ريشة بيضاء
	وَعَيْت	حفظت

الربع	الكلمة	معناها
	الأسارير	السِّرَرُ خط الكف والجبهة جمعه أسرار وجمع أسرار أسارير
	تسعى إليه	تمشى نحوه
	المعول	الفأس العظيمة
	المكتل	زنبيل من خوص
	المسحاة	المِجْرفة التى يجرف بها الطين والتراب من على وجه الأرض



فهرس الموضوعات